العتبة العلوية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

(١٢٧)

الإمام علي عليه السلام
التدبير القيادي للدولة

تأليف

د. مهدي حسين التميمي

شعبة الإصدارات والمطبوعات

(٩)

الإمام علي عليه السلام
التدبير القيادي للدولة

□ المؤلف: ..... د. مهدي حسين التميمي

□ الناشر: ..... العتبة العلوية المقدسة / قسم الشؤون الفكرية والثقافية / شعبة الإصدارات والمطبوعات

□ الإخراج الفني: ..... نصير شكر

□ الطبعة: ..... الأُولى ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م ـ النجف الأشرف

مقدمة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويُكافئ مزيده ويمتري العظيم من فضله ونداه وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين مصابيح الدجى ومنار الهدى لاسيما بقية الله في الأرضين مولانا قطب دائرة الإمكان صاحب العصر والزمان أروحنا لتراب مقدمه الفداء.

وبعد..

ففي الوقت الذي يزف فيه قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة هذا الإصدار بحلته هذه إلى القرّاء الكرام بالتزامن مع الذكرى القرنية الرابعة عشرة لاتخاذ أميرالمؤمنين عليه السلام الكوفة عاصمة لحكومته الإلهية، فإننا نمد كف الضراعة الى المولى تعالى سائلين إياه أن يسدّد يراع زملائنا في شعبة الإصدارات و المطبوعات لتقديم كل ما هو رائع ونافع لخدمة شريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله فإنه ما إن انقشعت غيوم الطغيان والدكتاتورية البغيضة عن سماء عراق أهل البيت عليهم السلام

حتى نهدت العتبات المقدسة بقياداتها وإدارتها الجديدة بمهمة النهوض بالمستوى الفكري والثقافي لأبناء الإسلام العظيم مضطلعة بحمل هذا العبء عن طريق نشر وتحقيق المؤلفات التي تصب في خدمة الإنسان والإنسانية بكل بعد من أبعادها.

وقد حرص قسم الشؤون الفكرية والثقافية على نشر كل ما يخص مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من خلال إصداراته المختلفة والمتنوعة خدمة لطلاب العلم والمعرفة، ونشراً للثقافة الإسلامية الأصيلة.

ومن الله نستمدّ العون وهو حسبنا ونعم الوكيل متوسلين بباب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن تكون هذه الجهود في ميزان حسناتنا، والله من وراء القصد.

الشيخ علي خضر الشكري

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

١٤٣٦هـ

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة شعبة الإصدارات والمطبوعات

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والإحياء، والآخر بعد فناء الأشياء، وصلّى الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وآله الذي أرسله بالهدى ونور الحق وعلى أهل بيته الهداة الميامين، وبعد..

تتصاغر الكلمات وتتضاءل العبارات عند الحديث عن رجل يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، كنفس الرسول بنص الكتاب المجيد.. فتذهب حينها روعة البيان.. وسحر الكلام حين يخوض المرء في هذا البحر اللجي.. الذي لو كانت البحار مداداً والأشجار أقلاماً لما استطاعت عدّ فضائله التي حباه الله تعالى بها.

ومن هذا المنطلق تسعى شعبة الإصدارات والمطبوعات التابعة لقسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العلوية المقدسة إلى نشر فكر وتراث الإمام

أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام للقـرّاء الكـرام؛ لينهلـوا مـن هـذا المعـين العذب فكراً وثقافة إسلامية صحيحة بعيـدة عـن التعـصّب أو الغلـو؛ لأنّهـا تنطلق من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ومنه تعالى نستمدّ العـون والتوفيق، والله من وراء القصد..

شعبة الإصدارات والمطبوعات

١٢ ربيع الآخر ١٤٣٦هـ ـ ٢/ ٢/ ٢٠١٥م

***

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْـخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَـنَا عَابِدِيْنَ ﴾

(الأنبياء/ ٧٣)

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام

«وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْـحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلّا بِصَلاَحِ الْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ الْوُلاَةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ. فإذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إلى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إليها حَقَّهَا، عَزَّ الْـحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلاَلِهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ».

(خطبة / ٢١٦)

المقدّمة

يعدّ الحديث عن التدبير القيادي للإمام علي عليه السلام حديثاً عن منظومة من الفكر ومجالات النشاط التدبيري اتّسعت لدائرة واسعة من آفاق العمل المتعدد الأدوار على صعيد مهمات الدولة التي تولى الإمام عليه السلام قيادتها، وقد استهللنا موضوعنا ببيان المضمون الدلالي لعبارة (التدبير) مقابل المصطلح الحديث (الادارة)، والاستناد إلى مراجع اللغة وموارد التراث في الحكم والسياسة، وباعتبار أن التدبير يشير إلى الحكمة في الاداء، وهو وظيفة عقلية تؤدى بالجهد البدني والآلي المساعد، وقد قام الكيان الحضاري في مجالاته المختلفة في العصر الحديث معتمداً على التقنية الحديثة، والتي كان من شأنها أن تسهم في تطور مقابل في الفكر والأداء التدبيري.

ولأنّ الملكات والقدرات التدبيرية للإنسان لا تنفصل عن جذورها في التكوين الإنساني والذي لا ينفصل بدوره عن تأثير العوامل الوراثية للاجيال النشيطة من السلالات البشرية، وهو ما قد صحّ في أجيال النبوة ـ فإنّنا قد عرضنا للأصول التاريخية للفكر والنشاط التدبيري للسلالة النبوية التي ينتسب إليها الإمام علي عليه السلام، والتي كان لها الدور الرائد في إقامة المنظومة الرسالية التي

قامت عليها الأديان السماوية في هذا العالم، وقد تشكّلت دول وممالك قامت على أساس البناء العقائدي للفكر الرسالي الذي نهض بأعبائه النبي إبراهيم والسلالة النبوية الكريمة التي ينتسب اليها، وقد أوردنا جانباً من الدور الذي نهضت به الأسرة التي ينتسب إليها الإمام علي عليه السلام في بناء صرح التدبير القيادي في مكة في العهد السابق للإسلام.

وتناولنا في مبحثٍ آخر الخواص التدبيرية للإمام علي عليه السلام والتي وقف عندها المؤرخون ومترجمو السير، مؤكدين أنها كانت الأساس في بناء الشخصية المتوازنة له، وبروز قدراته وملكاته في التدبير القيادي، وبصدد ذلك فإن المؤرخ (ول. ديوارنت) يقول:

«إنّ علي كان في شبابه مثلاً أعلى للتواضع، والتقوى، والنشاط، والاخلاص للدين... وكان وقت أن بويع للخلافة في الخامسة والخمسين من عمره لطيف المعشر، محسناً، كثير التفكير، متحفظاً في قوله، ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التي عدّت فيها السياسة على الدين، وحلت فيها الدسائس محلّ الخشوع والاخلاص للإسلام والمسلمين»[1].

وينوّه الفيلسوف (توماس كارليل) وهو يعرض للسيرة الرائدة للنبي محمد صلى الله عليه وآله في كتابه (الأبطال) بالإمام علي عليه السلام فيقول فيه:

«أمّا علي فلا يسعنا إلّا أنّ نحبّه ونعشقه فإنه شريف القدر، كبير النفس، يفيض وجدانه رحمةً ويتلظى فؤاده نجدةً وحماسةً»[2].

ويستطرد (جورج جرداق) في ذكر مآثر الإمام علي عليه السلام ونبوغه في التدبير

---

(١) قصة الحضارة، ج٢، ص٧٨.

(٢) الابطال، ص٧٦.

الإداري إلى جانب مآثره الإنسانية الفريدة فيقول عن الفترة التاريخية لحكم الإمام علي عليه السلام انّها:

«صفحات رائعة من الإشراق الإنساني العظيم تشرّفنا كعرب كما تضيف شرفاً إلى الإنسانية... وإنّ مثل تلك الصفحات المشرقة في تاريخنا لتؤهلنا إلى أن نعيد النظر في أنفسنا من جديد، تحطيماً لكثير من القيود التي كبلتنا بها عصور الظلمات الطويلة.. وانّ ذلك الشعب الذي أمكنه أن يعبر عن عبقريته منذ أربعة عشر قرناً برجل كعلي بن أبي طالب ثم بمجموعة من الناس كبعض تلاميذه وأنصاره يومذاك، هو شعب يستطيع اليوم ـ في عصر غزو الافلاك ـ أن يمشي مع القافلة التي تسير وهي تنظر أبداً إلى الإمام...

وأنّ علي ابن أبي طالب من الأفذاذ النادرين الذين عرفتهم على حقيقتهم بعيداً عن الصعيد التقليدي الذي درجنا على أساسهِ أن ندرس رجالنا وتاريخنا.. وقليل جداً من عظماء التاريخ الاقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك موازين العدالة الكونية تنبثق عن نفسها وبنفسها متكشفين بنور العبقرية أن من «ساء خلقه عذب نفسه»، وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين أدركوا وعاشوا وقالوا: «**إن كل إنسان نظير في الخلق**» و«**انّ الناس سواسية...**»، وقليل جداً هم الذين وعوا ان «**الاحتكار جريمة**»، وانّه «**فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلاَّ بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِي**» و«**أَنَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً**»، ثم راحوا يخلقون القوانين وينظمون الدساتير على أساس هذا الوعي الكريم..!

وقليل جداً من عظماء التاريخ الاقدمين هم الذين عاشوا هذه المبادئ والأُصول جميعاً، وجلوها وأقاموا عليها مذاهب فكرية واجتماعية متماسكة، خرجوا بها من نطاق الأفكار المستقلة بعضها عن بعض إلى إقامة البناء المنظم

الواحد ذي القواعد والأركان...»[1].

ويقول المفكر (عباس محمود العقاد):

«إن سيرة الإمام علي (رضوان الله عليه)، تلتقي بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنّه صاحب آراء في التصوّف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية، ولأنّه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنّه أُوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسّه في نتيجة العمل ومجرى الأُمور...».

و«... ناحية أُخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرّد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح، فقد أصبح اسم عليّ علماً يلتفّ به كلّ مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف.. وجعل الغاصبون على كلّ مجتمع باغ وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفّس الذي يستريح إليه مكظوم، فمن نازع في رأي، ففي إسم علي شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم ففي إسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التأريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه، وعلى كل حالة من حالاته، وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية ان قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون»[2].

---

(١) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ص١٥ ـ ١٧.

(٢) عبقرية الإمام علي: ص٧ ـ ٩.

وقدم ابن أبي الحديد المعتزلي خلاصة وافية بخصال الإمام عليه السلام وفضائله: «إنّه يعدّ في الطليعة من العلم، والجود، والسماحة، والشجاعة، والايثار، والزهد...»، وذكر عنه في الرأي والتدبير: «إنّه كان من أشدّ الناس رأياً، وأصحهم تدبيراً، وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب لما عزم أن يتوجّه بنفسه إلى حرب الروم والفرس بما أشار، وهو الذي أشار على عثمان بأُمور كان فيها صلاحه فيها لو قبلها لم يحدث عليه ما حدث، وإنّما قال أعداؤه: لا رأي له لأنّه كان متقيداً بالشريعة لا يرى خلافها، ولا يعمل إلا بما يقتضي الدين تحريمه، وقد قال «لولا الدين والتُّقى لكنتُ أدهى العرب».

«وأمّا السياسة فإنه كان شديد السياسة، خشناً في ذات الله، لم يراقب ابن عمه في عمل ولاّه إياه، ولا راقب أخاه عقيلاً في كلام جبهه به، وأحرق قوماً بالنار، ونقض دار مصقلة بن هبيرة ودار جرير بن عبد الله البجلي... وإن كل سائس في الدنيا لم يبلغ ما بلغه مما فعله في الحروب بيده وأعوانه، فهذه خصائص البشر ومزاياهم، إن الإمام كان فيها الإمام المتبع فعله، والرئيس المقتفى أثره»[1].

وقال السيوطي: إنّ للإمام علي عليه السلام في جميع المشاهد آثار مشهودة وأعطاه النبي صلى الله عليه وآله اللواء في مواطن كثيرة.. ورويّ له عن رسول الله صلى الله عليه وآله خمسمائة وستة وثمانون حديثاً وروى عن بنوه الثلاثة: الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو موسى وأبو سعيد وزيد بن أرقم وجابر بن عبدالله وأبو أمامة وأبو هريرة وخلائق من الصحابة والتابعين .. وقال أحمد بن حنبل : «ما ورد لأحدٍ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وآله من الفضائل ما ورد

(١) شرح نهج البلاغة، ج١، ص٤٣ ـ ٤٥.

لعليٍّ رضي الله عنه»[1].

ونوّه الشيخ محمد عبدة في شرحه لنهج البلاغة بعظمة الإمام علي عليه السلام بقوله:

«كنت أشهد أنّ عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى نما به إلى مشهد النور الجليّ وسكن به إلى عمّار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس وأنات كأني اسمع خطيب الحكمة ينادي بعلياء الكلمة وأولياء أمر الامة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذّرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقاق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير...».

وفي موضوعنا عن مجال التدبير القيادي للإمام علي عليه السلام عرضنا لخصال التدبير القيادي للإمام عليه السلام مجسدة في الأبعاد الحيوية للسلوك القيادي في جوانبها الروحية والعقلية والجسدية، وانتظامها في مواصفات حيوية أهَّلت الإمام لدوره القيادي الرائد مشفوعة بشواهد حيّة من سيرته، مع أهمّ ما توافر عليه من منجزات في الجوانب الحيوية من النشاط التدبيري، ما اتّصل منها بشكل خاص بالجانب التدبيري للدولة في مجالات النشاط المختلفة.

وفي فصل خاص تعرّضنا لوظيفة الدولة وفعالياتها الاساسية استناداً لما أفاد به الإمام عليه السلام من التحديد الدقيق للوظائف الاساسية لإجهزتها ووظائف القائمين عليها، مشفوعة بجملة التوجهات الخاصة بذلك، واستناداً إلى الكتب

---

(١) تاريخ الخلفاء ص١٦٦ ـ ١٦٧.

والرسائل التي توجه بها الإمام عليه السلام لولاته بخصوص ذلك، مستعرضين مقرراته الخاصة بالجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمنجزات المتحققة في مجالاتها.

وتتوضح من خلال النظرة لمجمل عقيدة الإمام علي عليه السلام بالدولة وصلتها بالجمهور العام حقيقة كونه على الحالة الأتم من النهج الديمقراطي الفريد من نوعه، وإنّه كان يؤمن بالتمام بالدور التشاركي في المسؤولية العامة، وبكون الدولة راعية ومؤمنة مصالح، وقد تفانى الإمام عليه السلام بمقتضى ذلك في خدمة الجمهور، ولم يعرف التاريخ قائد دولة من مثله على الحالة التي تواصل فيها مع جمهور الناس، وعاش همومهم، واهتمّ بمصالحهم، وانّه قد تنازل عن كلّ الامتيازات التي أُتيحت له وهو على رأس الدولة، وتعفّف عن الأخذ من المال العام حتى ما يكون من حقّه، وانّه كان يرى في المال العام حقاً لكلّ ذي حاجة، ولم يعد يطيق أن يرى تكدس المال في خزينة الدولة دون أن يصرفه للمصالح العامة. ونقل البلاذري في ذلك: «إنّ علياً دخل بيت المال مرّة فرأى فيه مالاً فقال: «هذا والناس يحتاجون»!، فأمر فقسّم بين الناس، وكنس، وصلى فيه، وانّه لم يصب من عمله في الحكم شيئاً، وقد قال وهو على المنبر: «ما أصبت من عملي شيئاً سوى هذه القويريرة أهداها لي دهقان، ثم نزل إلى بيت الطعام فقال: خذ خذ، ثم قال: أفلح من كانت له قوصرة يأكل منها كل يوم مرة»[1].

وذكر أنه عليه السلام لم يصرف من المال أبداً ليبني له داراً، ونقل في ذلك أنه: «لم يبن بين آجرة وآجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وأنه كان ليوافي بحبوبه من المدينة في جراب، وقيل أنه أخرج سيفاً إلى السوق فباعه وقال: لو

(١) أنساب الأشراف، ص٣٧١ ـ ٣٧٢.

كان عندي أربعة دراهم ثم إزار لم أبعه»، وكان لا يشتري ممن يعرفه.. وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: «لا أحبّ أن يدخل بطني إلا ما أعلم»، وكان يحرص على أن يؤدي أعماله بنفسه ويحمل ما عنده بيده، وروي في ذلك إنه رؤي وهو يحمل في ملحفه تمراً قد اشتراه فقيل له: يا أميرالمؤمنين إلا نحمله عنك؟ قال: «أبو العيال أحقّ بحمله»، وذكر انّ الزهاد تذاكروا عند عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب»[1].

ومن يقرأ بعناية ما يرد في بلاغات الإمام علي عليه السلام وبياناته لولاته وعماله، وبالأخص منها ما كان في عهده الشهير لواليه الكفوء مالك الاشتر تطالعه بيانات كاملة لمواثيق حية لحقوق المواطنة وللالتزامات القانونية والأدبية لمتولي الشؤون العامة تجاه مواطنيهم ما لم يصح مثله في أرقى دساتير الأمم وأجدرها بالاعتناء بحقوق الإنسان وبالتزامات الدولة تجاه مواطنيها، وقد أدرك العالم اليوم قيمة تلك المبادئ التي صاغها الإمام عليه السلام من قبل التزامات للدولة تجاه مواطنيها، وحقوقاً لهم ثابتة بموجب الشرائع السماوية والوضعية الموافقة لها، وقد أقرّت الامم المتحدة الدعوة لتبنّي عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الاشتر ودعت إلى اتخاذ القائد الإسلامي الإمام علي عليه السلام مثالاً لتشجيع المعرفة وتأسيس الدولة على مبادئ العدالة واحترام الإنسان، وقد جاء ذلك في التقرير الذي اشتمل على أكثر من (١٦٠) صفحة، صادر عن برنامج الامم المتحدة الإنمائي الخاص بحقوق الإنسان وتحسين البيئة والمعيشة والتعليم UNDP، وقد اشتمل التقرير على مقتطفات من الوصايا الواردة في العهد المذكور، وبشكل

---

(١) الكامل في التاريخ، ج١، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٣) نهج البلاغة (كتاب ٥٣).

خاص منها ما يتعلّق بالمشورة ما بين الحاكم والمحكوم ومحاربة الفساد الإداري والمالي، ومنح العدالة لجميع الناس، وتحقيق الإصلاحات الداخلية، وقد أخذ التقرير بمقتطفات من وصايا الإمام عليه السلام التي وردت في نهج البلاغة والخاصة برئيس الدولة حين أكّد على:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِم».

واستعار التقرير من العهد المذكور للإمام عليه السلام فيما يتعلّق بفرض الضرائب واستصلاح الأراضي، والتنمية، ومحاربة الفقر:

«وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأرض أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلاَبِ الْـخَرَاجِ، لِأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلّا بَالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْـخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلّا قَلِيلاً».

وأورد التقرير نصيحة الإمام لواليه بشأن التعليم والمعرفة:

«وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْـحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ»[1].

وجاء التقرير على ذكر موارد أُخرى فيما يتعلّق بذكر الحق وعدم الإسراف في صرف الموارد وبيان الحقائق للشعب وأهمية التقدّم العلمي، منوهاً في ذلك بنصيحة الإمام عليه السلام: **«ولا دعاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْم»**[2].

---

(١) نهج البلاغة (كتاب/ ٥٣).

(٢) كراس عن ندوة عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر (رض)، ص١٣ ـ ١٤.

وقد أشرنا في المبحث الأخير إلى مجموعة منتخبة من حكم ومقررات التدبير القيادي للإمام علي عليه السلام فيها وفي كل الذي أوردنا في هذا الكتاب ما يؤكد حيوية الدور التدبيري الحكيم والعملي للإمام عليه السلام في مجال بناء الدولة القائمة على أسس الحق والعدل.

يجدر بكلّ المعنيين بالشأن التدبيري (الإداري والاقتصادي)، وبمجالات علم النفس السلوكي المتصلة بذلك الاهتمام بها، وبالقدر من الموضوعية التي تستحق، وحسبنا أنّنا قد قدّمنا قسطاً من الغاية المنشودة، مؤمّلين فيه أن ننال شفاعة من قصدنا شفاعته في ذلك، وهو حسبنا وبالله التوفيق.

أ. م.د. مهدي حسين التميمي

***

المبحث الأول

نظرة في المضمون الدلالي

لمفهوم (التدبير)

مفهوم التدبير:

خضع استعمال المصطلحات ـ مثلما خضعت سائر الترتيبات الحياتية ـ لقاعدة التطوّر في طبيعة الاستعمال، فهناك دلالات تعبيرية استعملت لزمن طويل ولاتزال جارية الاستعمال بنفس تركيبها ومضمونها، أو بما اشتقّ من أصولها اللغوية لتستعمل في ذات المضمون الدلالي على توالي العصور، مثل عبارات (الاقتصاد، السياسة، والحكم)، فإنّ الاستعمالات الحالية لها وبمشتقاتها لم تشكّل خروجاً على مدلولها الأساس في العربية، على خلاف عبارة (الإدارة)، فإنّ استعمالها الحالي وبمشتقاتها يشكّل خروجاً على مدلولها الأساس، ففي (لسان العرب): يرد ذكر (المداورة) بمعنى المعالجة[1]، وفي (تاج العروس) ان الإدارة: المداولة والتعاطي من غير تأجيل، وبه فسر قوله تعالى: ﴿**تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ**﴾ [2]، والمداورة: كالمعالجة في الأُمور وهو طلب وجوه فأتاها[3].

وفي مقابل ذلك ترد عبارة (التدبير): بالمعنى الموافي لمصطلح (الإدارة) الحديث وبمقتضياته العملية، ففي (لسان العرب):

---

(١) لسان العرب، ج١، ص: ٤٣٠.

(٢) البقرة، ٢٨٢.

(٣) تاج العروس، ج٣، ص: ٣١٢.

ـ «التدبير: أن يتدّبر الرجل أمره، ويدبّر الأمر ينظر في عواقبه، والرأي الدبري: الذي يمعن النظر فيه، وكذلك الجواب الدبري»[1].

وفي لسان العرب المحيط ـ المصطلحات العلمية والفنية ـ وردت عبارة التدبير مقابل العبارة الانجليزية (Measure)[2]، ويلاحظ انّ العبارة المذكورة قد وردت في قاموس اكسفورد بمعنى (إجراء، تدبير)[3].

وفي القاموس المحيط:

ـ التدبير: النظر في العاقبة، ويدّبروا الأمر، يتفهموا ما خوطبوا به، ونقل عن الجوهري إيراده في الصحاح لمعنيين للتدبير هما: أن تنظر إلى ما يؤول إليه عاقبته، والتفكير فيه[4]، ونحو ذلك ما ذكره أبي بكر الرازي، وذكر انّ الأدبر هو لقب حجر بن عدي، ولقب جبلة بن قيس الكندي.

وفي تاج العروس:

ـ الرأي الدبري: الذي يمعن النظر فيه، كذلك الجواب الدبري.

ـ التدبير: التفكير، أي: تحصيل المعرفتين لتحصيل معرفة ثالثة، ويقال: عرف الأمر تدبراً ـ أي في آخره ـ وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾[5]: أي أفلا يتفكرون، ويعتبروا، فالتدبر هو التفكير والتفهّم.

---

(١) لسان العرب: ج٨، ص ٣١٨.

(٢) لسان العرب المحيط: ج١، ص٢٣٨.

(٣) Oxford Word Power P٤٦٦.

(٤) القاموس المحيط، الفيروزآبادي: ج٢، ص٢٧.

(٥) النساء: ٨٢.

ـ والمدبرات أمراً: الملائكة موكلة بتدبير الأُمور[1].

وفي (محيط المحيط):

ـ التدبير: مصدر دبّر بمعنى التصرف والتفكير في إدبار الأُمور لتجيء محمودة العاقبة، وقيل هو استعمال الرأي بفعل شاق، وعند الأطباء: التصرف في العلاج باختيار ما يجب أن يستعمل، ويراد به أيضاً سياسة المريض في طعامه وشرابه ونحو ذلك، وكثيراً ما أراد به أبقراط[2] التصرف في الغذاء خاصة[3].

وفي (الهادي إلى لغة العرب):

ـ تدبّر الأمر قبل فوات الأوان: تلافاه، واتخذ ما يحول دون تفاقمه، أو خطره، وتدبّر القول، تفهمه.

ـ تدبير المال: علم يبحث فيه عن كيفية التصرف فيه تصرفاً نافعاً، والجمع تدابير.

ـ مدبّر المدبر: هو المالك الذي يعتق المملوك بعد موته، والمدبر: هو المتصرف بغيره إذا كان قاصراً في السن أو أخرق في التدبير وان ذلك يقابل بالانجليزية (Administration).

المدبر: عند الرهبان وأصحاب الطريقة هو الذي يشارك الرئيس الأكبر في رأيه، وعند الملاحين هو رئيس السفينة (Captain)، والمدبر هو الله سبحانه وتعالى[4].

---

(١) تاج العروس، مج٣، ص: ٣١٢.

(٢) ابقراط (نحو ٤٦٠ ـ ٣٧٧ق.م) أكبر وأشهر الأطباء اليونانيين، يتعهد الأطباء في قسمهم بالتقيد بمنهجه الأخلاقي المعروف بقسم ابقراط، (المنجد ـ الاعلام ـ ص٢ ـ ٣).

(٣) محيط المحيط: ٢٩٨.

(٤) الهادي إلى لغة العرب: ١/ ٧٥ ـ ٧٦.

وتبدو الصورة أكثر وأجلى وضوحاً في الدلالة عن معنى التدبير في القرآن الكريم، وفي نهج البلاغة، ففي القرآن الكريم لا نجد أي إشارة لعبارة (الإدارة) أو لأي من اشتقاقاتها المتداولة الآن، وانّ عبارة (تديرونها) الواردة في الآية ٢٨٣ من سورة البقرة، لا تدلّ على المعنى الشائع الآن، إذ المراد هنا التجارة والتي تتمّ فيها مداورة المال، أو بمعنى «التي تتعاطونها بينكم يداً بيد»[١].

وقد وردت عبارة التدبير في النص القرآني واشتقاقاتها في موارد أكثر دلالة على المعاني الشائعة بمصطلح الإدارة اليوم كما في قوله تعالى:

ـ ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمر**﴾[٢].

ـ ﴿**وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ الله**﴾[٣].

وأورد الطبري في معنى قوله تعالى (يدبّر الأمر): يقضي الله أمور الدنيا والآخرة كلّها ويدبّر وحده ذلك بغير شريك ولا ظهير ولا معين ﴿**يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إليه فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٤]، من أيام الدنيا ثمّ يعرج إليه ذلك التدبير الذي دبّره، وفي قوله تعالى ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾[٥] يتدبّرون النظر فيه فيعلموا حجّة الله عليهم[٦].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، عبد الله شبر، ص: ٨٤.

(٢) يونس: ٣.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) السجدة:٥، محمد: ٢٤.

(٥) النساء: ٨٢.

(٦) جامع البيان في تفسير القرآن: ج١٨، ص٩٢.

وجاء في تفسير أبو الثناء الآلوسي لعبارة (يدبّر الأمر): المراد هنا التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الأتمّ الأكمل، وعن مجاهد انّ المعنى يقضي الأمر، أمر الكائنات علويّها وسفليّها حتى العرش، أو يقدر ذلك على الوجه الفائق والنمط الرائق حسبما تقتضيه المصلحة وتقتضيه الحكمة، ونسب إلى الإمام الحسن عليه السلام في تفسير الآية الكريمة ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأرض**﴾ [1] انّ المقصود بالعرش قدرة الله وتدبيره[2].

وذكر الطريحي في معنى قوله تعالى ﴿**يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّمَاءِ إلى الْأرض**﴾ عن الشيخ أبي علي: يدّبر الأُمور كلّها ويقدرها حسب إرادته ما بين السماء والأرض وينزله مع الملك إلى الأرض ثم يعرج إليه الملك، أي يصعدن، وعن (المدبرات أمراً) قيل هي الملائكة تدبر أمر العباد ما بين السنة والسنة. وقيل المراد من ذلك جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت يدبرون امر الدنيا[3].

وينوّه سيد قطب في تفسيره ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ إلى معنى الإدراك البشري والاحتكام إلى ذلك الإدراك[4].

وقال ابن خلدون بشأن تدبير الله للكون: «والله ما لك الأُمور، ومدبّر الأكوان لا إله إلّا هو»[5].

ووردت عبارة (مدبري الشعب، ومدبري بني إسرائيل) في سفر الخروج

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: ١٠/ ٥٨.

(٣) مجمع البحرين: ٣/ ٢٩٩.

(٤) في ظلال القرآن: ٥/ ٧٢١.

(٥) المقدمة: ص٢٩٧.

من الكتاب المقدس بشأن القائمين على شؤون بني إسرائيل لدى فرعون:

«فأمر فرعون... مسخّري الشعب ومدبّريه قائلاً: لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن من أمس وأول من أمس، ليذهبوا هم ويجمعوا تبناً لأنفسهم، فخرج مسخّروا الشعب ومدبّروه وكلموا الشعب قائلين هكذا يقول فرعون لست أعطيكم تبناً.

فرأى مدبروا بني إسرائيل أنفسهم في بلية إذ قيل لهم لا تنقصوا من لبنكم أمر يوم بيومه..»[1].

وفي مطالعة نهج البلاغة، والذي يتضمّن تقريرات ووصايا وحكم الإمام علي عليه السلام وفي المصادر التي تعنى بسيرته عليه السلام نجد استعماله لعبارة (التدبير) للدلالة على مهام الحكم وتصريف الأُمور العامة، إلى جانب استخدامه لعبارات مرادفة ومساندة لمعانيها وبشكل خاص في رسائله لعماله، كمثل عبارة (وداوِل لهم ـ أي تدبّر أمرهم ـ)، وقد ورد ذلك في وصية لأحد عماله: «**وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ**»[2]، وفي عهده الشهير لمالك الاشتر استعمل عبارة (مباشرة الأُمور):

«**ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَبُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ**»[3].

واستعمل الإمام عليه السلام عبارة (الإمرة) وفيها معنى نفاذ الأمر من متوليه، مميزاً بين الدورين الايجابي والسلبي في ذلك وبحسب طبيعته، ويكون ذلك

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، خروج (الاصحاح السادس ـ ٥ ـ ٦).

(٢) نهج البلاغة: (الكتاب، ١٩).

(٣) نهج البلاغة: (الكتاب ٥٣) .

ضرورة لابدّ منها لانتظام أُمور الناس:

«**فَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِير بَرّ أو فَاجِر، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْـمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ.. أَمَّا الإِمْرةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فيها التَّقِيُّ، وَأَمَّا الإِمرةُ الْفَاجرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا الشَّقِيُّ، إلى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ**»[1].

وورد استعمال الإمام عليه السلام لعبارة (التدبير) في مدلولها المقابل لعبارة (الإدارة) الشائعة الآن كمثل وصفه لزبائن الفتن: «**يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ وَيُدَبِّرُهَا الْأَرْجَاسُ**»[2]، وقوله عن الله تعالى: «**فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةٌ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْـمُبْدِعِ قَائِمَةٌ**».

وكانت الغاية في الحكمة في وصفه لما يكون من التفاوت ما بين مدخلات ومخرجات الجهد التدبيري وصلة ذلك بقصور الأداء ما ينجم عنه ما يُدعى الآن بالفساد الإداري، كما في قوله عليه السلام:

«**يَغْلِبُ الْـمِقْدَار عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ الْآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ**».

«**تَذِلُّ الأُمور لِلْمَقَادِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْـحَتْفُ في التَّدْبِيرِ**»[3].

واعتبرَ الإمام عليه السلام التدبير عملاً عقلياً: «**ولا عَقلَ كالتَدبيرِ**»[4].

واستعمل الإمام عليه السلام عبارة (الحكومة) إلى جانب الإمارة في إشارة لتوليته مهام الحكم والتدبير: «**وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ في هذِهِ الْـحُكُومَةِ أَمْرِي**»[5].

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤١.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم ٤٥٩.

(٣) نهج البلاغة: قصار الحكم ١٦.

(٤) نهج البلاغة: قصار الحكم، ١١٣.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة ٣٥.

وفي المرحلة اللاحقة من العهد الإسلامي استعملت عبارة (التدبير) مع ما اشتقّ منها وتوافق معها من عبارات لما يختصّ بالأداء للمهام العامّة للدولة التي توسّعت آفاقها ومجالات العمل فيها، وأُلّفت خلال ذلك كتب في بيان ما يستوجب لتقليد ولاة الأُمور من شروط وأحكام، وما يقتضيهم من موجبات التأدية لمهامهم دعيت بـ(الأحكام السلطانية)، كان من أخصها كتاب (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) لأبي الحسن الماوردي (٤٥٠هـ)، وقد أشار إليه بن خلدون مراراً في مقدمته، وقد أكثر فيه استعمال عبارة (التدبير) وما يتّصل بها من مضامين كما في ذكره لموجبات تنصيب ولاة الأُمور وبالأخص منها لرئيس الدولة والذي أطلق عليه لقب (الإمام)، موضحاً انّ من شروط أهل الاختيار له شروط أهل الإمامة وهي: «الرأي والحكمة في سياسة الرعية وتدبير المصالح»، وبالنسبة للوزارة ذكر النوعين المعتمدين يومذاك وهما (وزارة التفويض)، وفيها يفوّض الإمام لمن يقوم بها «تدبير الأُمور وإمضاؤها على اجتهاده»، ومن شروطها (الشرط الثامن)، الحكمة والتجربة التي تؤدّي إلى صحة الرأي وصواب التدبير.

وبالنسبة للأقاليم أشار إلى تفويض الخليفة تدبيرها إلى ولاتها، مشيراً إلى نوعيّ الأمارة فيها، وهما: إمارة الاستكفاء: وتشمل النظر في تدبير الجيوش وتوليتهم في النواحي، وإمارة الاستيلاء، ويفوض الخليفة لمتولّيها تدبيرها وسياستها»[1].

ونهج ابن الفراء (ت٤٥٠هـ) في كتابه (الأحكام السلطانية) منهج الماروردي ونقل عنه الكثير، لكنه سمّى إمارة الإستكفاء بـ(إمارة الخاصة)، وقال

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: ٦ ـ ٢٩.

عن تسيير الحجيج انها: «ولاية سياسة، وزعامة تدبير»[1].

واستخدم القلقشندي (٧٥٦ ـ ٨٢٠هـ) في كتابه (مآثر الانافة في معالم الخلافة) لما يلزم للخليفة من المهام عبارات مثل (مشارفة الأُمور) والقيام، واستعمال عبارة (التدبير) في إشارته لصفات بعض الخلفاء، وذكر من ذلك عن المأمون «انّه كان حسن التدبير»[2].

وأورد بن خلدون عبارة (السياسة المدنية) والتي عرفها بأنّها «تدبير المنزل والمدينة» بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، وسمّي تدبير الأقاليم بـ(ولاية الأقاليم)، وذكر من شروط الكفاية لمنصب الخلافة: «حماية الدين وجهاد العدو، وإقامة الأحكام، وتدبير المصالح».

وعن وظيفة الوزير قال عنها إنها: «النظر عاماً بما في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أُمور الحمايات والمطالبات»، وأورد نبذا من رسالة عبدالحميد الكاتب إلى عمّال الدولة، والتي تعدّ بمثابة التعليمات العامّة ومنها:

«ثمّ اسلكوا مسالك التدبير أوضحها محجّة وأصدقها حجّة، فأحمدها عاقبة، واعلموا أنّ للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشامل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورويته، وانّ الذي برز من جميل صفته وقوة حركته وحسن تدبيره».

«ولا يقل أحدكم انّه أبصر بالأُمور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ومصاحبه إلى خدمته».

وذكر من كتاب العهد المشهور لطاهر بن الحسين لابنه عبدالله بن طاهر لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما وفيه يشير إلى مواصفات أهل التدبير:

---

(١) الأحكام السلطانية، صفحات متفرقة.

(٢) مآثر الانافة في معالم الخلافة: ٢٨ ـ ٢٩.

«واستعمل عليهم أهل التدبير والتجربة والخبرة بالعلم وبالكياسة وبالعفاف»[1].

ووردت في كتب التاريخ من سير الأعلام عبارة (التدبير) في الإشارة لتولية الأفراد ذوي الشأن لمهامهم وعلى فترات مختلفة من التاريخ البشري، كمثل ما ذكره المسعودي (ت٣٤٤هـ) في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، وأسامة بن منقذ في كتابه (لباب الالباب)، وقد ذكر نبذاً من الوصايا والحكم لطائفة من المشاهير، ومن بينها أقوال (الحكيم) ذات الدلالة في تاريخ الدولة، ومنها: «زوال الدّول باصطناع السُفل القليلي التدبير».

وقول الشاعر في وصفه لمأثرات التدبير:

فاعمل صواباً تجد بالعزم مأثرةً فلن يُذم لأهل الحزم تدبيرُ[2]

وورد في ثنايا المراجع الادبية الذكر لصفات التدبير عند البعض من أرباب الأدب والسياسة كمثل ما ذكر الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) في (يتيمة الدهر) عن سيف الدولة انه «كان قلما ينشط لمجلس الانس لانشغاله بتدبير الجيوش»[3].

وبالنسبة لموسوعات اللغة الانجليزية فإنّها وضعت الحدّ الفاصل بين الجهد التدبيري الذي ترتسم فيه علائم الدور القيادي في أنشطة منظمات الأعمال العامّة والخاصّة، وبين جهد الأداء التنفيذي للمهام، بين جهد يحكمه الفكر

---

(١) المقدمة: ٢٩٢ ـ ٢٩٧.

(٢) لباب الألباب: ج١، ص٥٢ ـ ٦٨.

(٣) يتمية الدهر: ١/ ٢٨.

والتخطيط، ورسم السياسة، وجهد ينصب على تحريك الأداء التشغيلي لعملية الانتاج والخدمات، وفي مجالات أملى التخصص الوظيفي وتقسيم العمل ذلك، ومع اتساع حجم وطبيعة مؤسسات الأعمال العامة والخاصة وتصنيفها إلى نشاط عام وخاص، وقيادي وتنفيذي، وفني وبسيط، وإنتاجي وخدمي، والملاحظ في المعاجم والموسوعات الانجليزية بصدد ذلك انّها تفرق ما بين عبارتي "Management و Administration" فتربط عبارة "Administration" بالمجال العام من النشاط "Public" وعبارة "Management" بمجال العمل الخاص "Business"، وبهذا الصدد فإنّ الموسوعة البريطانية " The New Encyclopedia" تحصر عناصر العملية الإدارية (التدبيرية) ضمن مصطلح "Public Administration" والذي يشير إلى مجال التنفيذ للسياسات الحكومية بما فيها من عناصر المسؤولية والبرامج المتعلقة بالتخطيط والتنظيم، والتوجيه، والتنسيق، والرقابة، والفعاليات الحكومية(١).

بينما تحصر عبارة "Management" بموارد العمل الإداري التدبيري، في الصناعة وأنشطتها بربطها بمجال الإدارة العلمية والتي تعد عملها مرتبطا بامتلاك القدرة التدبيرية في العمل، منوهة بأصولها التاريخية التي ترجع إلى تدبير أمور الخيول، والتدبير المنزلي، وهو ما يعرف باقتصاد الموارد المنزلية(٢).

والملاحظ ان جورج برسي. بادجر Geprge P. Padger قد استخدم وفي

---

(١) "Public Administration defined denotes the implementation of government policies… programs of governments specifically it is the planning organizing directing coordinating and controlling of government operations". The new encyclopedia britannice volume ٢٦ P. ٢٩٤.

(٢) Management to control direct or to be opposition on have the capacity to do anything the word was first used of management" of house.. to direct a house hold or mange… to economize to husband resources".

معجم "An Arabic ـ English Lexicon" عبارة التدبير وما يشتق منها عوضا عن عبارة (الإدارة) مع عبارات مرادفة أُخرى مثل (الترتيب، المباشرة، التولية، السياسة) وداورها بين ثلاث عبارات انجليزية تنتظم معانيها وهي:

- Management Administration Arrangement

ومشتقاتها وكما موضح أدناه:

تدبير، مباشرة، سياسة:

- (Management) - Direction of Affais.

تدبير الاشغال، سياسة الأُمور:

- Managing.

حكم، تولى على، دبّر، أجرى، باشر:

- (Administer) - to Direct.

متصرفية، وكالة، مباشرة، تدبير:

- Administrator ship.

مباشرة، ترتيب، تدبير، نظام:

- Arrangement[1].

وفي معجم الذخيرة العلمية أورد جورج ب. بادجر العبارات الانكليزية على مجراها العربي في الترجمة:

إجراء، تدبير، حكم، ايالة، تولي، خدمة، مباشرة، اداء، وكالة:

- Administration: Direction any Business.

مباشر، متصرف، مدبر، وكيل، نائب حاكم:

- Administrator.

---

(١) معجم جورج بادجر.

إدارة، مباشرة، سياسة:

- Management.

تدبير الاشغال، سياسة الأُمور، مباشرة، منصف:

- Managing.

انتظام، ترتيب، تدبير، نظام، نسق:

- Arrangement[1].

وفي العربية فإنّ عبارات مثل (التنظيم، المنظمة، المؤسسة) تعدّ استخدامات مستحدثة اشتقت من أفعالها جملة موارد مثل: (نظم، أنظمة، منظم، منظمات، تنظيمات، منظومات) وكمثل (أسس، مؤسسة، تأسيس، مؤسسات) فإنّ منشآتنا قد درجت على استعمال عبارات متماثلة ومختلفة بالانكليزية ولمضامين واحدة مثل:(Establishment Organization) وكمثل الاستخدام المزدوج لعبارة (عامة) ما بين العبارتين الانكليزية (Public State).

وكمثل سعة استعمال العرب لعبارة (الدار) على مرافق النشاط الحيوية مثل (دار الندوة) قبل الإسلام، ودار الامارة، دار الصدقات، دار الجند، دار الارزاق، دار الصناعة في العهد الإسلامي، فإنّه يجري استعمال هذه العبارة الآن بالانجليزية (House) في موارد مقابلة وعلى نطاق واسع في امريكا والغرب، ومنها تسمية مقر الرئيس الأمريكي (White House) ومجلس النواب (House of Representative)، وتسمية الكثير من الهيئات ومرافق النشاط العام الحيوية في البلدان الاوربية بمثل ذلك كـ(المجلس التشريعي) (House of Assembly)، ومجلس العموم (House of Commons) ومجلس الاعيان (House of Lords)

---

(١) معجم الذخيرة العلمية: ٤٠.

ودار القضاء (Tribunal House) وغير ذلك وكمثل ما يجري عندنا الآن من استعمال عبارة (الدار)، و(البيت) في تسمية بعض مرافق النشاط العام كمثل (دار العدالة، الدار الوطنية للنشر، بيت الحكمة).

وإن اقتران النشاط المتصل بتنفيذ المهام العامة بالعامل الاعتباري هو الذي يمنح المبرر لاستخدام عبارة (التدبير) عوض (الادارة)وانّ الذين يسمون علم الاقتصاد بـ(علم التدبير) كمثل مايسمون الاقتصاد المنزلي بـ(التدبير المنزلي) إنّما ينطلقون من تلك الخاصية الموافقة لصفة الترشيد[1].

واتفاقاً مع ما قد مر ذكره فإنّنا أوردنا عبارة (التدبير القيادي) في تعرّضنا لمجال الفكر والعمل القيادي للإمام علي عليه السلام وفيما توضح من مجالات التدبير والقرارات الخاصة بذلك ومن سيرته الجليلة في العهد النبوي وبعده وفي أثناء تولّيه لمسؤولية الحكم.

***

(١) الفرق بين الإدارة والتدبير: ص٨٧ ـ ٨٨.

المبحث الثاني

الولادة الروحية للقائد الرسالي

يعدّ الإمام علي عليه السلام من بين الصفوة من الأنبياء وأولياء النبوّة الذين خصّوا بالمعجزات الإلهية في ولادتهم حيث ولد في الرحاب المقدس من الكعبة المشرفة ولادة ميمونة ومن أمّ مؤمنة بالله غاية الإيمان في عهد الشرك وقد ذكر في ذلك: إنّ فاطمة بنت أسد عليها السلام وكانت حامل بالإمام علي عليه السلام قصدت بيت الله الحرام قائلة: «رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب وإني مصدّقة لكلام جدّي إبراهيم الخليل عليه السلام وأنّه بنى البيت العتيق فبحقّ الذي بنى هذا البيت وبحقّ المولود الذي في بطني لما يسّرت عليَّ ولادتي» وقد رُوّي انّ البيت الحرام انفتح عن ظهره ودخلت فاطمة وغابت عن أبصار من رآها والتصق الحائط، فراموا أن يفتح لهم فقفل ولم ينفتح ثم خرجت بعد الرابع وبيدها الإمام عليه السلام وورد قولها في ذلك: «إنّي دخلت بيت الله الحرام وأكلتُ من ثمار الجنة وأرزاقها فلما أردت أن أخرج هتف بي هاتفٌ: يا فاطمة سمّيه علياً فهو عليٌّ والله العليّ الأعلى يقول: إنّي شققت اسمه من إسمي وأدّبته بأدبي ووقفته على غامض علمي وهو الذي يكسر الأصنام في بيتي وهو الذي يؤذّن فوق ظهر بيتي ويقدّسني ويمجّدني»[1].

(١) علل الشرائع: ١٣٥ ـ ١٣٦.

وقد كان ميلاد الإمام عليه السلام كما نوّه عباس محمود العقاد: «إيذاناً بعهد جديد في الكعبة والعبادة فيها وأنّه قد ولد مسلماً على التحقيق، إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنّه فتح عينيه على الإسلام، ولم يعرف قطّ عبادة الأصنام وأنّه قد تربّى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية، وعرف العبادة من صلاة النبي صلى الله عليه وآله، وزوجته الطاهرة بنت النبي الاكرم، قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمّه»(١).

وشبّه تلك المشاهد الروحية التي كانت في ولادة الإمام علي عليه السلام كانت في ولادة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عقيلة الإمام عليه السلام ويذكر في ذلك أنّ عائشة قالت: قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما لك إذا قبّلت فاطمة جعلت لسانك في فمها كأنك تريد أن تلعقها عسلاً؟ فقال صلى الله عليه وآله: إنّه لما أُسري بي أدخلني جبرائيل الجنة فناولني تفاحة فأكلتها فصارت نطفة في ظهري فلما نزلت من السماء واقعت خديجة ففاطمة من تلك النطفة كلما اشتقت إلى تلك التفاحة قبلتها»(٢).

ولما حملت السيدة خديجة عليها السلام بفاطمة عليها السلام كانت تحدّثها من بطنها وتصبّرها وكانت تكتم ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فسمع خديجة تحدث فاطمة فقال لها: «يا خديجة هذا جبرائيل يخبّرني أنها أنثى وأنها النسلة الطاهرة الميمونة وانّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها وسيجعل من نسلها الحجّة ويجعلهم خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه»(٣).

وقد توافقت مآثر الولادة الروحية للإمام علي عليه السلام مع مأثرة السبق لإيمانه فقد وافى الصلاة في الكعبة المشرفة قبل الإيذان بها مع النبي صلى الله عليه وآله وشهد

---

(١) عبقرية الإمام علي: ١٣٥ – ١٣٦ .

(٢) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ١/ ١٦٥.

(٣) بحار الانوار: ١٠ / ٦.

له من رأى ذلك قائلاً: «جئت الجاهلية إلى مكة وأنا أُريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً وأنا عنده جالس حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلّقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثمّ قام مستقبل الكعبة ثمّ ما لبث إلا يسيراً حتى جاء غلام فقام عن يمينه ثمّ لم يلبث إلا يسيراً حتّى جاءت امرأة وكانت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فسجد الشاب فرفع الغلام فقلت: ياعباس أمر عظيم؟ قال: نعم أمر عظيم أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا قال: هذا محمّد ابن أخي أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أبي طالب ابن أخي أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد وأنّ ابن أخي هذا أخبرني أنّ ربه في السماء والأرض أمره بهذا الذي هو عليه ولا والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة»[1].

وكانت للإمام علي عليه السلام مأثرة السبق في تحطيم الأصنام في الكعبة وقد قال في ذلك: «انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أتيت الكعبة فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله على منكبي ونهضت به فلما رأى ضعفي قال: إجلس فجلست فنزل عن منكبي فصعدت على منكبيه فنهض فقال عليه السلام: انّه يخيّل إنّي لو شئت لنلت أُفق السماء فصعدت على الكعبة وعليها تمثال من صفر أو نحاس فجعلت أُعالجه لأُزيله يميناً وشمالاً وقداماً ومن بين يديه ومن خلفه حتى استمكنت منه فقال نبي الله صلى الله عليه وآله: اقذفه فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير ثمّ نزلت فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله نستبق حتّى توارينا بالبيوت خشية أن يرانا أحد»[2].

وعند فتح مكة جلس رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد فقام إليه الإمام علي عليه السلام

---

(١) خصائص الإمام امير المؤمنين: ص ٢٦ ـ ٢٧

(٢) خصائص الإمام امير المؤمنين: ص ٣٣ .

ومفتاح الكعبة في يديه[1] وقد أضاف مأثرة أُخرى من مآثره في ذلك الصرح المقدس وحمل راية الفتح فيه معلناً كلمة الإسلام في معقل الشرك وأسهم في جلّ معارك الإسلام الفاصلة مع الشرك، ونأى بنفسه في ذلك عن موارد الأثرة معتداً بحصّته الوافرة من المجهود الرسالي لتوطيد التوحيد وقيم العدل الالهي وسجّلت له في ذلك جملة المأثرات الجليلة القدر والموافقة لولادته الروحية وانتظام حياته كلّها على النهج الرسالي كان فيها النجم المتألق في القيادة الرسالية وقد ذكر السيوطي في ذلك أنّه عليه السلام: كان أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله بالمؤاخاة وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها وأحد السابقين في الإسلام وأحد العلماء الربانين والشجعان المشهورين والزهّاد المذكورين والخطباء المعروفين وأحد من جمع القرآن وعرضه على رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

وازدانت المأثرات الروحية للإمام علي عليه السلام بمأثراته القيادية والتي تجلت في مفردات حيوية من الفكر والنشاط التدبيري وبشكل خاص في الفترة التي تولى فيها الدور القيادي للدولة على عهد الخلافة ما سنوافي تفاصيله لاحقاً وكانت شهادته في مسجد الكوفة المعظم وفي الليلة التي قال عنها الإمام الحسن عليه السلام: «إنّها الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم وقبض فيها يوشع بن نون»[3] هي الولادة الرسالية المقابلة لولادته الروحية في جوف الكعبة وقد تألّق فيها الإمام عليه السلام نجماً من نجوم الشهادة للقادة الرساليين.

***

(١) السيرة النبوية: ٤/ ٣٠.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص ١٦٦ – ١٦٨ .

(٣) أعلام الهداية: ص ١٣٠ .

المبحث الثالث

سليل التدبير القيادي

يمتد الإرث العقلي والروحي للسلالة التي ينتسب إليها الإمام علي عليه السلام إلى أبي الأنبياء والموحدين إبراهيم عليه السلام وقد كانت سيرته وأبناؤه الأكرمين تشير إلى جوانب هامّة من الفكر والعمل التدبيري الذي نهض به بما لم تنهض به أمّة بكاملها وفي أجزاء هامّة من المجهود التدبيري الذي تواصل بين بلدان شتى مضى فيها النبي إبراهيم ليؤسّس الكيان الرسالي الكبير الممتدّ اليوم على الساحة الأرحب من هذا العالم.

لقد آمن إبراهيم عليه السلام بعقلانية وتدبّر وكانت له مع نفسه قبالة الله وقفات متدبّرة أفاد بها النصّ القرآني. وطلب من ربّه الحجّة ليكون على اليقين الثابت في إيمانه: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾[1].

وكانت الاستجابة الإلهية له موفية بالغرض لاستيقانه:

﴿ **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

ومضى إبراهيم عليه السلام بعد ذلك مقدّماً لقومه الحجّة تلو الحجّة على وحدانية الله، ومعجزات خلقه، منها ما كان مما حاجج به مشركاً ممن آتاه الله الملك فادّعى القدرة على الإحياء والإماتة بالقتل فقدّم له النبي إبراهيم عليه السلام حجّة كونية لله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْـمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْـمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ...**﴾[1].

ومضى النبي إبراهيم يدعو قومه لأن يتدبّروا في حال أصنامهم مقدّماً الدليل الاعتباري على بطلان عبادتهم لها، أنّها أحجاراً صماء: ﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أو يَضُرُّونَ**﴾[2].

ونجح إبراهيم عليه السلام في الاختبار الإلهي متقبلاً التضحية بنفسه كمثل تقبّله الافتداء بولده إسماعيل في اختبارٍ جسّد فيه النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام الحالة الفريدة من الامتثال للمطلب الإلهي، والصورة الأتمّ والأمثل للبعد الروحي من بين مجموعة الأبعاد للذات المتوازنة والتي جاء على ذكرها (ستيفن. أر. كوفي) على أنّها جوهر ومركز التعهّد بنظام القيم، وفي غاية الأهمية كونها من المصادر التي تمنح الإلهام وترفعه وتربطه بالحقائق السرمدية لكلّ الإنسانية[3].

وقد بارك الله لإسماعيل عليه السلام في نسله إذ تزوّج من الحنفاء بنت الحارث الجرهمي فولدت له اثنا عشر ذكراً، وانّ قول ابن اسحق في ذلك كما يذكر مطابق لما ورد في التوراة، وانّه أول من شقّ فوه (تكلّم) باللسان العربي من ولد إبراهيم، وقد عمّر بيت الله الحرام بعد أبيه، فلما شبّ أعطي القوس العربية فرمى بها،

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) قراءة في كتاب العادات السبع (دليل القيادة الشخصية للقرن الحادي والعشرين): ١٢٣.

وكان أول من ركب الخيل العتاق، ولما كبر ودنا أجله أوحى الله عز وجل إليه انّ قد قرب أجلك فاستودع التابوت والحكمة وما عندك من الوصايا إلى ابنك قيدار، فإنّي لا أخلي الأرض من حجّة عالم على خلقي، وجمع في ذلك ولده ثم كتب وصيته وسلّم إليه الوصايا، ونعل شيت، وخاتم نوح، وقميص إبراهيم، وأعطاه قوسه، وأوصاه بدين الله وسنته، ثم قبض وله من العمر مائة وثلاثون سنة[1].

وأقام أنسال إسماعيل عليه السلام من بعده الأساس لمنظومة التدبير القيادي في مكة استقطبت رموز القبائل العربية القاطنة فيها وما حولها في تشكيل مدني مستقر، وقد كانت مكة في أوائل أزمانها في حوزة الحجازيين ثم نزح إليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم المشهور نحو القرن الثاني للميلاد[2]، ثم أجليت خزاعة فيما بعد وكان إجلاؤها قد تمّ على يد قصي بن كلاب، وهو جدّ هاشم بن عبد مناف، ويرتقي إليه النسب النبوي الشريف، ومن ضمنه نسب الإمام علي عليه السلام، وفي نحو منتصف القرن الخامس الميلادي، وقد جمع قصي قريشاً عند تولّيه الحكم، وهي تمثّل أسياد مكّة وتجار القوافل فيها، وتضمّ الصفوة من قبائل العرب، وكان بعضهم في الشعاب ورؤوس الجبال فقسم منازلهم بينهم فسمي بذلك (المجمع)، وفي ذلك قول الشاعر:

أبـوكم قـصي كـان يـدعى مجمعـاً بـهِ جمـع الله القبائـلِ مـن فهـر[3]

وقد انعقدت لقصيّ المناصب المعتبرة في مكة كالرفادة والسقاية وكانت

---

(١) خليفة الله، د. حسين نور الدين: ٩.

(٢) تاريخ العرب المطول، فيليب حتى وجماعته.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢١٠.

الحياة تجري بعد ذلك بشكل أكثر رتابة وانتظاما آخذة الطابع الحضري، وقد برزت روح الجماعة لتخفف من حدة السلطان الفردي، وكان التعاهد والتحالف بين الأقوام القاطنة في مكة سبباً لوصل العلاقة بينها وللاتفاق على منهاج تضمنه الجماعة لحياتها، فكانت تقرر في ذلك القواعد والأصول التي تحدّد أوجه المسؤولية والطريقة التي تصرف بها أمور المدينة على الوجه الذي يبعد الشقاق ويسوي بين الجماعات المتعاهدة، وانّ ذلك قد خلق بعض المرافق وأوجه النشاط العام، وخلق فئة تزاول الوظيفة العامة التي تتصل بالكل الاجتماعي، وقد انضوت فيما بعد القبائل الأُخرى التي كانت بعيدة عن مسرح الحياة العامة في حلف جديد، هو الحلف المسمى بـ(الاحابيش) ـ نسبة إلى جبل حبشي، وكان الاتفاق فيه يتضمن بنوداً تزيد من التعلق بأهداب الجماعة وتضمن نوعاً من الوحدة والتماسك البلدي، وقد نصّ قرار الحلف على: «النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى التعاقد والتعاون على كلّ من كادهم من الناس جميعاً ما بل بحر صوفه، وما قام حر أو تبير، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة»[1].

وقد تعززت مكانه مكة بعدئذٍ حين سنّ هاشم بن عبد مناف الرحلتين، رحلة الشتاء إلى الشام والصيف إلى الحبشة، وكان لها أثرها في الحياة الاقتصادية وفي بلورة الحياة بشكلٍ خلق نوعاً من التوافق والترابط المصلحي الذي اقتضته أحوال الكسب والاتجار، كما انّ عمليات التحالف التي رافقت عملية الإتجار كوسيلة لصيانة القوافل المكية وحمايتها خلفت شكلاً أو آخر من أشكال التعايش والأمن الاجتماعي والاقتصادي الذي هو ضرورة ودعامة لاستتباب

(١) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٢١٢.

الحياة المدينة وتطورها.

وقد تركّز جهد التدبير في مكّة بعدئذٍ في نشأة العديد من مرافق النشاط العام وبروز الأدوار المعتبرة فيها مجسدة في بعض المرافق الأساسية العامة كـ(دار الندوة) التي بناها قصي وكانت بمثابة دار الحكم، أو المجلس البلدي اليوم، وكان يجتمع فيها كبراء البلدة وإشرافها تحت إمرته، يتداولون فيها شؤون بلدتهم، ويتم فيها التعاقد والتحالف، ومداركه الأُمور التي يخشى تفاقمها وتأويلها إلى نتائج تضر بالجماعة، فكانت مجمع الرأي، وملتقى الأفكار، وأداة لتكوين رأي عام مستقل في تفكيره ورؤاه إزاء الإحداث، وكان يرأس الاجتماع العام كلّ سنة أحد الأشراف والرؤساء، ولا يدخل الندوة إلا من بلغ الأربعين من عمره[1].

وبرزت بإزاء ذلك أعمال ووظائف عامّة كانت إدارتها وتوليتها تنعقد في أُسر معيّنة تتمثّل في شخص رئيسها، وقد جمعت العرب في الجاهلية في ذلك كما يقول جرجي زيدان: «بين السياسة والدين، والإدارة والحرب، وانّها اقتسمت ذلك فيما بينها بما يشبه الجمهورية، أو نوع من الحكومة ليس له شبيه بين الأمم المتمدنة»[2]، وكان من بين تلك المرافق التي كان لبني هاشم فيها دور هام، يؤشر جانباً من اعتبارهم الاجتماعي وملكاتهم في التدبير القيادي (الرفادة والسقاية)، و(الرفادة) هي أشبه بدار الضيافة اليوم، ومعنى (الرفادة): التعاون، وكانت قريش تترافد في ذلك: أي تتعاون[3]، فيخرج كلّ إنسان من ماله في أيام

(١) التمدن الإسلامي: ١/ ٢٥ ـ ٣٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) لسان العرب: ١/ ٢٥١.

الموسم ليشترون للحاج الجزر والطعام والزبيب.. فلا يزالون يطعمون الناس ومن لا زاد له ولا سعة حتى انقضاء الموسم، وكان يتولّى الرفادة بنو هاشم، وأول من قام بها لأهل مكة في سنة القحط والمحل هاشم بن عبد مناف، وكان يسمى عمراً، وسمي هاشماً من بعدها لهشمه الثريد فيها، وبه قال الشاعر:

عمـرو العـلى هـشم الثريـد لقومـه ورجـال مكـة مـسنتون عجـاف[1]

وقد أعطى قصي بعد أن عجز عن تولي أمر مكة الرفادة لابنه عبد الدار ثم أُعطيت مع السقاية بعد حلف الطيبين لبني عبد مناف حتى جاء الإسلام.

أمّا السدانة: فهي توليّ أُمور البيت الحرام وخدمته، وتسمى كذلك بالحجابة، والتي هي حفظ باب البيت، والاستئذان للداخلين، وهذه الوظيفة تشبه كما ذكر منصب (حافظ الباب) عند اليهود، وهو كاهن خاص لحراسة الهيكل[2]، وقد تولى السدانة من قريش قصي، وتولاها من بعده ولده عبد الدار، وقد اقر النبي صلى الله عليه وآله السدانة لعبد الدار فيما بعد.

والسقاية: هي عمل يختص بإسقاء الحجيج بالماء، وكان يتم ذلك في حياض من الجلد توضع في فناء الكعبة تنقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل في المزاود والقرب، وكان يتولاها قصي، ثمّ وليها من بعده عبد الدار، ثمّ أُعطيت السقاية فيما بعد لبني عبد مناف، ثمّ تحوّلت منه إلى عبد المطلب جد النبي محمد صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام، وكان يتولاها في الجاهلية والإسلام العباس بن عبد المطلب. ويذهب المسعودي إلى ان عبد المطلب هو أول من وضع الرفادة والسقاية بمكة، وربّما كانت السقاية عامّة هي التي قصدها، ذلك ان سقاية

(١) حياة محمد، محمد حسنين هيكل: ٥٨.

(٢) التمدن الإسلامي: ١/ ٣٦.

الحجيج كما هو معلوم كانت سابقة لحياة عبد المطلب.

وإلى جانب ذلك الجهد التدبيري لتنظيم الحياة في مكة وحواليها، كان ثمة الجهد التدبيري لتأمين المورد الاقتصادي اللازم لذلك، وقد تمّ ذلك بما سمي بـ(الإيلاف) ومعناه التهيئة والتجهيز، وكان أصحاب الإيلاف كما ذكر الإخوة الأربعة لعبد مناف (هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل) وكانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً يجيرون قريش بمسيرهم (مؤونتهم)، وبذلك فقد سموا بـ(المجيرين)، وقد أخذوا عهوداً بذلك من ملوك الدول المجاورة، فإنّ هاشم قد أخذ عهداً من ملك الروم، وأخذ نوفل عهدا من كسرى، وأخذ عبدشمس عهداً من النجاشي، وأخذ المطلب عهداً من ملوك حمير، فكان تجار قريش يختلفون لهذه الأقطار بعهود هؤلاء الاخوة فلا يتعرّض لهم[1].

ثم كان التدبير الوقائي المرتبط بالبعد الروحي ما كان لعبدالمطلب بن هاشم سيد قريش وسادن الكعبة المشرفة حين عزم أبرهة الحبشي على هدم الكعبة بعد أن بنى له معبداً قصد منه لن يتحوّل بأهواء الناس إليه، وقد نهضت العرب للدفاع عن الحرم المقدس ولم يسعها ذلك، وخلاصة ما ذكره ابن هشام بشأن ذلك: إنّ أشراف اليمن قد همّوا بالدفاع عن البيت الحرام وقد تعرّض منهم لأبرهة بأرض خثعم نفيل بن حبيب في قبيلته ومن تبعه من قبائل العرب شهران وناهز فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ نفيل أسيراً، وفي الطائف خرج إليه مسعود بن متعب في رجال ثقيف ومن معه فهادنه، وتمكن أبرهة من أن يجد له من بينهم دليلاً له إلى بيت الله، وحين نزل أبرهة المغمس وانتهى إليها ملكه ساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبدالمطلب بن

(١) لسان العرب: ١/ ١١٣.

هاشم، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم معبأة له، ثم عرفوا أنّهم لا طاقة لهم بذلك فتركوا ذلك، وبعث أبرهة رسوله إلى مكة ليسأل عن سيد البلد وشريفها وقد كتب كتاباً لعبدالمطلب قال فيه: «إنّما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تتعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم».

وتراءى لعبدالمطلب عند ذلك الموقف الخطير في واقع الحال، فذهب يلتمس عون الله ليدافع عن بيته الحرام قائلاً:

«والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام .. فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه».

وذهب عبد المطلب مع رسول أبرهة الذي أمره بذلك ومعه بنيه حتّى بلغ معسكره ودخل على أبرهة، وقد هابه لما بلغه عنه أنّه صاحب عِيْر مكة، وهو يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، وكان من إكرامه له انّه قد كره أن يجلسه تحت سريره فنزل عنه وجلس على بساطه وأجلسه إلى جنبه، ثم طلب من ترجمانه أن يسأله عن حاجته، وذهل أبرهة انّه قد طلب منه أن يرد له ما أصابه من إبله، فقال له:

«أتكلمني في مائتي بعيرٍ أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!، فأجابه عبدالمطلب: «أنا ربّ الإبل وإنّ للبيت رباً سيمنعه»، فقال أبرهة: «ما كان ليمتنع مني» فأجابه عبدالمطلب: «أنت وذاك».

وحين انصرف عبدالمطلب إلى قريش أخبرهم بما كان له مع أبرهة، واتخذ ما يلزم من وسائل التدبير لمواجهة الموقف، فأمرهم بالخروج من مكة والتحرز

في أعالي الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام وأخذ بحلقه باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، وقد قال عبدالمطلب وهو ممسك بحلقة باب الكعبة:

لا هـــــمَّ ان العبـــــد يمنـــــــ ـــــع رحلـــه فـــامنع حلالـــك

إن كنـــــت تـــــاركهم وقبـــــــ ـــــلتنا فـــأمرٌ مـــا بـــدا لـــك

ثمّ أرسل عبدالمطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه عن قريب إلى أعلى الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، وكان الذي كان من عقاب الله لأبرهة وجنده انّه تعالى قد أرسل عليهم طيوراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره، وحجران في رجليه لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، فخرجوا هاربين يتدبرون الطريق الذي جاؤوا منه، ويسألون عن دليلهم (فضل بن حبيب) ليدلهم على الطريق إلى اليمن، وذكر ابن اسحق عن مصير قائد الفيل وسائسه بأنّهما قد رؤيا في مكّة أعميين مقعدين يستطعمان الناس[1].

ووثّق النص القرآني تلك الحادثة في دلالتها الاعتبارية في سورة الفيل شاهداً من شواهد الرعاية الالهية لبيته الحرام، كمثل ما وثق التاريخ مأثرة الموقف المتدبّر لعبدالمطلب بن هاشم.

ومن ذلك الأُفق التدبيري الرحب امتدّ الموروث منه إلى علائم مجلاة وفي الفترة الأخص بالاعتبار في التاريخ الإنساني ما كان على العهد الأول للرسالة الإسلامية ما شخصت فيه عبقرية النبي محمد صلى الله عليه وآله والتي استحقّ فيها وعلى وفق المعايير الاعتبارية التي وضعها المفكر (مايكل هارت) أن يحتلّ المرتبة الأُولى من

(١) السيرة النبوية: ١/ ٤٠.

بين المائة الأوائل من عظماء التاريخ، وفي الفترة الأُولى من العهد الرسالي برزت المواهب والقدرات التدبيرية للإمام القائد الهمام علي بن أبي طالب، وفي مرحلة مبكرة من حياته، ويقف بنا (توماس كارليل) في تحليله للسيرة البطولية للنبي محمد صلى الله عليه وآله أمام مشهد تدبيري قيّم القدر للإمام علي عليه السلام في شبابه:

«فإنّ محمداً صلى الله عليه وآله حين جعل يذكر رسالته لهذا ولذاك كان يصادف جحوداً وسخرية، حتى أنّه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً، وبعد هذه السنوات الثلاث أدّب مأدبة لأربعين من قرابته ثمّ قام بينهم خطيباً فذكر دعوته وأنّه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون، وأنّها المسألة الكبرى، بل المسألة الوحيدة، فأيّهم يمدّ إليه يده ويأخذ بناصره، وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي عليه السلام وكان غلاماً في السادسة عشرة وكان قد غاضه سكوت الجماعة، فصاح في أحدّ لهجة انه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أنّ القوم كانوا منابذين محمداً ومعادينه وكلهم قرابته، ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك، فانفض القوم ضاحكين، ولكنّ الأمر لم يكن بالمضحك، بل كان نهاية في الجد والخطر».

وعن ذلك الموقف المتدبر الجرئ قال توماس كارليل: «أمّا علي فلا يسعنا إلا أن نحبه ونعشقه فإنّه فتى شريف القدر، كبير النفس»[1].

وبذلك كانت ثقة النبي محمد صلى الله عليه وآله بالإمام علي عليه السلام وحسن تدبيره على أتمّها، فإنّه صلى الله عليه وآله وفي خضم المسيرة العسرة للدعوة الإسلامية وحين تمادت قريش في التنكيل بمن آمن عهد إليه بمهمّة خطيرة عندما اجتمعت أعيان الشرك بمكة

(١) الابطال، توماس كارليل: ٧٥ ـ ٧٦.

وائتمروا للخلاص من النبي صلى الله عليه وآله، فتشاوروا في دار الندوة واتفقوا بأن يأخذوا من كلّ قبيلة فتى شاباً جلداً نسبياً، وأن يُعطى لكلّ منهم سيفاً صارماً ثمّ يعمدوا إلى النبي صلى الله عليه وآله فيضربونه ضربة رجل واحد؛ ليتفرق دمه في القبائل، وقد ترصّدوه متى ينام ليثبوا عليه، فلما علم النبي صلى الله عليه وآله بأمرهم عهد للإمام علي عليه السلام وهو غلام بأن ينام على فراشه ويتّشح ببردته، فامتثل للأمر وقابل نتائجه الخطرة بكلّ حزم وجرأة، وقد تدبّر أمره في ذلك، فإنّهم لما دنوا منه وعرفوه قالوا له: «أين صاحبك؟! فقال لهم باطمئنان: لا أدري، أوَرَقيباً كنت عليه، أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وخرجوا به إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه، وأقام علي عليه السلام بمكة بعدئذٍ ثلاثة أيام ولياليها حتّى أنهى عن رسول الله صلى الله عليه وآله الودائع التي كانت عنده إلى الناس، حتّى إذا فرغ من ذلك لحق بالرسول صلى الله عليه وآله (١).

وفي كل المواقع الحاسمة مع قوى الشرك عهد النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام بحمل رايتها، وكانت له في كلّ المشاهد والمواقف الجارية على عهد الإسلام الأول وفي مرحلة الخلافة وقفات وانتظام في الجهد والفكر التدبيري، وقد وافى من ذلك بالكثير من مواقفه وسداد مشورته ما سنأتي على ذكره لاحقاً.

ومن مزايا السيرة الفريدة والمتألقة للإمام علي عليه السلام أنّه كان على الخط الثابت في تميزه وتألّقه في السمات والسجايا منذ شبابه إلى منتهى حياته، وقد شهد له بهذه الخاصية الفريدة كل مترجمي السير ورواة التاريخ من المسلمين وغيرهم، وقد ذكر المؤرخ (ول. ديوارنت) في ذلك :

«إنَّ عليّ كان في شبابه مثلاً أعلى للتواضع، والتقوى، والنشاط،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري: ١/ ٥٦٧.

والإخلاص للدين، وكان وقت أن بويع في الخلافة في الخامسة والخمسين من عمره، لطيف المعشر، محسناً، كثير التفكير، متحفظاً في قوله، ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التي عدت فيها السياسة على الدين، وحلت فيها الدسائس محلّ الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين»[1].

ووصف (جورج جرداق)، الإمام علي في كتابه الذي سماه بصفته السامية (صوت العدالة الإنسانية) بأنّه «الضمير العملاق» ووصفه المفكر عباس محمد العقاد في خلافته: «إنّه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير.. وكان يفهم أخلاق الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور، ويشرحها في عظاته وخطبة شرح الاديب اللبيب»[2].

ولا ريب فإنّ علياً عليه السلام كان الخلاصة والعنوان للسلالة التي انتظم فيها التدبير القيادي، وفي (علم النفس التطوري) فإنّ عالم البيولوجيا البريطاني (وليم هاملتون) أفاد ومن خلال القول بنظرية (اللياقة المتضمنة) والتي تشكّل مزيجاً من الانتقاء الطبيعي والجنسي، وانتقاء القرابة ـ بأنّ اللياقة التكييفية التي تضمن البقاء والتكاثر لا تقتصر على المستوى الفردي وحده، وإنّما هي تتسع كي توفر اللياقة التكييفية للذرية والأقارب الأقربين، ومن خلال مجهودات الفرد وسلوكياته، واستثماره[3].

وينوّه (كارول اوكونر) إلى أنّ من بين المعتقدات الشائعة والمقبولة في الإدارة والقيادة: انّ المدراء (المدبّرون) مولودون بالفطرة على تولّي دور المدير أو

---

(١) قصة الحضارة: ٤/ ٧٨.

(٢) عبقرية الإمام علي عليه السلام: ٣١.

(٣) علم النفس التطوري: ٢٦ ـ ٢٧.

القائد وانّ بعض المزايا الشخصية مثل الطموح والشخصية الكفوءة والجذابة والثقة بالنفس والقدرة على المبادرة والاستقلال الذاتي والقدرة على الابتكار والابداع ومزايا أُخرى وانّه يمكن للظروف أن توجد مدراء يظهرون لإيفاء حاجات مجموعة من الناس أو حاجات زمن محدّد [1].

ويقول المفكّر عباس محمود العقاد: إنّ الإمام علي عليه السلام كان أوّل هاشمي من أبويين هاشميين فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأُسرة الكريمة وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء عدا المأثورة في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدّة من أولئك الأعلام.

وقد نوّه الإمام علي عليه السلام بمأثراته من السلالة التي ينحدر منها وما كان منها على عهد الإسلام: «وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصدّيقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمّار الليل، ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله، وسنن رسوله، لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»[2].

وقد انتظمت في ذلك النمط من الخصائص الرسالية ـ النبوة والإمامة ـ وهي تلتقي ببعضها لتشكّل نسيجاً متصلاً من المناقب وقد خُصّ الأنبياء وأولياء النبوة بذلك الدور الثنائي والذي تلتقي عنده وظيفة النبوة مع الإمامة ليكون الأنبياء كلّهم وبمقتضى النص القرآني الأئمة الهادون لأمر الله :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [3].

---

(١) الإدارة والقيادة: ١٢ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة: ٣٠٠.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

ويفيد العلامة ناصر مكارم الشيرازي: انّ في قوله تعالى «وجعلناهم ائمة» أي وهبناهم مقام الامامة إضافة إلى مقام النبوة والرسالة والإمامة هي آخر مراحل سير الإنسان التكاملي والتي تعني القيادة العامة الشاملة لكلّ الجوانب المادية والمعنوية والظاهرية والباطنية والجسمية والروحية للناس والفرق بين النبوة والرسالة وبين الإمامة هو انّ الأنبياء في مقام النبوة والرسالة يتلقّون أوامر الله ويبلغونها للناس إبلاغاً مقترناً بالإنذار والبشارة فقط أمّا في مرحلة الإمامة فإنّهم ينفذون هذا البرنامج الالهي سواء أكان هذا التنفيذ عن طريق تشكيل حكومة عادلة أو بدون ذلك، فهم في هذه المرحلة مربّون للناس ويعملون لهم ومنفذون للأحكام.. فالإمام في هذه الناحية كالشمس التي تنمي الكائنات بأشعتها وفي موهبة لاحقة ما عبّر عنه القران الكريم : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ** ﴾ انّ هذا الوحي يكون وحياً تشريعياً: أي جعلنا كل أنواع الخير وأداء الصلاة وإعطاء الزكاة هي مناهجهم الدينية، أو وحياً تكوينيا انّنا وهبنا لهم التوفيق والقدرة والجاذبية المعنوية من أجل تنفيذ هذه الأُمور(١).

ويشار إلى انّ الفرق الإسلامية قد استعملت اصطلاح الإمامة حيناً والخلافة أحياناً للتعبير عن معنى واحد هو رئاسة الدولة ويستوي في ذلك القدماء كالماوردي وابن خلدون والمحدثون كالمودودي ورشيد رضا وأبي زهرة وانّ الإمامة عند الشيعة أصل من أُصول الدين يسوقون في تأييده أدلّة عقلية ونقلية كثيرة(٢)، وعن أبي جعفر عليه السلام: انّ الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه رسولاً واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً واتخذه خليلاً قبل أن يتخذ إماماً فلما

(١) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٠/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٢) الإمامة والقيادة: ١٥.

جمع له الأشياء وقبض يده قال له : «إني جاعلك للناس إماماً»[1].

وإجمالاً فإنّ سيرة الإمام علي عليه السلام كانت تجسيداً للسيرة الرسالية للنبي محمد صلى الله عليه وآله، حيث تربّى الإمام في بيته وحظي بعناية خاصّة منه، واستأثر بالأخص من أسرار الإبلاغ الرسالي ومضامينه، وكان الشاهد والمؤتمن عليها، وقد أدلى الإمام عليه السلام بشهادته في ذلك: «**وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً فِي فِعْل... وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الإسلام غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ... وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر**».

«**وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صلى الله عليه وآله لـمَّا أَتَاهُ الْـمَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إليه وَأَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَقَالَ صلى الله عليه وآله وَمَا تَسْأَلُونَ قَالُوا تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: إِنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنْ فَعَلَ الله لَكُمْ ذَلِكَ أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْـحَقِّ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إلى خَيْرٍ وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ وَمَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ الله فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ**

---

(١) الاختصاص: ص ١٩ .

الله، فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْـحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا وَجَاءَتْ وَلَـهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ مُرَفْرِفَةً وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ ﷺ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إلى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَاسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إليه نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله)، فَقَالُوا كُفْراً وَعُتُوّاً: فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إلى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ (صلى الله عليه وآله) فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ الله وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ الله تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ، فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ ساحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا، يَعْنُونَنِي»[1].

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام على وصال مع الفكر والنهج التدبيري الرسالي أنّ أصوله فيه، وأنّه قد التحق في مضماره وعياً وحكمة، وممارسة ارتسمت فيها حياته كلها وكما سيلي البيان.

***

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٩٢، ص: ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

المبحث الرابع

خصال التدبير القيادي للإمام علي عليه السلام

يعتمد الفكر والجهد التدبيري على مجموعة من الملكات والخواص الذاتية والمكتسبة بالخبرة وبالتحصيل المعرفي، والتي أُشير إلى أنّها تسهم في تحديد الأبعاد الحيوية للطبيعة الجسدية، والروحية، والعقلية للقادة المدبرين وتنميتها فيما يدعي بـ(شحذ المنشار)، وهو التعبير عن الممارسة الجادة والاستثمار الفعّال للملكات والمؤهلات بانتظام واتساق وبطرق حكيمة ومتوازنة[1]، وفيما أنّ هناك مجموعة من العوامل المحرّكة للنشاط الذي لا ينضب في القائد الفذ يتلاحم فيها الإبداع مع الإقدام، والقوّة مع الفكاهة، والغرابة مع التفرّد، والتلقائية مع العمق، وصون الانطلاق مع عقلانية الواقعية، والذاتية مع الموضوعية التي لا تعرف الحدود، وانّ من يريد أن ينقاد فلابدّ أن ينقاد لمن تكون روحه مجبولة بهذا الكم المبهر من متناظرات الطبيعة البشرية[2].

وقد وضع (ايمرسون) قائمة بالمواصفات النموذجية للقائد الإداري (المدبّر) تشتمل على الدعوة لإرساء قيم واضحة، ومشورة ذات مغزى، وانضباط يحقّق التعاون، والتعامل المنصف الذي يحتاج فيه المدراء إلى ثلاث صفات هي (التعاطف، والتصور، وروح العدالة)[3]، وفي الأسمى من تلك

(١) قراءة في العادات السبع: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) الفرق بين القائد والمدبر: ٥١ ـ ٦٠.

(٣) افكار عظيمة في الإدارة: ١٢ ـ ١٣، ٢٣٥، ٢٦٣.

المبادئ وقيم السلوك القيادي كانت مواصفات الأمير، وصفات الدولة التي تجمع بين المثل العليا ومبادئ السلوك الرشيد للقائد المدبر، ولخضت في مجموعة صفات ومبادئ السلوك الرشيد للقائد المدبّر والتي جاء على ذكرها الغزالي، ولخّصها في مجموعة صفات هي: (الذكاء العظيم، الذاكرة الواعية، اللباقة، الحزم دون ضعف، وصدق العزم على إتيان الخير وحبّ العدل، والإقبال على الخير، وحبّ الصدق، واجتناب الرذيلة، والاعتدال في الطعام والشراب والملذات وبغض الثراء...)، وفي تقديره انّ هذه الخصال لابدّ أن تجتمع في رجل واحد يكلّف بتولي ما تعقد من أجهزة الدولة، أمّا إذا تعذّر اجتماع هذه الخصال جميعاً في رجل واحد فلابدّ من التحقّق مما إذا كان هناك اثنين فلابد أن يحكم كلاهما الدولة النموذجية، فإذا كانوا ثلاثة وجب عليهم أن يتولّوا الحكم، فإذا احتاج الأمر إلى عددٍ أكبر وجب أن يقلد هذا العدد الأكبر مقاليد الحكم».

ويعقب (جورج كلودس) وهو يذكر تلك المصفوفة النموذجية من خصال القائد في كتابه (تاريخ الفكر الإداري) بقوله:

«فيالها من قائمة بخصال يجدر بالمديرين المعاصرين أن يتحلّوا بها، وفوق ذلك فإنّها تبرز الحكمة في الإدارة المزدوجة، أو أحكام الرقابة على يد جماعة متكاملة»[1].

وإلى جانب تلك الخصال المذكورة للقائد المدبر، فإنّ هناك صفات عملية مناسبة للحاضر وردت في دراسة (بيت الأفكار الدولية) والتي ضمنها كتاب (الفرق بين القائد والمدبر)، وقد أُشير إلى أنّ أفكارها قد اشتقّت من كتاب (القيادة في الظروف الساخنة) (Leadership When the Heat is on) لمؤلفه

(١) تاريخ الفكر الإداري: ٦٢.

(Jonhn Hooven Danny Cox) وهي تشتمل على الصفات التالية:

ـ الصفة الخلقية.

ـ الهمة والنشاط.

ـ الانجاز، والتفاني.

ـ الشجاعة.

ـ الإبداع والابتكار.

ـ استمرارية الحماس.

ـ الترفع عن التفاهات[1].

وإنّ تلك الخصال ونظائرها قد شخصت في سيرة الإمام علي عليه السلام مشفوعة بالشواهد الحية من موافقة وتقريراته، نوافيها في الآتي:

الذكاء العظيم والعلم الجم:

عرّف الذكاء سيكولوجيا بأنّه: «القدرة على التحليل والتركيب والتمييز، والاختبار، والتكيّف إزاء المواقف المختلفة، وانّه يقابل الوجدان والإرادة في التفسير الثلاثي للظواهر النفسية، وقد جعله برجسون مقابلاً للغريزة»[2].

ويتقدّم الذكاء قائمة المواصفات القيادية، وذكر بشأن ذلك انّ علماء النفس المعنيين بسلوك القادة الإداريين (المدبرين) قد بحثوا كثيراً في نواحي السلوك العقلي المتزن في اتخاذ القرارات، وعدوا الدرجة العالية من الذكاء من أهمّ الصفات اللازمة لنجاح المدير في عمله، فهي تساعد على فهم العلاقات

---

(١) الفرق بين القائد والمدير، صفحات متفرقة.

(٢) الصحاح في اللغة والعلوم: ١/ ٤٤٢.

المعقدة بين القوى المختلفة، ومع تداخلها مع بعضها، ورسم الخطة وتوجيه الجهود واتّباع الطرق العلمية في حلّ المشكلات واتّساع المدارك، وزيادة المعلومات، والحكمة في إصدار القرارات[1].

وذكر الذكاء على انّه الركن الأول من أركان الأدب الأربعة والتي تشتمل عليها قوى العقل الغريزية وهي (الذكاء، والخيال، المحافظة، الحسن، الذوق)[2].

وأنّ العلم والإقبال عليه هو الناتج الطبيعي للذكاء، والذي لا يستقيم بلا علم يستثمر نواتجه ويحولها إلى عوائد معرفية وعملية، والملاحظ من سيرة الإمام علي عليه السلام انه قد تميز بخاصية الذكاء اللامع منذ صغره، وذكر العقاد في ذلك: «انه كان طفلاً مبكر الذكاء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة، لأنّه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدقّ فهمها والتنبّه لها على من كان في مثل هذه السن المبكرة، وكانت له مزايا التبكير في النماء، كما كانت له أعباءه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكّرين، ولاسيما المولودين منهم في شيخوخة الآباء»[3].

والواضح أنّ الاستيعاب المبكّر للإمام علي عليه السلام للمضمون الرسالي للإسلام قد تلازم مع معرفة مبكرة ومتقنة للكتابة إذ كان من بين العشرة من أبرز كتاب الوحي في مجتمع جاهلي، وقد كلّفه الرسول محمد صلى الله عليه وآله بكتابة صلح الحديبية بعد فتح مكة، وقد قرأ على الناس سورة براءة إثناء ذلك، وبرز نبوغه في

---

(١) الأصول العلمية للإدارة والتنظيم: ٧٧.

(٢) جواهر الأدب: ١٧.

(٣) عبقرية الإمام علي: ١٤.

تحرير الكتب والمراسيم والقرارات وبالصيغة المحكمة العبارة والمضمون ما حفلت به نصوص نهج البلاغة من ذلك، كما كانت له معرفته بتفسير القرآن الكريم، ويذكر بن أبي الحديد بشأن ذلك انّ علم تفسير القرآن عنه أُخذ، ومنه فرّع، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحّة ذلك، لأنّ أكثره عنه وعن عبدالله بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته إليه، وانّه تلميذه وخرّيجه، وقيل له: أين علمك من علم ابن عمك، فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر، وانّ علم النحو والعربية وقد علم الناس انّه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله، ومن جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم وفعل وحرف، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم[1]، وقد قال الدوئلي في ذلك: دخلت على أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرأيته مطرقاً مفكراً فقلت :فيما تفكر يا أميرالمؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أُصول العربية فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ثمّ أتيته بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم الكلمة اسم وفعل وحرف فالاسم: ما أنبأ عن المسمى والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل» ثم قال: «تتبعه وزد فيه ما وقع لك واعلم يا أبا الاسود انّ الأشياء ثلاث: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر وإنّما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر» قال أبو الاسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها :«إنّ أنّ وليت ولعلّ وكأنّ» ولم أذكر (لكنّ)، فقال لي :لِـمَ تركتها؟

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٤٤.

فقلت: لم أحسبه منها فقال: بل هي منها فزدها فيها[1].

يقول ابن أبي الحديد «يكاد يلحق بالمعجزات، لأنّ القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط»[2].

وفي مجال الشعر أخرج عن الشعبي قوله: كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر الثلاثة وأخرج عنه قوله:

فـلا تـصحب أخ الجهـل ... وايـــاك وإيـــاه

فكـم مـن جاهـل أردى ... حلـيماً حـين آخـاهُ

يقـاس المـرء بالمـرء ... إذا مـاهو ماشـاهُ

وللـشيء مـن الـشيء ... مقـاييس وأشبـاهُ

قيـاس النعـل بالنعـل ... إذا مـاهو حـاذاهُ

وللقلـب عـلى القلـب ... دليـل حـين يلقـاه[3]

إضافةً لذلك فإنّه كانت للإمام علي عليه السلام معرفته بأجزاء حيوية من قيم الأديان وسير الأنبياء كمثل ما كان من ذكره لمشاهد من حياة الأنبياء السابقين ومن ذلك أنّه عليه السلام قال عن النبي موسى عليه السلام:

«وَإِنْ شِئْتُ ثَنَّيْتُ بِمُوْسَى كَلِيْمِ الله إِذْ يَقُوْلُ: رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ[4] والله مَا سَأَلَهُ إِلاّ خُبْزَاً يَأكُلُهُ لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ بَقلةِ الأرض وَلَقَدْ

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٨١.

(٢) شرح نهج البلاغه: ١/ ٤٤.

(٣) تاريخ الخلفاء: ١٨٣.

(٤) القصص: ٢٤.

كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيْفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ[1] **لِـهِزالِهِ وَتشذُّب لَـحْمِهِ»**.

ـ وقال عن النبي داود عليه السلام : «**وإن شِئتَ ثَلثتُ بِداودَ صاحبِ المزاميرِ وقارئُ أهلِ الجنةِ فلقد كانَ يَعملُ سَفائفِ الخوصِ بيدهِ ويقولُ لجلسائهِ : أيُّكم يكفيني بيعَها ! ويأكلُ كلَ قُرصِ الشَعيرِ مِن ثَمَنِها**».

ـ وقال عن النبي عيسى عليه السلام : «**انهُ كانَ يَتوَسَدُ الحَجَرَ ويلبسُ الخَشِنَ وكانَ أُدامُه الجُوعُ وسِراجُهُ بالليلِ القَمرَ وظلالهُ في الشتاءِ مَشَارقُ الأرْضِ ومَغارِبُها وفاكِهَتَهُ وُريحّانُه ما تُنْبِتُ الأرض للبَهائمِ وَلم تَكن لهُ زَوجةٌ تَفتِنُهُ ولا ولدٌ يُحزِنُهُ ولا مالٌ يُلفِتَهُ ولا طَمعٌ يُذِلَهُ دابتُهُ رِجلاهُ وخادِمَهُ يَداهُ**»[2].

وأورد عليه السلام من مسميّاته ما يوافق ما يرد في كتب الأديان وفيها التعبير عن مبادرة متقدمة في التعايش الديني.

«**أينَ مُسلمّو أهلِ الكتابِ؟ أنا إسمي في الانجيلِ (إيليا) وفي التوراة (برئي) وفي الزّبورِ (أري) وعندَ الهندِ (كَبكْر) وعند الرومِ (بَطريسا) وعند الفرسِ (جبتر) وعند التُركِ (بيثر) وعند الزنجِ (جيتر) وعند الكَهنَةِ (بوئي) وعند الحَبَشةِ (بثريك) وعندَ أمي (حَيدرة) وعند ظئري (مَيمونْ) وعندَ العربِ (عَليْ)**» [3].

وتناهى فكر الإمام عليه السلام إلى عالم الكون ليقدّم لنا وصفاً بالغ الدقّة لما فيه من الكائنات، وإلى عالم الأرض ليصف أدقّ المخلوقات وأغربها، وكان قد قدّم في ذلك كما ذكر نماذج مبكرة للتحليل العقلي لظواهر الطبيعة يمكن أن تؤرّخ فيها الحركة العلمية الإسلامية إجمالاً، وقد ضرب مثلاً لذلك ما كان من وصفه

---

(١) ما تحت الجلد.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٠..

(٣) القطرة من بحار مناقب النبي والعترة: ١/ ١٠٥.

للخفاش والطاووس، وانّ ذلك ناجم عن دقّة الملاحظة وتقليب النظر في جزئيات الخلق الطبيعي، وهو يمثل نقلة كبيرة من المسلك الانطباعي العام الذي يكتفي باستخلاص التعميمات والوقوف عندها، وفيما أنّ الدخول في الجزئيات التفصيلية في ذلك يقتضي دقّة عقلية وتتبعاً نظامياً أُصولياً يؤدّي في النهاية إلى استخلاص القواعد والقوانين الطبيعية بعيداً عن التأمل الميتافيزيقي أو المبادئ المسلّم بها والتي لا تستند إلى الخبرة الموضوعية، وهذا بالضبط ما فعله التجريبيون المحدثون في القرنين الثامن والتاسع عشر مثل وليم جيمس[1]، وجون لوك[2]، وهيوم[3]، وجون ستيوارت ميل[4]، وهؤلاء كانوا روّاد الحركة العلمية المعاصرة، وانّ ما ورد في النصين الكاملين للإمام علي عليه السلام بشأن ذلك ينمّان عن الملاحظة المباشرة والخبرة الشخصية التي لا تعتمد على سماع أو تسليم برواية سابقة، وإنّما عن الملاحظة وخبرة أقرب ما تكون إلى ما نجد في كتب علم الحيوان الحديثة، تقومان على تقصي أشكال الحيوان، وألوانها، وعاداتها، وطباعها، وظروف معاشها، وطرق التماسها، وأساليب تكاثرها، وهي تضع

---

(١) عالم نفسي أمريكي (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) درس الطب في هارفارد، واشتغل بوظائف الأعضاء (الفيريولوجيا)، وعمل في تدريس علم النفس بوصفه علماً مختبرياً، واهتمّ بالفلسفة وأصبح قائداً في البراغماتية ـ المذهب العملي أو فلسفة الذرائع ـ (موسوعة العلماء والمخترعين: ١١٥ ـ ١١٦).

(٢) فيلسوف انجليزي (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) قال بأنّ الاختبار هو مصدر كلّ معرفة، ونبذ مذهب الافكار الفطرية، له كتاب (محاولة في الفهم البشري)، (المنجد ـ الاعلام: ٤٩٨).

(٣) فيلسوف ومؤرخ انجليزي (١٧١١ ـ ١٧٧٦) منشئ الفلسفة الظاهرية التي تنبثق من فلسفتي لوك وبركلي، له محاولات في الادراك البشري (المنجد،الاعلام): ٦٠٧.

(٤) فيلسوف واقتصادي انجليزي (١٨٧٣ ـ ١٨٠٦) من أتباع المدرسة الاختبارية له كتاب في النمط الاستدلالي والاستنتاجي (المنجد ـ الاعلام): ٥٦٤.

أمام محاولة أُخرى لتحليلها نفسياً[1].

والواقع أن الإمام علي عليه السلام لم يتوقف عند وصفه لحياة الخفاش والطاووس فحسب، بل انّه قدم وصفاً دقيقاً لحياة النملة في صغر حجمها، ولطافة هيئتها، وكفالة حياتها، ووصف الجرادة، وما لها من السمع الخفي، والفم السوي، والحس القوي، منوها بادق المعلومات عنها.

وفي الجانب العملي من المعرفة العامة أفاد الإمام عليه السلام بمجموعة من الأحكام والقرارات في مسائل وقضايا كثيرة عرضت عليه من الخاصة والعامة من الناس في أُمورهم ومشوراتهم له، واعتدادهم بما صدر منه في ذلك من آراء وأفكار سديدة موافقة لأحكام الشريعة والاجتهاد فيها، ما تزخر به كتب السيرة والتراجم ومراجع الفقه والحديث والتفسير، وكتب العلوم المختلفة، ونلتقط في الكم الوافر من البيانات الواردة بشأن ذلك شذرات تتوزّع على ما كان منه عليه السلام من ذلك على العهد النبوي، وما كان على عهده في الحكم:

- **فتح مكة :**

عند فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة دعا النبي علياً عليه السلام فقال:

«يا علي أُخرج على هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله فؤدّي[2] لهم ما أُصيب من الأموال حتّى لم يبقَ شيء من دم ولا مال إلّا وأدّاه، وبقيت بقية من المال، فقال لهم عليه السلام حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يؤدّ إليكم؟

(١) العرب والتربية والحضارة: ٦٣.

(٢) أدّى الدية.

قال: فإني أُعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وآله مما لم يعلم وتعلمون»[1] ففعل، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر، فقال صلى الله عليه وآله: «أصبت وأحسنت».

● **وفي السنة العاشرة للهجرة** وجه الرسول صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام في سرية إلى اليمن في رمضان وذلك بعد أن بعث بخالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام فأقام عليهم ستة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام أن يبلغ خالداً بأن يرجع ومن معه، ولما انتهى علي عليه السلام إلى اليمن صلى الفجر فلما فرغ صفّ جماعته صفاً واحداً ثمّ تقدّم بين أيديهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فلمّا قرأ كتابه خرّ ساجداً ثمّ جلس فقال: «السلام على همدان»، ثمّ تتابع أهل اليمن على الإسلام[2].

● وعهد النبي صلى الله عليه وآله للإمام بمهمة القضاء في اليمن وهو شاب وأشار عليه بقاعدة أساسية في القضاء، وقال عليه السلام في ذلك: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله ترسلني إلى قوم يسألونني ولا علم لي بالقضاء فوضع يده على صدري وقال: انّ الله سيهدي قلبك ويثبّت لسانك، فإذا قعد الخصمان بين يديك فلا تقضي حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنّه أجرى أن تبين لك القضاء، فما زلت قاضياً وما شككت في قضاء بعد[3].

وعرضت على الإمام عليه السلام في اليمن وغيرها مسائل عامة وخاصة قضى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ٥٦٨.

(٢) تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ١٦٤.

(٣) الطبقات الكبرى: ٢٥٧.

فيها بمقتضى اجتهاده الموافق للشريعة واشتهر صيته في ذلك، وقد أقرّ له بذلك كبار الصحابة وأولي الأمر، وقد أخرج الحاكم عن ابن مسعود في ذلك قوله: «كنا نتحدث أنّ أقضى أهل المدينة علي»، وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال: «إذا حدثنا ففيه عن علي بفتيا لا نعدوها»، ونقل عن عائشة قولها وقد ذكر علي عندها: «اما أَنه أعلمُ من بقي بالسنة»، وقال عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة: «فإنّ لعلي ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكانت له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والفقه في السنة، والنجدة في الحرب، والجود في المال»[1].

وعلى عهد الخلافة اعتدّ بمشورة الإمام علي عليه السلام في أُمور كثيرة في وجوه هامّة من الشأن العام والخاص، ومن ذلك انّه لما أراد الخليفة أبو بكر الصديق الخروج لغزو الروم فاستشار جماعة من أصحابه فقدموا وأخّروا، فاستشار علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له: «انّك متى تسر إلي العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتنكب لا تكن للمسلمين كاشفة دون أقصى بلادهم وليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً واحضر معه أهل البلاء والنصيحة».

وأشار الإمام عليه السلام على الخليفة عمر بن الخطاب أن يكتب التاريخ من الهجرة فكتبه بذلك، وكذلك فإنّه شاوره في سواد الكوفة وقد قال: «نقسمها بيننا»، فقال علي عليه السلام: إنّ قسمتها اليوم، لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا، فأقرَّ رأيهُ وقال: وفقك الله، هذا الرأي، ووجه حذيفة بن اليمان فمسح السواد»[2].

وحين شاع في الكوفة ما كان من أمر واليها الوليد بن عقبة مما أنكره عليه

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١/ ٣٢ ـ ٣٨.

الناس وقد جاء إلى المدينة جماعة ليشهدوا عليه، طلب عثمان بن عفان مشورة الإمام علي عليه السلام بشأنه قائلاً: «فما ترى»، قال الإمام عليه السلام: «أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضرهُ، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه حجة اقمت عليه الحد..»[1].

● ويبلغ الشأن المعرفي في الإمام علي عليه السلام غايته القصوى حين يعرض على الناس في مسجد الكوفة أن يسالوه ما شاء لهم أن يسألوا، عن أمر الكائنات والخلائق ليجيبهم عن ذلك معتداً بجدارته في ذلك: «سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض...».

وقد قدّم الإمام عليه السلام وفي العديد من تصريحاته معلومات في الغاية من الأهمية عن الله تعالى، وقد سبقت تقريراته في ذلك الحجج الفلسفية التي أوردها المعنيون بهذا الشأن، ومن بعض تقريراته في ذلك ما خلاصته:

«فَاعِلٌ لا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ غَنِيٌّ لا بِاسْتِفَادَةٍ لا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْـمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأُمور عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ وَالْحُرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا».

«لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلى نَظَائِرِهَا مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَةَ وَحَمَتْهَا قَدُ الْأَزَلِيَّةَ وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ

(١) مروج الذهب، ج٣، ص: ٧٩.

مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي غَيْرِهِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ...»[1].

وهكذا فقد كان للإمام علي عليه السلام ما سماه الغزالي بـ(العقل المتبصر) أو ما أطلق عليه (القدسي)، والذي يصل إلى درجة القدرة على التجريد العالي، وتنظيم المعلومات والمفاهيم التي اكتسبها والاستفادة منها في حلّ المشكلات، ويصبح قادراً على التبصر في العواقب ما يعينه على ضبط الشهوات وعدم الاهتمام بالمغانم الآجلة[2].

الذاكرة المعرفية الواعية:

وصفت الذاكرة بأنّها: وظيفة عقلية تعين على استعادة الماضي، وعند افلاطون انّ العلم ذكر، ويميز أرسطو بين الذكر الذي هو قوة استرجاع الذكريات مع ما يصاحبها من ظروف الزمان والمكان، والتذكّر من حيث انّ التذكّر يتمّ عفواً، والذكر يتم إرادياً[3].

وعُرِفَ الوعي سيكولوجياً بانهُ: «إدراك المرء لذاته وأفعاله إدراكاً مباشراً وهو أساس كلّ معرفة، وله مراتب متفاوتة في الوضوح»[4].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦.

(٢) فكر الغزالي التربوي: ٩٣.

(٣) الصحاح في اللغة والعلوم: ١/ ٤٤٢

(٤) الصحاح في اللغة والعلوم: ٢/ ٧٠٤.

وقد ارتقت الذاكرة الواعية للإمام علي عليه السلام إلى المقام المتقدّم من مضامير الفكر المعرفي وفي مجالات شتى من النشاط المتصل بنواحي الحياة، ففي مجال الفقه والحديث كان الإمام عليه السلام في طليعة الفقهاء والمحدثين من الصحابة، وأميزهم دراية وفطنة ووعياً فيه، وقد قال مسروق في ذلك: شامت (قارنت) أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فوجدت علمهم انتهى إلى علي وعبدالله، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، ثم شامت السبعة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين علي وعبدالله، ثم شامت الاثنين فوجدت علياً يفضل على عبدالله ثقة علي بمعرفته.

وقد قال الإمام علي عليه السلام معتداً بمعرفته بكتاب الله العزيز: «**والله ما نزلت آية إلا وعلمت فيم نزلت وأين نزلت، إنّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً**».

وعن ابن مكحول قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله : ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾ فقال صلى الله عليه وآله :«**ياعلي سألتُ اللهَ أن يجعلها أُذنك**» فقالَ علي عليه السلام : **فما نَسيت حديثاً أو شيئاً سَمعتَهُ عنْ رَسول الله** صلى الله عليه وآله.

ونقل عن البحتري قوله: «رأيت علياً عليه السلام صعد المنبر بالكوفة وعليه درعة كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله، متقلداً لسيفه، ومعتماً بعمامته، وفي اصبعه خاتمه وكشف عن بطنه فقال: سَلوني قَبلَ أن تَفقدوني، فإن بَينَ الجَوانِحِ فيّ عِلمٌ جمٌ، هذا سِقطُ العِلمِ، هذا لِعابُ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، هذا ما زقنّي بهِ رَسولُ الله صلى الله عليه وآله زقاً من عند وحيٍّ أوحيَ إليَّ، فوالله لو ثُنيت ليّ وسادةً فَجلستُ عَليها لأفتيتُ لأهلِ التوراةِ بتوراتِهم، وأهلِ الإنجيلِ بإنجيلِهم، حتّى يُنطقَ اللهُ التوراةَ والانجيلِ فتقولُ صَدَقَ عَليٌ، قد أفتاكُم بِما أُنزِلَ فيّ، وأنتم تتلونَ الكِتابَ أفلا تَعقلون..».

وورد عن ابن الطفيل قوله: «شهدتُ علياً يخطُبُ وهو يقول: سَلوني،

فوالله لا تسألوني عَن شيءٍ إلا أخبَرتُكم بِهِ، إسألوني عن كتابِ الله، فوالله ما من آيةٍ إلاَ وأنا أعلمُ أَبليلِ نَزَلت أم بِنَهارٍ، أم في سَهلٍ، أم في جَبَلٍ»[1].

وامتاز الإمام عليه السلام بفطنته بالتعرّف على دواخل النفوس وقد قال لجمع من أصحابه:

«وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُل مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله»[2].

وإنّ ذلك الأمر مما ذكره الإمام عليه السلام يوافق في جانب منه ما تشير إليه الدراسات الإدارية الحديثة في تحول المدير (المدبر) الفذ في آخر المطاف إلى محلّل نفساني، وهو يمر بذلك بمراحل أربعة تبتدئ من مستوى المدير الاعتيادي، ثم الرائد، فالقائد، لينتهي مع القدر الكبير من التعايش مع العاملين معه إلى دور المحلل النفساني، ولكنّه لا يرقى بأيّ حال إلى مثل ذلك المستوى الذي بلغه الإمام علي عليه السلام والذي بلغت النباهة المعرفية عنده مداها الأرحب وفي مبتدأ الشوط من حياته مما ذكرنا، وبما افضى به من الحقائق المعرفية التي لم يتسنَّ لمن استمع إليها في زمنه أن يدركها أو يقف على حقيقتها، وفيما لم تكن هناك من الوسائل التي تعين على ذلك كمثل ما هو الحال في عصرنا الحاضر، وقد كان للإمام فيما أفضى به وفي موارد علمية مختلفة مأثرة السبق العلمي، وكانت إدلاءاته فيها بمثابة المبادئ لنظريات أثبتها العلم الحديث وقد اخترنا من ذلك بدءاً مما ورد في كتاب (الإمام علي والعلم الحديث)، هي الجزء من مقررات وإدلاءات الإمام عليه السلام في موارد معرفية شتى، وفي مجالي العلوم الصرفة

(١) الفطرة من بحار مناقب النبي والعترة: ١/ ١٥٠.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٧٥.

والإنسانية معاً:

١ ـ بالنسبة لقاعدة (أرخميدس) والتي تنص على: «ان الجسم المغمور في السائل يفقد من وزنه بقدر وزن السائل المزاح»، كان المثل التطبيقي التالي للإمام علي عليه السلام في ذلك: «آتي لأميرالمؤمنين برجلٍ كان قد حلف أن يزن الفيل، فقال له: لم تحلفون بما لا تطيقون، فقال الرجل: قد ابتليت، فأمر الإمام عليه السلام بإحضار سفينة كبيرة يوضع فيها قصب كثير ويؤشر حدّ الماء على محيط السفينة، ثم أمر بإخراج بعض القصب منها وان يؤشر ثانية حد الماء الذي تبقى بسبب إخراج القصب ثم أمر بوضع الفيل في موضع القصب المرفوع وأن يؤشر حدّ الماء مرة أُخرى ثم أمر بوزن القصب الذي أخرج فلما وزن قال عليه السلام : هذا وزن الفيل».

٢ ـ في الطاقة الكهربائية التي يجري توليدها في الحاضر من مصادر المياه، ورد فيها قول الإمام عليه السلام : «لو شئت لصيّرت من هذا الماء نوراً وناراً».

٣ ـ في الجاذبية الكونية، قال الإمام عليه السلام عن النجوم في السماء: «مربوطة بعمودٍ من نورٍ..».

٤ ـ في الطب الوقائي ـ وهو الفرع المسؤول عن سلامة الإنسان ـ أورد الإمام مبادئ أساسية وحيوية منه، كما في قوله عليه السلام :

ـ «لا تثقل معدتك طعاماً، ودع للماءِ موضعاً، وللريحِ مجالاً، ولا ترفع يدكَ عن الطعامِ إلا وأنتَ تشتهيهِ، فإن فعلتَ فأنت تستمرؤهُ، فإنّ صحةَ الجسمِ من قلةِ الطعامِ وقلةِ الماءِ».

ـ «لا تجلس على الطعامِ إلا وأنت جائعٌ، ولا تقم عن الطعامِ إلا وأنت تشتهيهِ، وجوّد المضغَ، وإذا نمتَ فاعرض نفسكَ على الخلاءِ، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطبِ».

ـ «توقّوا البرد في أولهِ، وتلقّوه في آخرهِ، فإنّه يفعل بالأبدانِ كفعلهِ في الأشجارِ، أوله يحرق، وآخره يورق».

٥ ـ وفي علم النفس السلوكي: كانت تقريرات الإمام عليه السلام مساوقة لتقريرات مشاهير الفلاسفة والحكماء من قبله، والتي لاتزال إلى اليوم من المراجع الحيوية في هذا العلم، ومن بين ذلك كانت كلماته المعتبرة:

أ ـ «تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإِنَّ الْـمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِه».

وهو مساوق لقول سقراط: «يا هذا كلمني حتى أراك».

ب ـ «لئن يكون الحُرُ عبداً لِغيرهِ خَيرٌ مِنْ أنْ يَكونَ عبداً لِشَهواتهِ»، سأل سقراط: ما لك تستخف بالسلطان؟

فقال: «لأني ملكت الغضب والشهوة، وهو عبد لهما، فهو عبد لعبيدي».

ج ـ قال الإمام عليه السلام: **«رُبَّ أخٍ لَمْ تَلِدهُ أُمُّكَ»**.

وقال سقراط: «الصديق إنسان هو أنت إلا أنه الشخص غيرك».

د ـ قال الإمام عليه السلام: «إِنِّي وَ الله لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَ هُمْ طِلاَعُ اَلْأرض كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَ لاَ اِسْتَوْحَشْتُ».

وقال كونفو شيوس: «قوي القلب يهزم جيشاً».

هـ ـ قال الإمام عليه السلام: «سَلُوا الْقُلُوبَ عَنِ الْـمَوَدَّاتِ فَإِنَّهَا شُهُودٌ (شَوَاهِدٌ) لَا تَقْبَلُ الرُّشَا».

وقال باركلي: «استمع إلى قلبك دائماً فهو أدق آلة في جسدنا تسجل الصدق».

وفي **الفكر المعرفي**، قال الإمام عليه السلام :

«**إذا كانَ العقلُ تِسعةَ أجزاءٍ احتاجَ إلى جُزءٍ منْ جَهلِ صاحِبِهِ فإنَّ العاقلَ أبداً مُتَرقِبٌ.. مُتوانٍ.. متخوفٍ**».

وقال الاديب العالمي مارك كوين:

«إنَّ الحظَ يُساوي الجَهل والثِقَةَ بِالنَفسِ مُجتَمعينِ»[1].

وبعد ذلك كان الإمام عليه السلام يعتد بالجانب العقلي من المعرفة، ولا يعير اهتماماً لسوى ذلك مما يصرف الناس عن النظر الواقعي للأُمور، وفي ذلك فإنّه عليه السلام قد نهى الناس عن تعلم السحر و التنجيم إلا ما اتصل منه بمجال المعرفة الفلكية وجاء في ذلك قوله:

«**أَيُّها النّاسُ، إِيّاكُمْ وتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلاَّ ما يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرّ أو بَحْر، فَإِنَّهَا تَدْعُو إلى الْكَهانَةِ، والْـمُنَجِّمُ كالْكاهِنِ والْكاهِنُ كالسّاحِرِ، والسّاحِرُ كالْكافِرِ، والْكافِرُ فِي النّارِ**»[2].

وفي الجانب التعليمي ـ التربوي:

ينوّه جورج جرداق إلى: انّ قليلاً جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك مثل هذه القاعدة الأصل من قواعد التطوّر، وكان علياً ينزع بها عن لسان الطبيعة وقلب الحياة: «**لا تُقسِروا أولادَكُم عَلىٰ أخلاقِكُم فإنّهُم مَخْلُوقونَ لِزَمانٍ غَيرَ زَمانِكُمْ**»[3].

---

(١) الإمام علي والعلم الحديث، صفحات متفرقة.

(٢) نهج البلاغة (كلام ٧٩).

(٣) نهج البلاغة: حكمة رقم ١٠٢.

وفي ملاحظة تربوية مقرونة بممارسة رائدة في التوجيه التربوي كانت وصية الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام:

«وَإِنَّمَا قَلْبُ الْـحَدَثِ كَالأرض الْـخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْء قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ... لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأمر مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ»(١).

ـ وفي توجيه تربوي تعليمي يختص بالأسرة قال عليه السلام: **«إِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقّاً وَإِنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقّاً فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ الله سُبْحَانَهُ وَحَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحَسِّنَ اسْمَهُ وَيُحَسِّنَ أَدَبَهُ وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ»**(٢).

وفي مثل ذلك كان الاعتبار المبدئي في علم النفس التربوي ما كانت وصيته الأُخرى لولده الحسن عليه السلام وهي في واقعها الوصية من كلّ والد يعنى بتربية ولده وتوجيهه إلى المسار العقلاني الصحيح في الحياة مستفيداً من حكمته وعمق تجربته في الحياة:

«يَا بُنَيَّ اِحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً لاَ يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ:

ـ إن أَغْنَى اَلْغِنَى اَلْعَقْلُ وَأَكْبَرَ اَلْفَقْرِ اَلْحُمْقُ وَأَوْحَشَ اَلْوَحْشَةِ اَلْعُجْبُ وَأَكْرَمَ اَلْحَسَبِ حُسْنُ الْـخُلُق يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ اَلْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ.

ـ وَ إِيَّاكَ وَ مُصَادَقَةَ اَلْبَخِيلِ فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ.

---

(١) نهج البلاغة: وصية ٣١.

(٢) نهج البلاغة: حكمة رقم ٢٦٤.

ـ وَ إِيَّاكَ وَ مُصَادَقَةَ اَلْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ اَلْبَعِيدَ وَ يُبَعِّدُ عَلَيْكَ اَلْقَرِيبَ» (١).

وعن أطروحة (العدالة) كبعد أخلاقي تربوي عند الإمام علي عليه السلام يقول جورج جرداق: «قليل جدّاً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك موازين العدالة الكونية فتنبثق عن نفسها وبنفسها يقوم متكشفين بنور العبقرية انّ (من ساء خلقه عذب نفسه)»، وانّ خلاصة القول في ذلك هو الانطلاق من حدود الزمان العربي المقيّد بتاريخين متقاربين إلى حدود الزمان العالمي الذي يشمل بدء وجود الإنسان حتى عصر النهضة في أوربا، والذي عاش فيه عباقرة عظام وسنت فيه (دساتير) وقامت ثورات اجتماعية وأخلاقية وسياسية، ولابد أن ندرك أنّ لعلي بن أبي طالب مكانة بين هؤلاء الأفذاء أصحاب الدساتير ومحدثي الثورات(٢).

وفي الأخص من الاعتبار التربوي كان تنبيه الإمام عليه السلام وإشارته إلى الطاقة العقلية الطرية للشباب وضرورة استثمارها في مجال الاستشارة للإفادة من حيوية تفكيرهم وجدّته، وأن تسبق المشورة لهم مشورة المتقدمين في السن لتمتزج معها فتكون الفائدة في ذلك أكبر وأعم، وقد ورد ذلك في توجيهه عليه السلام:

«إِذَا احتَجتَ إلى الـمَشوَرَةِ فى أَمرٍ قَد طَرَأَ عَلَيكَ، فَاستَبدِهِ بِبِدايَةِ الشُّبّانِ، فَإِنَّهُم أَحَدُّ أَذهانا وَأَسرَعُ حَدساً، ثُمَّ رُدَّهُ بَعدَ ذلِكَ إلى رَأيِ الكُهولِ وَالشُيوخِ لِيَستَعقِبوهُ وَيُحسِنُوا، الاختيارَ لَهُ فَإِنَّ تَجرِبَتَهُم أَكثَرُ»(٣).

---

(١) نهج البلاغة، (حكم/ ٣٤.)

(٢) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ص، ١٦ ـ ١٧.

(٣) نهج البلاغة: حكمة رقم ٨٦٦.

وفي التوجيه التعليمي المتقدّم الدور وجه الإمام عليه السلام متولي الأُمور بعدم مجالسة الجهّال وقاصري الفكر، والذي ينتج عنه تعب الفكر وقصوره، وأن يتداركُ ذلك بالاختلاط بأهل الحكمة والرأي السديد ليكون لهم في ذلك ما يسهم في تنشيط فكرهم مما يساعدهم في اتخاذ القرارات الصائبة، وفي ذلك كان قوله عليه السلام:

«إذا أحسسْتَ في رأيِكَ بإكدادٍ ومِنْ تَصوركَ بِفَسادٍ، فاتَهِمْ نَفسَكَ بِمُجالَستِكَ لعّامّيِ الطَبعِ، أو لِسَيئِي الفِكرِ، وتَدارِكِ إصلاحَ مِزاج تَخيُلكَ بِمُكاثَرةِ أهلِ الحِكمَةِ، ومُجالَسةِ ذَوي السدادِ، فإن مُفاوَضَتَهُم تُريح الرَأيَ الـمَكدُودْ، وَتَرُدّ ضالّة الصَوابْ الـمَفقُودْ»(١).

وفي الأوفى من عمق النباهة والحذاقة للإمام علي عليه السلام واستقرار ذاكرته من ذلك، انّه وفي اللحظات الأخيرة من عمره الحافل بالمأثرات، وحين أقدم الخارجي ابن ملجم على ضربه على أمّ رأسه بسيف قاطع ومسموم وهو يؤدّي صلاة الفجر في مسجد الكوفة، وقد أُغمي عليه، فإنّه استرجع ذاكرته وانتباهته بعد وقت من ذلك لينظر بإشفاق إلى قاتله وقد أُحضر بين يديه فيكلمه بهدوء وبرود أعصاب معاتباً غير غاضب ولا حانق، وليشير لولده الحسن عليه السلام بأن يعتني به، وأن لا يعاجله بالانتقام، ثم ليقدّم وصيته الخالدة، وفيها الحكمة وسداد الرأي، فيكون بذلك قد قدم المثال الأروع والأوفى للصفح والحلم الذي لا يجارى، وللملكة الفائقة في ضبط الأعصاب الذي جاوز به ألم الاعتداء الفظ عليه، كمثل ما قدم ذلك في سابقات الحوادث التي تجرّع غصصها وآلامها صابراً محتسباً معوّلاً في ذلك على فرط إيمانه ويقينه بقدره المحبب.

---

(١) نهج البلاغة: الحكمة رقم ٨٧٩.

وقد برزت لباقة الإمام علي عليه السلام وحذقه في موارد شتى أثبت فيها جدارة لا تدانى، وقد قيل لعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة: «يا عَمْ لو كانَ صغى الناسِ إلى عَلِي! فَقالَ: يا إبن أخي: إنَّ عَلياً كانَ لَهُ ما شِئت مِنْ ضِرسٍ قاطِعٍ في العِلمْ، وكانَ لَهُ الوَسْطَةَ في العَشْيرةِ، وَالقِدَمَ فِي الإسلام، والصِهرُ لِرَسْولِ الله صلى الله عليه وآله، وَالفِـقهَ فِي السُنةِ، والنَجدةَ فِي الحَرْبِ، وَالجودَ فِي الماعونِ»[1] .

وكانت للإمام علي عليه السلام ميزات التفرد بالنباهة في الفكر والتعليم قياساً لزمنه وظروفه، وقد تنبه رجل من بني كلب إلى فطنة الإمام عليه السلام وقد جاء على وصف الاتراك وظن انّ ما ذكره عنهم من علم الغيب قائلاً: «لقد أعطيت يا أميرالمؤمنين علم الغيب!» فقال له عليه السلام موضحاً الفارق بين ما يكون من التعلم من ذي علم وما يكون من علم الغيب: «**يَا أَخَا كَلْب، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْب، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْم، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ مِنْ ذَكَر أو أُنْثَى، وَقَبِيح أو جَمِيل، وَسَخِيٍّ أو بَخِيل، وَشَقيّ أو سَعِيد، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً، أو فِي الْـجِنَانِ لِلنَّبِيِّنَ مُرَافِقاً؛ فَهذَا عَلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلّا اللهُ، وَمَا سِوَى ذلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي**»[2] .

وقد نبّه عليه السلام على بالغ علمه فيما قد توجه به للناس بأن يسألوه عما شاء لهم ذلك معتداً بفطنته وبصيرته النافذة: «**فَاسْأَلُوني قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْء فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَلاَ عَنْ فِئَة تَهْدِي مائةً وَتُضِلُّ مائةً إِلّا نَبَّأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا، وَمنَاخِ رِكَابِهَا، وَمَحَطِّ رِحَالِـهَا، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا**

(١) يعني (الماعون) في الجاهلية كل منفعة وعطية، وفي الإسلام الطاعة والزكاة.

(٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة: ١/ ١٣.

قَتْلاً، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً»[1].

وقايس جورج جرداق بين الإمام علي عليه السلام وبين سواه من مشاهير العصر الحديث في الادراك المعرفي وجاء في ذلك قوله: «... إذا كان روفائيل قد اتخذ من إحدى فلاحات الريف الايطالي نموذجاً للعذراء أم المسيح ليصنع في هذا انموذج ما يحبه ويريده من معاني الكرم الإنساني، وإذا كان تولسنوي وفوليتر وغيتي قد عملوا في صنيعهم الفكري والاجتماعي ماهو من روح روفائيل في صنيعه هذا، فإنّ ذاك العظيم قد سبقهم إليه بمئات السنين مع الفارق بين ظرفه الصعب وظروفهم المؤاتية، وبين مجتمعه الضيق ومجتمعاتهم الواسعة، فإذا هو يحارب الملوك والأمراء والولاة والأثرياء، يحارب عبثهم وسمت تفكيرهم في سبيل الشعب المظلوم المهان فيقسم قائلاً: «**وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بحزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً**»، ثم يطلق في آذان أفراد زمانه العابثين هذه الصيحة المدوية التي يكمن وراءها من المعرفة لحقيقة أهل الارستقراطية التافهين المتعالين على تفاهتهم.. فيقول بإيجاز كأنّه صوت القدر: «**أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم**»، وما يقصد وراء هذا الا الاشارة الصريحة إلى ما يخفي الحرمان من مواهب أبناء الشعب في الخير... ولم يعرف إماماً لدين يوصي ولاته بمثل هذا القول في الناس: «**فإنّهم إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، امنحهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه**»[2].

وهو هذا الإدلاء المسبق لحقوق الإنسان وفي وثيقة سبقت المواثيق

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨.

(٢) علي وحقوق الإنسان: ٤٩ ـ ٤٠.

الحاضرة في ذلك بزمنٍ طويلٍ، ما يصح أن نسمّيها «وثيقة الإمام علي عليه السلام لحقوق الإنسان».

العدل: وتتمثّل الفضائل الأربع في الدولة التي أسماها افلاطون بـ(الدولة المهذبة) في (الحكمة الشجاعة العفاف، العدالة) وانّ العدالة في الفرد كالعدالة في الدولة.. وانّ كل الفضائل هي فروع للعدالة وانّ العادل الذي لايدع قواه الروحية تتجاوز حدود اختصاصها[1].

وقد اعتبر ابن سينا ان (المدينة العادلة) والتي تصوّرها: هي المدينة التي تحتاج إلى رئيس صالح يسنّ لها السنن بالعدل ويدبر أحوال الناس على ما تنتظم به أسباب حياتهم وأن حاجتهم إلى ذلك أشدّ من حاجة البدن إلى الغذاء[2].

وقد اعتدّ الإمام علي عليه السلام بالعدل اعتداداً بالغ المدى وقد جبلت سجيته على الحق والإنصاف، واعتمرت نفسه باليقين الصادق بمبادئ الحق والعدل، ملتزماً في ذلك بمبادئ الرسالة الإسلامية، وقد قال عليه السلام في ذلك: «**وإني لعلى بيّنة من ربي، ومنهاج من نبيّي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً**»[3].

ولم يكن الإمام عليه السلام ليساوم أو يهادن في الحق أو يتهاون فيه، وكانت مرجعيته فيما يكون له وما يكون للناس منه إلى الشريعة التي ذكر أنّه كان: مقيداً بأحكامها، وكانت قاعدته في خلافته لم تكن كما ذكر قاعدة غيره ممن لم يلزم نفسه بذلك ، ويطبق أمور الدنيا على أُمور الدين ، ويسوق الكل مساقاً واحداً ، ولا يضع ولا يرفع إلا بالكتاب والنص فاختلفت طريقته في الخلافة والسياسة،

---

(١) جمهورية افلاطون: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) كتاب المهرجان: ٢١٨ ـ ٢٢٠ .

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٩٧.

ولم يُمنَ غيره بمثل ما منّي به، وقد أحوجه ذلك إلى مداراة أصحابه وجنده مع مقاربتهم للاضطراب الواقع عليه بطريق تلك الفتنة ما كان من فتنة الجمل وفتنة صفين والنهروان، وكلّ هذه الأُمور كانت مؤثرة في اضطراب ولايته، ويشار في ذلك إلى أنّ مالك الاشتر قد شكا للإمام عليه السلام فرار الناس إلى معاوية قائلاً:

«يا أمير المؤمنين إنّا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة، وقد اختلفوا بعد وتعادوا وضعفت البيّنة، وقلّ العدد، وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف، وليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجّت طائفة ممن معك من الحق إذ اعلموا به، واغتمّوا من العدل إذا صاروا فيه، وصارت صنائع معاوية عند أهل الغنى والشرف، فتاقت انفس الناس إلى الدنيا وقل من الناس من ليس للدنيا يصاحب وأكثرهم من يحتوي الحق، ويستمرئ الباطل ويؤثر الدنيا، فإن تبذل المال يا أميرالمؤمنين تمل إليك أعناق الناس وتصفو نصيحتهم، وتستخلص ودّهم..».

فأجابه الإمام عليه السلام:

«أمّا ما ذكرتَ مِن عَملِنا وَسيرتِنا بِالعَدلِ فإنّ اللهَ يقولُ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[1]، وأمّا ما ذَكرتُ مِنْ أن الحَقَ ثَقُلَ عَليهِمْ ففَارَقونا، فَقَدْ عَلِمَ اللهُ أنَهمْ لمْ يُفارُقونا مِنْ جَورٍ، ولمْ يَدعو إذا ما فارَقونا إلى عَدْلٍ، ولمْ يلتَمِسوا إلا دُنياً زائِلةٌ عَنهمْ كانوا قْد فارَقوها، وَلَيَسألنَّ يَومَ القِيامةِ، ألدنيا أرادوا أم لله عَمِلوا؟ وأمّا ما ذَكرتُ مِنْ بَذْلِ الأموالِ واصطِناعِ الرِجالِ فأنّا لا يَسَعُنا أن نُؤتي أمراً مِن الفيءِ أكثرُ مِن حَقِهِ، وَقْد قالَ اللهُ تَعالى وَقوله الحقُّ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]. وبَعَثَ مُحَمَداً صلى الله عليه وآله وَحدَهُ فَكْثّرَهُ

---

(١) فصّلت: ٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

بَعدَ القِلةِ، وأعزّهُ بَعدَ الذِلةِ، وأنَّ اللهَ إنْ يُوْلِينا هذا الأمر يُذلّل لَنا صَعْبَهُ وَيُسّهْل لَنا حَزَنَهُ، وأنا قَابِلٌ مِنْ رأيِكَ ما كانَ لله فيهِ رِضىً، وأنتَ مِن أَثْمَنِ أَصحابِي، وأوثَقَهمْ في نَفسي، وأنصَحَهْم وآراهُم عِنْدي»(١).

وكان هذا هو شأن الإمام عليه السلام مع كلّ الناس، لم يؤثر الخاص منهم على العامّ، ولم يميّز ما بين قريب منه، أو بعيد عنه، فالكل عنده سواسية في النظرة وفي العطاء كذلك، وقد أعلن موقفه هذا منذ اللحظة التي تولّى فيها المسؤولية، فإنّه بعد أن ولي الخلافة صعد المنبر فحمد الله وأثني عليه ثم قال:

«إنْي والله لا أرزؤكُمْ مِنْ فيئِكُم دِرْهَماً، ما قامَ لي عُذق بيثربَ فلتُصدقكُم أنفُسَكُم، أَفَتَرَونَ مانعاً نَفسي ومعطيكم؟ فَقامَ إليه عَقيلٌ فَقالَ لَهُ: والله لَتَجعلني وأسود بالـمَدينةِ سواء! فقالَ لَهُ عليه السلام: إجلسْ أما كانَ ها هنا أَحدٌ يَتكلمُ غَيرك، وما فَضلُكَ عَليهِ إلا بِسَابِقَهٍ أَوْ بِتَقْوَى»(٢).

وقد عُرف عن الإمام عليه السلام أنّه كان على الغاية من العدل في قسمة المال حدث عن مسلم صاحب الحناء قال: لما فرغ علي ابن أبي طالب من أهل الجمل أتى الكوفة فدخل بيت ماله ثم قال: «يا بيضاء يا صفراء غري غيري» ثم قسمه بيننا فجائت ابنة للحسن أو الحسين فتناولت منه شيئاً فسعى ورائها ففكّ يدها ونزعه منها فقلنا: يا أميرالمؤمنين إنّ لها فيه حقاً قال: إذا أخذ أبوها حقّه فليعطها ما شاء ...»(٣).

وكان الإمام عليه السلام يأكل من كد يده عن عمار بن ياسر قال : إن علياً اجر

---

(١) سنن الإمام علي: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) سنن الإمام علي: ٨١.

(٣) أنساب الأشراف: ٢/ ١٢٩.

نفسه من يهودي على ان ينزع له من كل دلو بتمرة فجمع نحوا من المد فنثره في حجر فاطمة وقال : «كلي واطعمي صبيانك»[1].

ويذكر بن خلدون: انه في سنة أربعين فارق عبدالله بن عباس عليا ولحق بمكة وذلك انه مر يوماً بابي الأسود فوبخه على أمر فكتب ابو الأسود إلى علي بان ابن عباس استتر بأموال الناس، فأجابه علي يشكره على ذلك، وكتب لابن عباس ولم يخبره بالكاتب، فكتب إليه يكذب ما بلغه من ذلك وانه ضابط للمال، فكتب إليه علي : أعلمني ما أخذت ومن اين أخذت وفيما صنعت؟ «فكتب إليه ابن عباس: فهمت استعظامك لما رفع إليك اني رزأته من هذا المال فابعث إلى عملك من أحببت فاني ظاعن عنه»، واستدعى أخواله من بني هلال فجاءته قيس كلها، فحمل المال وقال: «هذه أرزاقنا»، واتبعه أهل البصرة، ووقفت دونه قيس، ولحق ابن عباس بمكة»[2].

وكان للإمام عليه السلام مع أخيه عقيل القصة المعروفة، ما فيه وفي غيره الدلالة على التزامه لمنهج مبدئي في العدل ثابت لا يحول عنه تعهده ومضى في سبيله حتى النهاية، ما حقّ لجورج جرداق أن يصفه في ذلك أنّه (الضمير العملاق)، وفيما انّ الضمير كما أفاد المؤرخ (ول. ديوارنت) «وفي مراحل تطوره تصبح وعياً اجتماعيا.. وانّ التقاليد الحيوية أو الأخلاق بطول تكرارها يصبح للفرد طبيعة ثابتة، أن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق»[3]، وفيما انّ الإمام علي عليه السلام لم يكن ليشعر بمثل ذلك الهاجس أو القلق لأنّه قد أدّى وظيفته الأخلاقية كاملة،

(١) أنساب الأشراف: ٢/ ١٤٢.
(٢) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٥٢٤.
(٣) قصة الحضارة: ٣/ ٦٥.

وانّه في مقتله غيلة في مسجد الكوفة، وبحسب قول كاتب سيرة (الابطال) ـ توماس كارليل ـ إنّما جنى على نفسه بشدّة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله[1].

وبعدئذٍ فإنّ الإمام عليه السلام كان يعدّ العدل وظيفة إيمانية يرتقي بها الانسان في موقع المسؤولية إلى المقام الأسمى من رضا الله تعالى بعكس الجور فإنّه مدعاة لسخط الله واستحقاق عقابه: «**أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ الله عِنْدَ الله إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً.. وإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَام الْـجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا**».

الحلم والسماحة:

جسّد الإمام علي عليه السلام في سيرته الاعتبار المبدئي الذي اتصف به الأنبياء وأولياء النبوة في الحلم والسماحة، وقد نوّه ابن ابي الحديد المعتزلي بهذه الميزة التي امتاز بها الإمام عليه السلام بمواقف مشهودة كانت هي العنوان الأبرز لسلوكه السويّ وقدّم شواهداً لذلك فيما عرض له بالتفضيل من الوقائع والأحداث، وقال في ذلك: «كان الإمام علي عليه السلام أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسيء، وقد ظهر صفحه ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم، وكان أعدى الناس له، وأشدّهم بغضاً، فصفح عنه...».

«وكان عبدالله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغد اللئيم علي بن أبي طالب، وان علي عليه السلام يقول: مازال

---

(١) الابطال: ٧٦.

الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتّى شبّ عبدالله، وظفر به يوم الجمل فأخذوه أسيراً وصفح عنه، وقال: اذهب فلا أرينّك، ولم يزل على ذلك».

وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، وكان له عدواً، فأعرض عنه ولم يقل له شيئاً، وجاء به أهل البصرة، وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف وشتموه ولعنوه، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ونادى مناديه في أقطار العسكر: «ألا لا يتبع مولٍ، ولا يجهز على جريح، ولا يقتل مستتراً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن تحيز إلى عسكرٍ الإمام فهو آمن»، ولم يأخذ أثقالهم، ولا سبى ذراريهم، ولا غنم شيئاً من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل، ولكنه أولى الصفح والعفو، وتقبّل سنة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة، فإنّه عفا والأحقاد لم تبرد، والإساءة لم تنس..».

«ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء وأحاطوا بشريعة الفرات، وقالت رؤساء الشام له: اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشاً، وسألهم علي عليه السلام وأصحابه أن يشرعوا لهم شريعة الماء، فقالوا: لا والله ولا قطرة حتّى تموت ظمأً..، فلما رأى علي عليه السلام انّ الموت لا محالة تقدّم بأصحابه وحمل على عساكر معاوية حملات كثيفة حتى أزالهم عن مراكزهم بعد قتل ذريع.. وملكوا عليهم الماء وصار أصحاب معاوية في الفلاة، لا ماء لهم، فقال له أصحابه: امنعهم الماء يا أميرالمؤمنين كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي.. فلا حاجة لك إلى الحرب، فقال: «لا والله ، لا أُكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حدّ السيف ما يُغني عن ذلك».

وقد عقب ابن ابي الحديد على ما قد ذكر: «انّ هذه إن نسبتها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالاً وحسناً، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلق بمثلها

أن تصدر بمن مثله عليه السلام »[1].

وفي الذروة من حرب صفين كان الإمام عليه السلام يعبأ الناس ويقول لهم: «**لاتقاتلوهم حتى يقاتلوكم وأنتم بحمد الله على حجة وترككم قتالهم حجة أُخرى وإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا بقتيل وإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا امرأةً وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحائكم فإنّهن ضعاف القوى والأنفس**» وكان يقول بهذا المعنى لأصحابه في كل موطن[2].

ومن واقع المسؤولية كانت توجيهات الإمام عليه السلام ووصاياه لولاته بالحلم والسماحة، والرفق بالناس والاهتمام بتغليب المصلحة العامة على المصالح الشخصية، وقد جاء بكتاب له لبعض عماله: «**واخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ وابْسُطْ لَـهُمْ وَجْهَكَ وأَلِنْ لَـهُمْ جَانِبَكَ وآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ والنَّظْرَةِ والإشَارَةِ والتَّحِيَّةِ حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ولا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ**»[3].

وورد مثل ذلك في عهده لمحمد بن أبي بكر لما قلده مصر وقد بلغت الغاية من ذلك التوجيه بالسماحة والرفق بالرعية ما كان للإمام عليه السلام في عهده لمالك الأشتر، وقد جاء فيه:

«**وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْـمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا، نَظِيرٌ لَكَ فِي الْـخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، يُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الَعَمْدِ وَالْـخَطَأ،**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٧٠.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٤٦.

فَأَعْطِهِمْنِ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَالِي الأمر عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ، وَابْتَلاَكَ بِهِمْ»[1].

ويبلغ حلم الإمام وتجاوزه عن الإساءة غايته في التمثل في حياة الإمام علي عليه السلام بما كان له مع من تجرأ على اغتياله في مسجد الكوفة وهو في محراب الصلاة، وفي واقعة فريدة ونادرة في الحلم والسماحة، فان ابن ملجم الخارجي لما ضرب الإمام عليه السلام تلك الضربات القاتلة وبسيف مسموم وعند صلاة الصبح وجيء به مكتوفاً إمام امير المؤمنين وقد أقبل به الإمام الحسن عليه السلام على أبيه وقال له: «**هذا هو عدو الله وعدوك ابن ملجم وقد أمكن الله منه وقد حضر بين يديك**»، فإنّ الإمام عليه السلام فتح عينه ونظر إليه وهو مكتوف وسيفه معلق في عنقه وقال له بصوت فيه رقة ورحمة :

«**يا هذا لقد جئت عظيماً، وخطباً جَسيماً، أبئسَ الإمام كُنتُ لكَ حتى جازيتني بِهذا الجزاء؟ ألم أكُنْ شفيقاً عليكَ، واثرتكَ عَلى غَيرِكَ، وأحسَنتُ إليكَ وَزِدتُ في عَطائكِ؟ ألم أكن يُقالُ لي فِيكَ كذا وكذا فخليت لك السبيل وَمنحتُكَ مِن عَطائي؟ وقد كُنتُ أعلم إنك قاتلي لا محال، ولكن رَجوتُ بِذلكَ الاستظهار مِن الله تعالى عليكَ يا لَكِع، فَغلبت عَليكَ الشَقوة فقتلتَني يا شَقي الأشقياء**»، فدمعت عينا ابن ملجم وقال: يا أميرالمؤمنين أفانتَ تُنقذ مَن في النار، قال: صدقت، ثم التفت إلى ولده الحسن عليه السلام وقال له: «**إرفق يا ولَدي باسيرك، واَرحمه، وَأحسِن إليهِ، وأشفِق عليه، ألا ترى إلى عينيه وقد طارتا إلى أمّ رأسه وقلبُهُ يَرجِف خَوفاً وفَزعاً؟ فقال له الحسن** عليه السلام: **يا أباه قد قتلك هذا اللعين.. وأفجعنا بك وأنتَ تأمرنا بِالرفق بِهِ؟!**

---

(١) نهج البلاغة، (الكتاب ٥٣).

فقالعليه السلام: **نعم يا بُني نَحنُ أهل البيت لا نزداد على المُذنبْ إلينا إلا كَرماً وعفواً.. والرحمة والشفقة بِحقي عَليكَ، فاطعمه يا بني مما تأكُلهُ، وأسقِهِ مِما تَشربْ، ولا تُقيد لَهُ قَدماً، ولا تَغِل لَهُ يداً، فإن أنا متّ فاقتصَ مِنه بأن تَقتلهُ وتَضربهُ ضَربةً واحدةً، ولا تَحرقه بالنارِ ولا تُمثل بالرَجل فإني سَمِعتُ جَدكَ رسولُ الله** صلى الله عليه وآله **يقولُ: إياكُم والمثلة ولو بالكلبِ العَقور، وإن أنا عِشتُ فأنا أولى به بِالعَفو، وأنا أعلم بِما اَفعلْ»**[1].

وفي ذلك، وفي غيره من مواقف الصفح والسماحة المتناهية ما اشتملت عليه سيرة الإمام علي عليه السلام، وفيها المثال الحي لأخلاق النبوة وأولياء النبوة، شهادة للتاريخ انّ قيم السماحة في الدين تجد شخوصها في سماحة النفوس المتمثلة بصدق ووعي لقيمه ومثله العليا، وأنّها شاهد الإثبات التاريخي لحكمة الخلود للشخوص الرسالية، واعتمار النفوس فيها على مدى الأجيال، وقد عبر الإمام علي عليه السلام في ذلك عن تلك الحكمة الخالدة التي شخص فيها كمثل ما شخص غيره فيها على ذات المثال والحكمة الخالدة التي جسدها عليه السلام في قوله: «**خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ**»[2].

وقد نوّه (توماس كارليل) بمحبّته الإمام علي عليه السلام لصفته الاثيرة في الرحمة والعدل وقال في ذلك: «أما عَلي فَلا يَسعُنا إلا أن نُحِبهُ وَنعشقُهُ فإنّه شريف القدر، كَبير النَفس يفيض وجدانهُ رحمةً، ويتلظّى فؤاده نجدةً وحماسةً»[3].

---

(١) الإمام علي من المهد إلى اللحد: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) نهج البلاغة: حكمة رقم٦.

(٣) الأبطال: ٧٦.

البــرّ:

والبرُّ كما يفيد معناه ودلالته: الخير، والاحسان، والفضيلة، والطاعة كما في قوله تعالى: ﴿**وَبَرّاً بِوَالِدَيْه**﴾ [1]، و ﴿**بَرّاً بِوَالِدَتي**﴾ [2]، والمبرور من الفعال ما لا شبهة فيه ولا كذب ولا خيانة، وبر براً: توسّع في الإحسان، وبارّه أحسن إليه ولاطفه، والبرّ: العطية، واللطف، والشفقة، والبر: الكلمة الطيبة، والمبرة، العطية وما يجلب الخير، وقد سميت (الآية ١٧٧) من سورة البقرة بآية البر، وقد تضمّنت الجانبين الروحي والمادي من مضامين البرّ، ويفيد معجم اللاهوت الكتابي: بأن لفظة (البرّ) ترد في الكتاب المقدس قريبة من كلمات مثل (الصلاح) القداسة، الاستقامة، الكمال»[3].

وقد تمثّل البر في حياة الإمام علي عليه السلام بمشاهد إشراقية تجلّت فيها نزعته الإنسانية إلى مداها الأرحب في حفظ كرامة من يؤدّى إليهم البر، فإنّه عليه السلام حرص على أن يصون برّه من تبعات المنّ والأذى ليحفظ كرامة من يشملهم بالبر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَـهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذىً لَـهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [4]، وبمقتضى ذلك فإنّه عليه السلام كان يكرم الناس في حاجاتهم فيطلب من السائل أن يكتب حاجته لئلا يطلع عليها أحد، ونقل في ذلك أنّ رجلاً أتاه فقال له: «يا أمير المؤمنين إنّ لي إليك حاجة»، فقال عليه السلام: «اكتبها في الأرض، فإنّي أرى الضرّ فيك بيّناً» فكتب في الأرض: «إني فقير محتاج» فقال الإمام عليه السلام: «يا قنبر

---

(١) مريم: ١٤.

(٢) مريم: ٢٢.

(٣) معجم اللاهوت الكتابي: ١٥٠.

(٤) البقرة: ٢٦٢.

اكسه حلّتين» فأنشا الرجل يقول:

كسوتنني حلة تبلى محاسنها	فسوف أكسوك عن حسن الثنا حللا
إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة	ولست تبغى بما قد نلته بدلا
إنّ الثناء ليحيي ذكر صاحبه	كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرق بدأت فيه	فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال عليه السلام: «اعطوه مائة دينارٍ»، فقيل له: يا أمير المؤمنين لقد أغنيته، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**أنزلوا الناس منازلهم**»، ثم قال: «**إنّي لأعجب من أقوام يشترون المماليك بأموالهم، ولا يشترون الأحرار بمعروفهم**»[1].

ويذكر بن أبي الحديد عن صفة الإمام علي عليه السلام في السخاء والجود: ان حاله فيه ظاهرة، وكان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده، وفيه أنزل: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا**﴾[2].

وفي الآية مارة الذكر وما يسبقها من قوله تعالى: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾[3] ورد في (المناقب) عن ابن عباس قال: مرض الحسن والحسين عليهما السلام فعادهما جدهما محمد صلى الله عليه وآله ومعه أبو بكر وعمر وعادهما عامة العرب فقالوا: يا ابا الحسن لو نذرت على ولديك نذراً وكلّ نذر لايكون له وفاء فليس بشيء فقال علي عليه السلام: إن برئ ولداي مما بهما صمت لله ثلاثة أيام شكرا لله وقالت فاطمة وجاريتهما فضّة مثل ذلك، فانطلق علي عليه السلام إلى جار له من اليهود

---

(١) القطرة: ١/ ٣٠٢.

(٢) الإنسان: ٨ ـ ٩.

(٣) الانسان: ١ ـ ٨.

يعالج الصوف يقال له شمعون ابن حانا فقال له: هل لك أن تعطيني جزة من صوف تغزلها لك بنت محمد صلى الله عليه وآله بثلاثة أصوع من شعير؟ قال: نعم فأعطاه، فجاء بالشعير والصوف فأخبر فاطمة عليها السلام بذلك فقبلت وأطاعت فقامت عليها السلام إلى صاع فطحنته فخبزت منه خمسة أقراص يأكل كلّ واحد قرصاً وصلى علي عليه السلام مع النبي المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه ـ وهم صيام عن النذر ـ إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فسمعه علي عليه السلام فبكى: قال: فأعطوه الطعام بأجمعه ومكثوا يومهم وليلتهم ولم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح. فلما أن كان اليوم الثاني قامت فاطمة عليها السلام إلى صاع فطحنته وخبزته وصلى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه فأتاهم يتيم فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا آل محمّد يتيم من أولاد المهاجرين استشهد والدي يوم العقبة أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فسمعه علي عليه السلام فأعطوه الطعام بأجمعه، ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح، فلما كان اليوم الثالث قامت فاطمة عليها السلام إلى الصاع الباقي فطحنته وخبزته وصلى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله المغرب ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا آل بيت محمّد تأسروننا وتشدونا ولا تطعمونا!.. أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فسمعه علي عليه السلام فأعطوه الطعام بأجمعه، ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح فلما كان اليوم الرابع وقضوا نذرهم أخذ علي عليه السلام بيده اليمنى الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهم يرتعشون من الجوع .. فلما بصر به النبي صلى الله عليه وآله قال : يا أبا الحسن ما أشدّ أن يسوؤني أن أرى ما بكم انطلق إلى ابنتي فاطمة فأنطلقوا إليها وهي في محرابها تصلي قد لصق

بطنها بظهرها من شدّة الجوع، وغارت عيناها فلما رآها النبي صلى الله عليه وآله قال: واغوثاه بالله أهل بيت محمّد يموتون جوعاً فهبط جبرائيل عليه السلام فقال : يامحمد خذ هنّئك الله في أهل بيتك قال صلى الله عليه وآله: وما آخذ ياجبرائيل فأقرئه : ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ... إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله..**﴾.

وذكر أنّه عليه السلام كان يسقي بيده لقوم من المدينة حتّى مجلت يده ويتصدّق بالأجرة، ويشدّ على بطنه حجر، وقال الشعبي وقد ذكره في ذلك انّه عليه السلام : كان أسخى الناس، وكان على الخلق الذي يحبّه الله: السخاء والجود، ما قال (لا) لسائل قط، وقد قال عدوه ومبغضه الذي كان يجتهد في عيبه معاوية بن أبي سفيان لمجفن بن أبي مجفن الضبي لما قال له ـ متملقاً ـ : «جئتك من عند أبخل الناس» فقال له معاوية: «ويحك كيف تقول إنّه أبخل الناس، لو ملك بيتاً من تبنٍ وبيتاً من تبرٍ لأنفق تبره قبل تبنه».

وانّه عليه السلام كان يكنس بيوت الأموال ويصلي فيها، وهو الذي قال: «**يا صفراء، ويا بيضاء، غرّي غيري، وهو الذي لم يخلف ميراثاً، وكانت الدنيا كلّها بيده إلا ما كان من الشام**»[1].

الحزم والشجاعة:

وعرّف الحزم بأنّه: ضبط الرجل لأمره وأخذه بالثقة[2]، وذلك مما يضمن في مجال العمل العام سلامة الإجراءات الخاصة بمجالات النشاط، ويشمل اتخاذ القرارات اللازمة وعلى وفق الاهداف المحددة، وقد امتاز الإمام علي عليه السلام

(١) شرح نهج البلاغة، ص: ٤٧.

(٢) الصحاح في اللغة والعلوم، مج١، ص٢٦.

بالحزم في إملاءاته وقراراته الخاصّة بعمل الولاة والقضاة والعاملين في ولايات الدولة، وعرف في ذلك بحرصه الشديد ومتابعته لأعمالهم ومحاسبتهم على التقصير، ولم يتوانَ في اتخاذ ما كان يراه مناسباً في ذلك، وكانت له على مدى السنوات القليلة من توليه القيادة في العهد الإسلامي مبادرات وإجراءات حاسمة بهذا الشأن، وعلى مختلف الأصعدة، ونورد في الآتي نبذاً من مجهوداته في ذلك، نعقبها بما يتصل بمواقفه في الجرأة والإقدام:

١ـ كتب إلى زياد بن أبيه، وكان خليفة عامله على البصرة، وهور الأهواز وفارس وكرمان يحذره من الخيانة في فيء المسلمين، وفي أي مقدار كان صغُر أم كبُر:

«واني أُقسم بالله قسماً صادقاً، لئن بلغني أنّك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر[1]، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر، والسلام»[2].

وفي كتاب آخر له دعاه إلى الاقتصاد في النفقات بحسب الضرورة:

«دَعِ الإسرافَ مُقتَصِداً، واذكُرْ في اليومِ غداً، وامسِكْ مِن المال بِقَدْرِ ضَرورتك، وقَدِّمِ الفضلَ ليوم حَاجَتَكَ».

٢ ـ أوعز لعامله على أذربيجان، الأشعث بن قيس بأن يتوخى الأمانة في الصرف للمال العام، وأن يتمّ إطلاعه على ما يكون من ذلك، وبموجب مستندات (وثائق) تسلم له:

---

(١) الوفر: المال.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٠، الكتاب ٢١.

«وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَ لَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ وَ أَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ وَ لاَ تُخَاطِرَ إِلّا بِوَثِيقَةٍ وَ فِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ الله تَعَالَى وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّى تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ...»[1].

٣ ـ استدعي شريح بن الحارث قاضيه وقد بلغه أنّه قد اشترى على عهده داراً، وكتب به كتاباً وأشهد فيه شهوداً، وقد نظر إليه مغضباً ثم قال له:

«يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لاَ يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلاَ يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلى قَبْرِكَ خَالِصاً، فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاَ تَكُونُ ابْتَعْتَ هذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أو نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلاَلِكَ! فإذا أَنْتَ قدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الآخِرَةِ!»[2].

٤ ـ بلغه أنّ أحد عمّاله قد خان الأمانة في المال وأخذه منها بغير استحقاقه فوجّه إليه كتاباً شديد اللهجة وأمره بأن يرفع إليه حسابه في ذلك:

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ اَلْأرض فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ وَاِعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ الله أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ اَلنَّاسِ..»[3].

٥ ـ وغضب الإمام عليه السلام أشدّ الغضب من تصرف أحد عمّاله، وقد عهد فيه صدق الإيمان والأمانة، وقد بلغه عنه ما يخالف ذلك من الاستئثار بالمال العام حين ولّاه الأمر فكتب إليه:

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب٣.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب٤٠.

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي لِـمُوَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ اَلْأَمَانَةِ إِلَيَّ فَلَمَّا رَأَيْتَ اَلزَّمَانَ عَلَى اِبْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ وَ اَلْعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ وَأَمَانَةَ اَلنَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ وَهَذِهِ اَلْأُمَّةُ قَدْ فَتَكَتْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ اَلْمِجَنِّ فَفَارَقْتَهُ مَعَ اَلْـمُفَارِقِينَ وَخَذَلْتَهُ مَعَ اَلْـخَاذِلِينَ وَخُنْتَهُ مَعَ اَلْـخَائِنِينَ فَلاَ اِبْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ وَلا اَلْأَمَانَةَ أَدَّيْتَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنِ الله تُرِيدُ بِجِهَادِكَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ اَلْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ اَلشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ اَلْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ اَلْكَرَّةَ وَعَاجَلْتَ اَلْوَثْبَةَ وَاِخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ اَلْـمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمُ اِخْتِطَافَ اَلذِّئْبِ اَلْأَزَلِّ دَامِيَةَ اَلْمِعْزَى اَلْكَسِيرَةَ فَحَمَلْتَهُ إِلى اَلْحِجَازِ رَحِيبَ اَلصَّدْرِ بِحَمْلِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ كَأَنَّكَ لاَ أَبَا لِغَيْرِكَ حَدَرْتَ إِلى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَ أُمِّكَ فَسُبْحَانَ الله أَمَا تُؤْمِنُ بِالْـمَعَادِ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ اَلْحِسَابِ! فَاتَّقِ الله وَارْدُدْ إِلى هَؤُلاَءِ اَلْقَوْمِ أَمْوَالَـهُمْ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي الله مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلى الله فِيكَ وَ لَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي اَلَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلاَّ دَخَلَ اَلنَّارَ، ووَاَلله لَوْ أَنَّ اَلْـحَسَنَ وَاَلْـحُسَيْنَ فَعَلا مِثْلَ اَلَّذِي فَعَلْتَ مَا كَانَتْ لَـهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ وَلاَ ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ حَتَّى آخُذُ اَلْـحَقَّ مِنْهُمَا وَأُزِيحَ اَلْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا وَأُقْسِمُ بِالله رَبِّ اَلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِـهِمْ حَلاَلٌ لِي أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِـمَنْ بَعْدِي فَضَحِّ رُوَيْداً[1]، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ اَلْـمَدَى وَدُفِنْتَ تَحْتَ اَلثَّرَى وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْـمَحَلِّ اَلَّذِي يُنَادِي اَلظَّالِمُ فِيهِ بِالْـحَسْرَةِ وَ يَتَمَنَّى اَلْـمُضَيِّعُ فِيهِ اَلرَّجْعَةَ ﴿وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾..»[2].

وإذا تجاوزنا الكثير من غير ما ذكرنا من مواقف الحزم والجراة للإمام عليه السلام وهو يمارس دوره المبدئي في الحكم فإنّ موقفه من معاوية بن أبي سفيان وقد

(١) «ارع نفسك على مهل».

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٤١.

استفرد بالسلطة في بلاد الشام في وقت سبق ولحق من خلافة الإمام علي عليه السلام لعوامل ساعدته على ذلك ـ يمثل الذروة من مواقف الحزم والجرأة في التصدي له، غير آبه بما قدم له بعض من عدّوا من الدهاة بأن يتعامل معه بمنطق السياسة في المساومة معه؛ لأنّه لم يكن يؤمن بما أقرته المكيافيلية في هذا العصر مبدأ «انّ الغاية تبرّر الوسيلة»، وقد ساومه معاوية ليبقيه والياً على الشام فلم يقبل منه غير أن يتنحى عن أمر لم يكن يرى أحقيته فيه، وقد أبلغ جرير بن عبدالله البجلي لما أرسله إلى معاوية أن يحمله على الحكم القطعي في ذلك ويأخذه بالأمر الحازم، مخيراً إيّاه بين الحرب أو الصلح من موقع القوة: «**فَإِنِ اخْتَارَ الْـحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ**»(١).

وقد رفض الإمام عليه السلام وبشدّة طلب معاوية بأن يعطيه الشام على أن يقر للإمام بالخلافة ويكون بإمرته: «**وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ**»(٢).

وكانت للإمام عليه السلام حنكته باستقطاب زياد بن أبيه وتوليته لعمل من أعمال الولايات وكان من دهاة العرب والخطباء العظماء وقد استعمله عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة وقيل استخلفه أبو موسى وكان كاتباً له وكان أحد الشهود على المغيرة بن شعبة مع أخويه فلم يقطع بالشهادة فحرهم عمر ولم يحره وعزله فقال: يا أميرالمؤمنين أخبر الناس أنّك لم تعزلني لخزية فقال: ما عزلتك لخزية ولكن كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك وقد استعمله الإمام علي عليه السلام على فارس بعد أن أخرج أهلها عامله سهل بن حنيف فصالحوه

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب٨.

(٢) نهج البلاغة (الكتاب١٧).

وأدوا الخراج ولم يزل مع الإمام علي عليه السلام إلى أن قتل، وسلم الأمر إلى معاوية فعمل على استلحاقه به ليجعله أخا من أبي سفيان وكان يقال له قبل أن يستلحقه زياد بن عبيد الثقفي وذكر أنّ سبب استلحاقه انّ زياداً قدم على عمر بن الخطاب بشيراً ببعض الفتوح فأمره فخطب الناس فأحسن فقال عمرو بن العاص: «لو كان هذا الفتى قرشياً لساق العرب بعصاه» فقال أبو سفيان: «والله إني لأعرف الذي وضعه في رحم إمهِ» فقال علي عليه السلام: «ومن هذا يا أبا سفيان؟ قال: أنا فقال عليه السلام: مهلاً فلو سمعها عمر لكان سريعاً إليك» ولما ولي زياد بلاد فارس لعلي عليه السلام كتب إليه معاوية يعرض له بذلك ويتهدّده إن لم يطعه فأرسل زياد الكتاب إلى الإمام علي عليه السلام وخطب الناس وقال: «عجبت لابن آكلة الأكباد يتهدّدني وبيني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار» فلما وقف الإمام عليه السلام على كتابه كتب إليه:

«إنّما وليتك ما وليتك وأنت عندي أهل لذلك ولن تدرك ما تريد إلا بالصبر واليقين وإنما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر لا تستحق بها نسباً ولا ميراثاً وانّ معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره والسلام» فلما قرأ زياد الكتاب قال: «شهد لي أبوالحسن ورب الكعبة» فلما قتل الإمام علي عليه السلام وبقي زياد بفارس خافه معاوية فاستلحقه في حديث طويل واستعمله على البصرة ثم أضاف إليه ولاية الكوفة لما ملت المغيرة بن شعبة[1].

وقد كلفت الإمام عليه السلام مواقفه المبدئية عناءً بالغاً، وقد وقضى شهيداً من اجل ذلك ما كان فيه كما قال جورج جرداق: المقدار العظيم من الاسهام في مقاومة الظالم ونصرة المظلوم، ومن معاندة الاستبعاد والاستغلال، والعمل على

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة مج ٢ و ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

تقويض اسبابهما، وبالتضحية في سبيل الكرامة الإنسانية بكل عزيز من الدم والحياة.

أمّا شجاعة الإمام علي عليه السلام فقد تمثلت ـ عدا ما توافرنا على ذكره من مواقف الحزم ـ في خواص امتازت بها شخصيته الفريدة بالشجاعة النادرة التي تتمثل في مظهر القوة البدنية فيه، وفي اندفاعته الحيوية والتي تلازمت وتكافأت مع قوة مقابلة لها في العقل أهّلته لذلك الدور القيادي المتميز، وثمة من يشير إلى «ان في الصفات الجسمية والعقلية للإمام علي عليه السلام ما ابرز فيه شخصية عظيمة مهابة، صلبة، شديدة المراس على عدوها»[1] فإنّ للإمام علي عليه السلام في الشجاعة مواقف مشهودة في العهد الإسلامي الأول، ويذكر السيوطي في (تاريخ الخلفاء من ذلك) انّه عليه السلام: قد شهد بدراً وأُحداً، وسائر المشاهد إلّا تبوك فإنّ النبي صلى الله عليه وآله استخلفه على المدينة، وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأعطاه النبي صلى الله عليه وآله اللواء في مواطن كثيرة، وقال سعيد بن المسيب: أصابت علي يوم أُحد ست عشرة ضربة، وثبت في الصحيحين انّه صلى الله عليه وآله أعطاه الراية في خيبر، وأخبر انّ الفتح يكون على يديه، وأحواله في الشجاعة، وإثارة في الحروب مشهورة»[2].

وقال الشعبي: «كان علي أشجع الناس تقرُّ له العرب بذلك قتل يوم بدر الوليد بن عتبة بن ربيعة وأعان عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب على شبية بن ربيعة ثم حمل على الكتيبة مصمماً وحده وهو يقول:

لـن تأكلـوا العترة ببطن مكة من بعدها حتى تكون الدكة[3]

---

(١) موسوعة تاريخ العرب، ج٢، ص٤٤٦.

(٢) تاريخ الخلفاء: ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣) انساب الاشراف: ٢/ ١٢٢.

وقد كانت للإمام عليه السلام جرأته البالغة في قول الحق، غير مبال ولا هيّاب لأحد في ذلك، وقد ذكر من ذلك انّ عمر بن الخطاب خطب أثناء خلافته قائلاً:

لو صرفناكم عمّا تعرفون إلى ما تنكرون ما كنتم صانعين؟ قيل: فأزموا ـ أي سَكَتوا ـ، فقال ذلك ثلاثاً، فقال علي عليه السلام: إذا كنا نستتيبك، فإن تبت قتلناك قال: وإن لم آت؟ قال عليه السلام: إذاً لَضَرب الذي فيهِ عَيناكَ، فقالَ عمر: الحمدُ لله الذَي جَعَلَ في هذهِ الأُمةِ مَنْ إذا إعوَجَجْنا أَقامَ أودَنا»[1].

وحين نُفي أبو ذرالغفاري إلى الربذة وطلع عن المدينة ومروان بن الحكم يسيّره عنها طلع الإمام علي عليه السلام فاعترض مروان فقال: يا علي انّ أميرالمؤمنين نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر ويشيعونه، فإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه علي عليه السلام بالسوط وضرب بين أذني ناقة مروان وقال: تنح نحاك الله إلى النار، ومضى مع أبي ذر فشيّعه ثم ودعه، وانصرف فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر وقال: «رحمكم الله يا أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله»، وكانت حادثة بعد ذلك بين علي وعثمان تدخل الناس بينهما حتى أصلحوا بينهما، وقال علي عليه السلام: «والله ما أردت بتشييعي أبا ذر إلا الله تعالى»[2].

وبمثل ما كان للإمام من الحزم والشجاعة وقد ذكرنا بعضاً من مشاهدها، فان الإمام عليه السلام كان يوجه ولاته بأن يكونوا على القدر اللازم من الحزم مما يقتضي لتأدية مهامهم ما مر بنا ذكره، وقد توافق الحزم عنده، مع الجرأة والبسالة في مشهدين متكاملين من القوة العقلية والبدنية، وقد نوه ابن ابي الحديد بذلك

---

(١) كشف الغمة في معرفة الائمة: ١/ ١٣١.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٨٦.

القدر الفائق من شجاعة الإمام علي عليه السلام بأنّه: قد أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومن يأتي بعده، وأنّ مقاماته في الحرب مشهودة تضرب فيها الأمثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذي ما فرّ قطّ، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلّا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأُولى إلى ثانية، وفي الحديث: «كانت ضرباته وتراً».

ويُذكر من موارد الشجاعة للإمام علي عليه السلام أنّه دعا معاوية إلى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما، قال له عمرو بن العاص: «لقد أنصفك» فقال له معاوية: «ما غششتني منذ نصحتني إلّا اليوم، أتأمرني بمبارزة ابي الحسن وأنت تعلم أنه الشجاع المطرق، أراك طمعت في إمارة الشام بعدي!» وكانت العرب تفتخر بوقوعها في الحرب في مقابلته، فأمّا قتلاه فافتخار رهطهم بأنّه عليه السلام قتلهم أظهر وأكثر، وقد قالت أُخت عمرو بن عبد ود لما قتله الإمام علي عليه السلام ترثيه:

لـو كـان قاتـل عَمـرو غـير قاتلـه بكيتـهُ أبـداً مـا دمـت في الأبـد

لكـن قاتلـهُ مـن لا نظـير لـه وكـان يـدعى أبـوه بيـضة البلـد

وقد انتبه معاوية يوماً فرأى عبدالله بن الزبير جالساً تحت رجليه على سريره فقعد فقال له عبدالله يداعبه: يا أميرالمؤمنين لو شئت أن أفتك بك لفعلت، فقال: لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر، قال: وما الذي تكره من شجاعتي وقد وقفت في الصف بإزاء علي بن ابي طالب! قال: لا جَرمَ أنه قَتلكَ وأباك بيسرى يده، وبقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها.

وقال ابن قتيبة في (المعارف) عن قوة الإمام علي عليه السلام: «ما صارع أحداً إلّا صرعه، وهو الذي قلع باب خيبر واجتمع عليه عصبة من الناس ليقلبوه فلم

يقلعوه، وهو الذي اقتلع هبل من أعلى الكعبة وكان عظيماً جداً وألقاه إلى الأرض، وهو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته بيده بعدما عجز الجيش كله عنها، وانبط الماء من تحتها»[1].

وحسب الإمام علي عليه السلام شجاعة أنّه قد خاض المعارك كلها على عهد الإسلام وفي أثناء خلافته ولم تخذله قوته كمثل مالم يخذله حزمه وإرادته في التصدي للأعباء الكبيرة من المسؤولية في زمن مضطرب وقد واجه قدره في الشهادة في رحاب الله في ضربة غادرة كان له فيها ذلك الموقف المشهود من حلم وسماحة القادة النبلاء.

الزهد والامتثال لله :

ويمثل الزهد البعد الروحي للقيادة المستهدية بالقيم الرسالية، وفيه جماع من وصفوا في القران الكريم بـ(عباد الرحمن) ما اشتملت (عليه الآيات ٦٣ ـ ٧٥) من سورة الفرقان:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرض هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْـجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْـحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا *

(١) شرح نهج البلاغة: ٤٥ ـ ٤٦.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إلى الله مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ﴾ (الفرقان٦٣ ـ ٧٥).

وقد أثنى النبي محمّد ﷺ على خصال الإمام علي عليه السلام من ذلك النسيج الإيماني، وروي عن عبدالله الانصاري قوله في ذلك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ فِي عَلِيٍ خِصالاً لَو كانَتْ واحِدةً مِنْها فِي جَمِيعِ الناسِ لاكتَفَوا بِها فَضلاً**»(١).

وقد قدّم الإمام عليه السلام تعريفاً معتبراً للزهادة حيث قال: «**قِصَرُ اَلْأَمَلِ وَاَلشُّكْرُ عِنْدَ اَلنِّعَمِ وَ اَلتَّوَرُّعُ عِنْدَ اَلْمَحَارِمِ**»(٢) وكان الإمام عليه السلام على الغاية من النسك والتواصل مع الله تواصلاً روحياً يلتقي فيه الوجدان الصافي مع العقل المتبصر المستهدي بالحكمة وكان في مناجاته لله تعالى ودعائه المخلص له على الأتم من مشهد اليقين الصادق وقد أتحفنا بالروائع من أدب الدعاء والمناجاة لله والتي تدلّ على روحانية صافية وصادقة يلتقي فيها الوجدان مع العقل ليشكّل نسيجاً من الوعي والإدراك التامّ لحقيقة الخالق تعالى وما ينبغي للمخلوق أن يكون عليه من الولاء والوفاء لخالقه وإنّ ما ورد في نهج البلاغة من ذلك يشكّل مورداً من موارد الإدراك الوجداني والعقلي للحقيقة الإلهية مستقاة من خواص الخلق الالهي المبدع وكان عليه السلام في ذلك على الحالة الأوفى من الخشوع سائلاً ربّه مع كلّ وفائه في ذلك الغفران وفي كلمات حيّة ونابضة من أدب الدعاء:

---

(١) القطرة: ٢/ ١٩٥.

(٢) نهج البلاغة: كلام ٨.

ـ «اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي فَإِنْ عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ بِالْـمَغْفِرَةِ».
ـ «اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي مَا وَأَيْتُ مِنْ نَفْسِي وَ لَمْ تَجِدْ لَهُ وَفَاءً عِنْدِي».
ـ «اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي مَا تَقَرَّبْتُ بِهِ إِلَيْكَ بِلِسَانِي ثُمَّ خَالَفَهُ قَلْبِي».
ـ «اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي رَمَزَاتِ اَلْأَلْـحَاظِ وَ سَقَطَاتِ اَلْأَلْفَاظِ وَ سَهَوَاتِ اَلْـجَنَانِ وَهَفَوَاتِ اللِّسَانِ»[1].

وفي الزهد كان الإمام عليه السلام على الغاية من ذلك وقد وصفه ابن أبي الحديد بأنّه: «كان سيد الزهاد» وأنّ فضائله قد بلغت من العظم والجلالة والانتشار مبلغاً لا يمكن التعرّض لذكر خلقها والتصدّي لتفصيلها، وإليه تُعزى كلّ فضيلة، وتنتهي إليه كلّ فرقة، وتتجاذبه كلّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو غورها، وسابق مضمارها، ومجلي حليتها، وكل من بزغ فيها بعده، فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى.. كان يصوم ويطوي[2]، ويؤثر بزاده، وفيه نزلت بذلك (الآيتين ٩و١٠) من سورة الإنسان، وما شبع من طعام قط، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً، قال عبدالله بن رافع: دخلت إليه يوم عيد فقدّم جراباً مختوماً، فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرصوصاً، وقدم فأكل فقلت: يا أميرالمؤمنين، فكيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين يلتاه بسمن وزيت، وكان ثوبه مرقوعاً بجلد تارةً وليف تارةً أُخرى، ونعلاه من ليف وكان يلبس الكرباس[3] الغليظ فإذا وجد كمّه طويلاً قطعه بشفرة ، ولم يخط، وكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتى يبقى سداً لا لحمة فيه، وكان يأتدم[4]، واذا ائتدم

(١) نهج البلاغة: كلام ٧٧.
(٢) يجوع.
(٣) ثوب من القطن الابيض.
(٤) يخلط الخبز بما يلائمه.

بخلٍ أو بملح، وإن ترقّى عن ذلك فببعض نبات الأرض، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الابل، ولا يأكل اللحم إلا قليلاً، ويقول: «**لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان**»، وكان مع ذلك أشدّ الناس قوة وأعظمهم أيداً، لا ينقص الجوع قوته، ولا يخون الإقلال منته، وهو الذي طلق الدنيا، وكانت الأموال تجيء إليه من جميع بلاد الإسلام إلا الشام، وكان يفرقها ثم يقول:

هــذا جنــاه وجــاره فيــه اذ كــل جــان يــده إلى فيــه

«وأمّا العبادة فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنّك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع[1] بين الصفين ليلة الهرير فيصلي عليه ورده والسهام تقع بين يديه، وتمرّ على صحابته يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته، وإذا تأملت دعواته ومناجاته وقعت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمّنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزته واستخذاء له، عرفت ما ينطوي عليه من الاخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، ومن أي لسان عبرت، وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام وكان الغاية في العبادة: «أينَ عِبادَتكَ مِنْ عِبادةِ جَدِكَ؟ قالَ: عِبادَتي عِنْدَ عِبادَةِ جَدي كَعِبادَةِ جَدي مِنْ عِبادَة رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله».

«وأمّا عَنْ قراءته للقرآن واشتغاله بِه، فهو المنظور إليه في هذا الباب، اتفق الكل على أنّه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أوّل من جمعه»[2].

---

(١) بساط من الجلد.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥٠ ـ ٥١.

وبمقتضى ذلك فإنّ الإمام علي عليه السلام كان يؤدّي وظيفته الروحية والعملية في الحياة على التمام وبكل إخلاص، وكان رفيق وحبيب الفقراء والمساكين يتفقدهم ويحسن إليهم، ونقل البلاذري في ذلك: انّه عليه السلام شوهد وقد أُتي بزق من عسل فدعى اليتامى وقال: «دبّوا العقو»، وذكر عن رجل قوله آنذاك: «تمنيت أنّي يتيم» وقد قسم منه بين الناس وبقي زقاً فأمر أن يسقاه أهل المسجد وقد قسم فيه الرمان حتى أصاب مسجدهم سبع رمانات، قال: «**أيُها الناسْ إنَهُ يأتينا أشياءٌ نَستكثِرُها إذا رأيناها ونَستَقِلُّها إذا قَسَمْناها، وإنّا قَسمْنا كُلَ شَيء أتانا، قَال وأتتهُ صَفائِحُ فِضةٍ فَكَسَرَها وَقَسَمها بَيننا**».

وعن مصعب عن أبيه: «كان عَلي عليه السلام يَقسِم بَيننا كُل شيءٍ حَتى يَقسم العطور بَينَ نِسائنا»، وعَن الحارث: «كُنْتُ عِندَ عَلي فأتته إمرأتانِ فَقالتا: يا أمْيرَالمؤمِنينْ إننا فَقيرتانِ مِسكينتانْ، فَقالَ عليه السلام: **قَد وَجَبَ حَقُكُما عَلينا، وعَلى كُلِ ذي سِعةٍ مِنْ المُسلمين إنْ كُنتُما صادِقَتيَنِ، ثُمَ أمَرَ رَجُلاً فَقالَ لَهُ: إنطَلِقْ بِهِما إلى سوقِنا واشترَ لِكُلِ واحِدَةٍ مِنهُما كراً مِن طَعامٍ وثلاثَة أثوابْ**».

وكان عليه السلام في ذلك يؤثر الناس على نفسه وعياله، وقد نقل عن رجل من خثعم قوله: رأيت الحسن والحسين عليهما السلام يأكلان خبزاً وخلاً وبقلاً، فقلت: «تأكُلانِ هذا وفي الرَحبةِ ما فيها! فقالا: ما أعقلك عن أميرِالمؤمنينْ»[1].

وقد قدم الإمام عليه السلام في سيرته في الحكم مثالاً لا يضاهى في التواضع مرتقياً على المراسيم المعهودة في لقاء القادة مع جمهور الناس مما قد سبق أو لحق من ذلك فانه عليه السلام لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له واشتدوا بين يديه فقال لهم : «**مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ فَقَالُوا خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا**

(١) أنساب الأشراف: ج٢، ص٣٦٦ ـ ٣٧٧.

فَقَالَ عليه السلام وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ»[1].

وهكذا كان الإمام علي عليه السلام وبكلّ تلك الخواص الفريدة والنادرة سيد القادة من أهل العدل والزهادة ، ومفخرة أهل الرأي والتدبير وقدوتهم، ومثلهم الأعلى وقد قدّم في سلوكه في القيادة مثالاً حياً لما صحّت تسميته في الدراسات الحديثة عن القيادة في العصر الحديث بـ(قيادة الخادم) والتي ذكر بأنّ (جرين ليف green leaf) قد طوّره في بداية السبعينات من القرن العشرين كمدخل قيادي يركز على أنّ القادة ينبغي أن يهتمّوا بمصالح أتباعهم وأن يتعاطفوا لمواقفهم وأن يقدّموا لهم العناية والرعاية وقال (ليف) في ذلك: إنّ القيادة توهب لشخص خادم بطبيعته وانّ القادة الأخلاقيون يهتمّون بقضايا العدالة والمساواة ويجعلون من أولى أولوياتهم التعامل مع جميع أتباعهم بطريقة متساوية[2].

وظيفة الدولة ومهام التدبير العام:

والدولة عند الإمام علي عليه السلام كيان تدبيري عام تنبثق فيه المسؤولية من الإرادة العامة للمجتمع (الرعية)، وتحدّد وظائف الدولة وسلطاتها والتي يتولاها المسؤول العام (الراعي) طبقا لمبادئ الدستور (الشريعة)، وتكون

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٣٣.

(٢) القيادة الادارية: ص ٣٤٠ـ ٣٤٢.

العلائق في ذلك تضامنية، وقد جسد الإمام عليه السلام وفي الفترة التي تولى فيها المسؤولية العامة في الدولة، الدور الاجتماعي العام وفي معادلة تكافأت فيها الحقوق والواجبات ما بين الدولة ومواطنيها، وتجسدت فيها آفاق ومعالم الفكر والنشاط التدبيري المثابر، وقد عبر الإمام عليه السلام عن ذلك الدور المسؤول للعلاقة ما بين الدولة ومواطنيها في تطبيق القوانين، واستقرار الدولة بقوله:

«فَإِذَا أَدَّتْ الرَّعِيَّةُ إلى الْوَالِي حَقَّهُ وَأَدَّى الْوَالِي إليها حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ وَجَرَتْ عَلَى أَذْلَالِهَا السُّنَنُ فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ»(١).

وقد تولّى الإمام عليه السلام تحديد مؤهلات متولي الشأن العام ومسؤولية الأجهزة الرئيسية في الدولة وشمل ذلك الجوانب التالية:

١ ـ الجانب السياسي والتنظيمي.
٢ ـ الجانب القضائي.
٣ ـ الجانب الاقتصادي.
٤ ـ الجانب التعليمي ـ التربوي.

١ ـ الجانب السياسي والتنظيمي:

اهتمّ الإمام عليه السلام وفي مبتدأ توليه لمسؤولية الخلافة بالجانب الاعتباري والتنظيمي للدولة، ونظام عملها موجها لما يقتضي للدور المتقدم من المسؤولية، منوّهاً بالقاعدة العامة التي ابتنى عليها تكليفه للمسؤولية العامة والقائمة على

(١) نهج البلاغة، كتاب ٥١.

أساس المبايعة وفي مشهد عام ألحّ فيه الإمام عليه السلام على اعتماده مع كون إقراره لمنصب الخلافة قد تمّ عن طريق مجلس الشورى، وجاء في ذلك قوله:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُما، وَإِنْ كَتَمْتُما، أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي، وَإِنَّكُما مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي، وَإِنَّ العَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَان غَاصِب، وَلاَ لِعَرَض حَاضِر»(١).

معبراً عن كونه عليه السلام قد أراد الناس أن يكونوا في حكمه على شريعة الله لتحقيق ما اراد الله من جانب الحق في ذلك:

«إِنِّي أُرِيدُكُمْ لله، أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُوني عَلى أَنْفُسِكُمْوَايْمُ الله لاَنْصِفَنَّ الْـمَظْلُومَ، وَلاَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْـحَقِّ وإِنْ كَانَ كَارِهاً»(٢).

وبيّن الإمام عليه السلام ما يقتضي من المؤهلات لمتولي المسؤولية العامة:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهذَا الأمر أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ الله فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ.

وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فـَمَا إلى ذلك سَبِيلٌ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْـحَقِّ...»(٣).

وحدّد عليه السلام مسؤولية الدولة تجاه الشعب، ومسؤولية الشعب تجاه الدولة باعتبارها راعية للمصالح العامة، وفي معادلة تتكافأ فيها الحقوق والواجبات كما في قوله عليه السلام:

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٤.

(٢) نهج البلاغة: كلام ١٣٦.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٧٣.

«وَأَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ ـ سُبْحَانَهُ ـ مِنْ تِلْكَ الْـحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فإذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إلى الْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى الْوَالِي إليها حَقَّهَا، عَزَّ الْـحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ، وَاعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ، وَجَرَتْ عَلَى أَذْلالِـهَا السُّنَنُ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الأَعْدَاءِ.، وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا، أو أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ، اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْـجَوْرِ، وَكَثُرَ الإِدْغَالُ فِي الدِّينِ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بِالْـهَوَى، وَعُطِّلَتِ الأَحْكَامُ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ، فَلاَ يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ، وَلاَ لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ! فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأَبْرَارُ، وَتَعِزُّ الأَشْرَارُ»(١).

ولخّص الإمام عليه السلام جوهر العلاقة ما بين القائد وشعبه بإنها «الْأَمَانَةَ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ وَالطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ»، وأشار للجانب الاعتباري من الحقوق المتقابلة ما بين متولي الأُمور والناس: «حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ، عَلَى الْوَالِي، فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لِكُلّ عَلَى كُلّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِإِلْفَتِهِمْ»(٢).

وأشار عليه السلام إلى ضرورة استثناء ذوي الطبائع السيئة من تولي المسؤوليات الأساسية التي تتصل بحياة الناس:

«أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّمَاءِ وَالمَغَانِمِ وَالاَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْـمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِـهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلاَ الْـجَاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلا الجافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلاَ الجَـائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْم، وَلاَ الْـمُرْتَشِي فِي الْـحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْـحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ المَقَاطِعِ، وَلاَ الْـمَعطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ»(٣).

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٢١٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢١٦.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٣١.

ويذهب الإمام عليه السلام إلى المدى الارحب من المسؤولية والتي تتجاوز عنده ما يختص بالناس إلى المسؤولية عما في الطبيعة كذلك:

«...فَإِنَّكُم مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبُقَاعِ وَالْبَهَائِم».

وفي عهده الشهير لمالك الأشتر قدم عليه السلام التقسيم الوظيفي لسلطات الدولة ـ والذي يجري اعتماده إلى اليوم ـ مع خلاصة لوظائفها، وبيان ما يقتضي لمتوليها ولمواطنيهم من الواجبات والحقوق، مؤكداً فيها الثوابت المبدئية لقيم الحكم الديمقراطي المستند للإرادة الشعبية، والمرتهن لمطالبها وتطلعاتها العادلة، ويستفاد من مضامين ذلك العهد اعتماد النظام الفيدرالي اللامركزي الموجّه بالقرارات النافذة من السلطة المركزية، وقد تفصل الإمام عليه السلام في بيان التقسيمات التدبيرية لسلطات الحكم في الدولة وواجباتها، وما يقتضي لرئيس الاقليم (الوالي) في ذلك من المهام، وما يتوجب عليه تجاه السلطة المركزية، مقدماً الدور العسكري في ذلك لاعتبارات خاصة بطبيعة المرحلة التي كانت تمرّ بها الدولة آنذاك، وبمقتضي ذلك فقد قسم عليه السلام فئات الحكم إلى خمسة فئات هي: (العسكريون وسمّاهم (جنود الله)، وفئة الكتاب العموميون والخاصون، وقضاة العدل، وعمال الخدمات القائمون على الأُمور المالية وسماهم بعمال الإنصاف والرفق، ومنهم أهل الجزية والخراج، وفئة التجار وأهل الصناعات. وبالنسبة للعمل الوزاري وجّه الإمام عليه السلام بعدم الاعتماد على الوزراء السابقين ممن عملوا مع الحكام الذين وضح فيهم الشر والبغي، والاعتماد على أهل الورع والصدق واختبارهم، وتجنب ما يكون منهم من المديح والاطراء ما يحصل فيه الزهو والتعالي.

«شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلا يَكُونَنَّ

لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْـخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ[1] وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ، وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ، أُولئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً، فَاتَّخِذْ أُولئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَـهُمْ بِمُرِّ الْـحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيَما يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لأَوْلِيَائِهِ...».

«وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ[2] عَلَى أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلاَ يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الاْطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ»[3].

وفي مجال العمل الاستشاري أشار الإمام عليه السلام على المسؤولين بأن لا يعتمدوا على مشورة من يرون في مشورتهم ما يفسد الرأي الناصح والموقف السليم:

«وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمور وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْـجَوْرِ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْـجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِالله».

وقدّم الإمام عليه السلام جملة وصايا وتعليمات منظمة وضابطة لعمل الولاة والأجهزة العاملة في الدولة انتظمها العهد التاريخي للإمام عليه السلام لمالك الأشتر، والذي يصح ان نسميه بـ(عهد النظام التدبيري)، وقد اشتمل على جملة من التوجيهات والقرارات العامة التي تتصل بمجال التنظيم لعمل أجهزة الدولة

(١) ذنبهم واثمهم.

(٢) عودهم.

(٣) نهج البلاغة (كتاب/ ٥٣).

والخدمة العامة، اضافة إلى ما اشتملته القرارات والوصايا الأُخرى للإمام في ذلك كان من أبرزها:

■ التوجيه بمباشرة الأعمال التي تختصّ بالأُمور العامة والهامة التي ترد من الأقاليم (الولايات) ويقتضي اتخاذ الإجراءات اللازمة والسريعة بشأنها وبعيداً عن صيغ المكاتبات التي من شأنها أن تطيل من مجرى المعاملات وتعيق سبل الإنجاز، واتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب، وفي ذلك جاء قوله عليه السلام:

ـ «**ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَاعَنْهُ كُتَّابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ**».

ـ إنجاز الأعمال في ذات اليوم وفي وقت ورودها وبما يناسبها مع تقدير درجة اهميتها ووجوه المصلحة فيها:

«**وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْم عَمَلَهُ، فإِنَّ لِكُلِّ يَوْم مَا فِيهِ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْـمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسَامِ..**».

■ تخصيص قسم خاص لمقابلة ذوي الحاجات يتفرغ فيه المسؤول للنظر في أُمور الناس بمجتمعهم وعلى وفق ضوابط اعتبارية جاء الإمام عليه السلام على ذكرها لتدعيم النهج الديمقراطي الأوفى في العمل الوظيفي:

«**وَاجْعَلْ لِذَوِي اَلْـحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَـهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَ تَجْلِسُ لَـهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لله اَلَّذِي خَلَقَكَ وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ اَلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ**»[1]، «**ثُمَّ**

(١) متردد.

احْتَمِلِ اَلْـخُرْقَ»[1].

وفي ذات الأمر أوصى الإمام عليه السلام المسؤولين بعدم الاحتجاب عمّن يعملون معهم لفترة طويلة، منوّهاً إلى أنّ ذلك يؤشر حالة القصور في إدراك ما يقتضي من الأُمور جراء عدم تواصلهم مع مجتمعهم الوظيفي والعام:

« فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْم بِالأُمور، وَالاْحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِندَهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظَمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْـحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْـحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لاَ يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمور، وَلَيْسَتْ عَلَى الْـحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْـحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أو فِعْل كَرِيم تُسْدِيهِ، أو مُبْتَلَىً بِالْـمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إذا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ ما لا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة، أو طَلَبِ إِنْصاف فِي مُعَامَلَة»[2].

«فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاَءُ الأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الأئِمَّةِ». «وَلاَ تَحْسِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاَ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ».

«وَلاَ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلاَ الْـجُنْدَ حُسْنَ سِيرَة، وَلا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً»[3].

وقد قدّم الإمام صورة إشراقية من أدبيات التعامل الوظيفي فيها جانب من علم النفس الوظيفي كان منها الآتي:

---

(١) العنف ضد الرفق.

(٢) نهج البلاغة (كتاب ٥٣).

(٣) نهج البلاغة: كتاب ٥١.

ـ «في الحالات التي تقتضي الشدّة وجه الإمام عليه السلام بأن تستخدم بلا عنف وبقدر من التوازن الذي يتطلبه الموقف وقد جاء ذلك في توجيه لأحد عماله: «فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْث مِنَ اللِّينِ، وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لاَ تُغْنِي عَنْكَ إِلاَّ الشِّدَّةُ، وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ، وَابْسِطْ لَـهُمْ وَجْهَكَ وَأَلِنْ لَـهُمْ جَانِبَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، وَالإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ»[1].

التحذير من المحسوبية والاستئثار بالمصالح الوظيفية نتيجة تقريب المسؤولين حاشيتهم ومن يختص بهم، وقد دعى عليه السلام لاجتثاث هذه الظاهرة المرضية والتي تعد احد عوامل الفساد النظمي:

«ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَاف [فِي مُعَامَلَة]، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لأَحَدٍ مِنْ حَاشِيتِكَ وَحَامَّتِكَ[2] قَطِيعةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ[3] عُقْدَة، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْب أو عَمَل مُشْتَرَك، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ[4] لَـهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

«وَأَلْزِمِ الْـحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ خَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَذلِكَ مَحْمُودَةٌ، وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً، فَأَصْحِرْ[5] لَـهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنكَ ظُنُونَهُمْ

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٦.

(٢) الخاصة والقرابة.

(٣) امتلاك ضيعة.

(٤) منفعته.

(٥) اظهر لهم.

بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ فِيه حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْـحَقِّ».

وأكّد الإمام عليه السلام في جملة من وصاياه على التزام العدل والمساواة بين الناس، وجاء في إحدى وصاياه لعمّاله في ذلك:

«فَإِنَّ الْوَالِيَ إذا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذلِكَ كَثِيراً مِنَ الْعَدْلِ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْـحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْـجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ، رَاجِياً ثَوَابَهُ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّة لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا قَطُّ فِيهَا سَاعَةً إِلاَّ كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَكَ عَنِ الْـحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً، وَمِنَ الْـحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالاْحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّة بِجُهْدِكَ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ».

وذكر ابن ابي الحديد في قوله عليه السلام : **«فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ»**: معناه أنّ الذي يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعية وحفظ نفسك من مظالمهم والحيف عليهم أفضل من الذي يصل بك من حراسة دمائهم أعراضهم وأموالهم ولا شبهة في ذلك؛ لإنّ إحدى المنفعتين دائمة والأُخرى منقطعة والنفع الدائم أفضل من المنقطع[1].

وبعد أن قدّم الإمام عليه السلام قائمة بقيم السلوك الوظيفي القويم، فإنّه قدّم النصيحة والتحذير لمن يتصدّى للمسؤولية العامة مما يكون من النتائج السلبية التي صحّ قيامها في بعض نظم الحكم وكانت سبباً لزعزعتها وتقويض أركانها،

---

(١) شرح نهج البلاغة (كتاب ٥٩).

أوردها الإمام عليه السلام بعبارة التحذير (إياك):

ـ «إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَ سَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَ اِنْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ اَلدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا وَاَللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْـحُكْمِ بَيْنَ اَلْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ اَلدِّمَاءِ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَ يُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ».

ـ «وَإِيَّاكَ وَاَلْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَاَلثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ اَلْإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ اَلشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ اَلْـمُحْسِنِينَ».

ـ «وَإِيَّاكَ وَالْـمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ أو اَلتَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أو أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ فَإِنَّ اَلْـمَنَّ يُبْطِلُ اَلْإِحْسَانَ وَاَلتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ اَلْـحَقِّ وَ اَلْـخُلْفَ يُوجِبُ اَلْـمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَاَلنَّاسِ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ»[1].

ـ «وَإِيَّاكَ وَاَلْعَجَلَةَ بِالأُمور قَبْلَ أَوَانِهَا أو اَلتَّسَاقُطَ اَلتَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا أو اَللَّجَاجَةَ فِيهَا إذا تَنَكَّرَتْ أو اَلْوَهْنَ عَنْهَا إذا اِسْتَوْضَحَتْ فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ وَ أَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ».

ـ «وَإِيَّاكَ وَالاِسْتِئْثَارَ بِمَا اَلنَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ وَاَلتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الأُمور، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ اِمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ وَسَوْرَةَ حَدِّكَ[2] وَسَطْوَةَ يَدِكَ وَغَرْبَ لِسَانِكَ»[3].

---

(١) الصف/ ٢.

(٢) بأسك.

(٣) حدة لسانك.

ـ «وَ اِحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ اَلْبَادِرَةِ[1]، وَ تَأْخِيرِ اَلسَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ اَلِاخْتِيَارَ وَ لَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ اَلْمَعَادِ إِلى رَبِّكَ»[2].

ويوافي الإمام عليه السلام الإنسانية بحكمة بالغة خلصت إليها شواهد الحكم على فترات العهود في التاريخ السياسي للعالم، هي البعض من حكمة الله في خلقه، اذ يتمكن البعض من نواصي الحكم، فيكون لهم من انتفاع الناس فيهم ما يديم بقاءهم في الحكم أو ينتزع منهم حين يتعالون على ارادة الناس، ما عبر عنه قول الإمام علي عليه السلام:

«إِنَّ لله عِبَاداً يَخْتَصُّهُمُ الله بِالنِّعَمِ لِـمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا فإذا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَـهَا إلى غَيْرِهِمْ»[3].

كذلك فان الإمام عليه السلام قد نوّه بالمعضلة القائمة في العالم ما يكون منها من جور الحكام وعسفهم وما ينتج عنها من مشاهد القتل والترويع ما سبق للإمام عليه السلام التحذير منه:

«وَاحْذَرِ الْعَسْفَ وَالْـحَيْفَ فَإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بِالْـجَلَاءِ[4]، وَالْـحَيْفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ»[5].

---

(١) ما يبرر من اللسان عند الغضب.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

(٣) نهج البلاغة: حكمة ٢٩.

(٤) التفرق والتشتت.

(٥) نهج البلاغة (كلمة / ٣٤).

٢ ـ القضاء:

أشاد الإمام عليه السلام بدور القضاء في «استقامة العدل في المعاقد»[١]، وقد حدّد في عهده لواليه مالك الأشتر مواصفات من يتولّى القضاء: «**ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الأُمور وَلَا تُمَحِّكُهُ[٢] الْـخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ[٣] إِلَى الْـحَقِّ إذا عَرَفَهُ وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْـخَصْمِ وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمور وَأَصْرَمَهُمْ[٤] عِنْدَ اتِّضَاحِ الْـحُكْمِ مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ**»[٥].

ووجه الإمام عليه السلام بأن يوسّع في العطاء للقضاة ومنحهم المنزلة التي يستحقونها ليؤمن جانبهم في العدل:

«**ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلى النَّاسِ وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ**»[٦].

ويقول الحاكم توفيق الفكيكي بصدد النص المذكور: انه يفيد زيادة الأفضلية التي يجب أن يختار القاضي أو الحاكم من بين الحائزين عليها، والمتصفين بها من أفراد الرعية المثقفين الأفاضل، وكأن الإمام عليه السلام بعد أن

---

(١) العقود في البيع والشراء وما شابهها.

(٢) يجعله ما حقا لجوجا في الخصومة.

(٣) يعيا في المنطق من الرجوع إلى الحق.

(٤) امضاهم.

(٥) نهج البلاغة (الكتاب/ ٥٣).

(٦) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

أوجب على عامله أن ينتخب للقضاء أفضل رعيته علماً وتهذيباً أراد أن يلفت نظره إلى جهة مهمة هي فوق العلم والثقافة الواسعة، وهي خاصية نفسية بحتة، وانّ كلمته عليه السلام: (أوقفهم في الشبهات) تكشف بوضوح عن مقصده الشريف، فهو قد اشترط أن يكون القاضي أو الحاكم زيادة على ما هو عليه من الفضل ـ من ذوي النفوس الحساسة والذكاء المتقد والنباهة الشديدة، الذين يبدّدون بنور اليقين ظلمات الشك وغياهب الشبهات لئلا يلتبس عليهم الأمر فيلبسون الحق بالباطل وهم لا يشعرون، وذلك لأنّ الشبهات هي ما لا يتضح الحكم فيها بالنص، فينبغي الوقوف عند القضاء إذا استبهم وجود الحل حتّى يرد الحادثة إلى أصل صحيح، وقد تعترض الحكام هذه الشبهات في القضايا الجزائية أكثر منها في القضايا الحقوقية، ولهذا وضع علماء الجزاء في القرن الأخير (العشرين) ـ قاعدة ذات أهمية كبرى حتى أصبحت مثلاً سائراً وهي: «انّ براءة ألف مجرم خير من تجريم بريء واحد»، وقد أرادوا بهذه القاعدة تنبيه الحكام وإيقاظهم على أن يحذروا الشبهات التي قد تدفعهم إلى انزال الحد والعقاب بحق الأبرياء من جراء ما يحصل في التحقيق من تضليل، أو ما يسببه شهود الإثبات أو الدفاع من تلفيق وتضييع إلى ما هنالك من شبهات مريبة وأضاليل ورحمة بأمثال هؤلاء الأبرياء، قال صلى الله عليه وآله «ادرؤوا الحدود بالشبهات»، وقد سار علماء الجزاء كافة، والمشرعون للقوانين العقابية على هذا الأساس فوضعوا قاعدة عامة ومتبعة وهي: (إن حصل شكّ في مفهوم مواد القانون الجنائي فيجب تفسيرها وتأويلها لصالح المتهم).

ولهذا الغرض أوصى عليه السلام عامله الأشتر أن يختار قضاته من أفضل رعيته ومن أوقفهم على الشبهات وأخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وانّه إذا تيسّر له كلّ ذلك وقام بتمحيص القضايا وتخلّص من ريب الشبهات

فيجب عليه أن يكون صارماً ماضياً في تقرير العدل وإيصال الحق إلى ذويه. وذلك ما يحتمه الواجب المقدس وحده، وأن لا يستخفّه في أداء واجبه زيادة الثناء والاطراء عليه، أو يشتبه في تطبيق الشريعة ونصوص القانون، كما جاء في عهد الإمام عليه السلام، وانّه علم ان قليلاً من الناس من يتّصف بهذه الخلال الحميدة والصفات الكريمة ولذا قال: «وأولئك قليل»، وأراد بذلك أن ينبّه عامله على أن لا يتسرّع في انتخاب القضاة، بل عليه أن ينظر في ذلك نظراً بليغاً لما للقضاء من أهمية عظمى في تقويم كيان المجتمع... وقد أخذت حكومات العالم في هذا العصر بهذه النظرية الحكيمة فوضعت نظاماً للتفتيش العدلي، وهذا يدلّ على أنّ أميرالمؤمنين علياً عليه السلام قد وضع دستوراً من أرقى الدساتير الحديثة لتنظيم مملكته في ذلك العصر، والذي ينظر إلى الجملة التي تلي الجملة المتقدّمة يجد أنه عليه السلام قد أوصى عامله بأهمّ ناحية من نواحي إصلاح القضاء وترقيته، وذلك بترفيه حال الحاكم وتأمين رغد العيش له بأن يفرض له العطاء الواسع حتى يكون ما يأخذه كافياً لمعيشة مثله وحفظ منزلته وليملأ الراتب الكافي علته ويتعفّف به عن المرافق والرشوات، وفي سبيل هذه الفكرة الإصلاحية طلب عليه السلام إلى عامله «**وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقلل معه حاجته إلى الناس**»، وقد مشت أكثر الحكومات في الشرق والغرب على هذه القاعدة في إصلاح المحاكم والحكام وأحسن مثال يضرب في هذا الباب وضع القضاة في انكلترا وما لهم من الضمانات الكاملة لاستقلال القضاء التام، ويذكر في ذلك ان ليس في الحكومة الانجليزية وظيفة تعادل في مركزها ومرتبها مركز القاضي في المحكمة العليا، وهو يعادل راتب رئيس الوزراء، لكي تكفل لصاحبها الاستقلال التام، وهو غير قابل للعزل لسبب ما، ولو لمرض أو شيخوخة، إلا بناءً على قرار من مجلس البرلمان، ويتلوه منصب قاضي محكمة مديرية أو قاضي جزاء، فكلاهما يعيّن

براتب ثابت وهو مثل وكيل وزارة[1].

وقال العشماوي ـ أُستاذ القانون الدستوري بكلية حقوق القاهرة ـ عن كلام الإمام علي عليه السلام للاشتر بشأن القضاة: «إنَّهُ لَمْ يرد كلاماً غيرهُ وفي أيّ دستور منِ دساتير العالم يفصّل مهمة القضاة وطُرق اختيارهم مثل ما فعل»[2].

وقد أُشير إلى إن الإمام علي عليه السلام كان أسبق القضاة إلى إقرار مبدأ الحق العام مراعاة لفكرة العدل بين الناس بدون نظر إلى موقف الجانبين المتخاصمين ما يتحقّق منه احترام النظام العام، وذكر في ذلك انّه عليه السلام قد سمع في إحدى الليالي صوتاً يستغيث يدعو من يجيره، فهرع إليه بنفسه مسرعاً يقول: «قد أتاك الغوث والفرج، ومالبث عليه السلام أن رأى رجلاً يمسك برجل، ولما أقبل عليه أميرالمؤمنين خلاه فقال: يا أميرالمؤمنين لقد بعت هذا الرجل ثوباً بتسعة دراهم فأعطاني دراهم على غير الشرط، ولما طلبت منه غيرها شتمني ولطمني لطماً موجعاً، فقال علىعليه السلام للمشتري: أبدلها له، وطلب من المدّعي بيّنة على اللطمة فجاءه بها، فقال للمضروب: إقتصّ منه، فقال: لقد عفوت عنه، فقال عليه السلام : لك ذلك، ولكن بقيّ عليه الحق العام، ومقتضاه أن يعاقب وينال جزاءه ليكون عبرة لكلّ من يفكر في الاعتداء على الناس ويعبث بحقوقهم وكرامتهم، ولا يحترم النظام، وبما انّه هو المسؤول عن حماية المجتمع من الفوضى والفساد. فأمسك بالضارب على مشهد من المضروب ولطمه بيده تسع مرات وقال: «هذا حق السلطان»[3].

---

(١) الراعي والرعية، ص٨٠ ـ ٨٢.

(٢) الاغراض الاجتماعية في نهج البلاغة، تمهيد: المعجم المفهرس لالفاظ نهج البلاغة.

(٣) سيرة الائمة الاثنى عشر: ١/ ٢٨٧.

والحق أنّ الإمام علي عليه السلام قد عرف بحرصه البالغ والشديد على إقامة الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وقد روى في ذلك عن سودة بنت عمارة الهمدانية قولها لمعاوية انّها قد جاءت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في رجل كان قد ولاه صدقاتنا، فجار علينا، فصادفته قائماً يصلي، فلما رآني انفتل من صلاته ثم أقبل عليّ برحمة ورفق ورأفة، وتعطّف، وقال: «**ألك حاجة؟ قلت: نعم، فأخبرته الخبر، فبكى ثم قال: اللهم أنت الشاهد عليّ وعليهم، واني لم آمرهم بظلم خلقك**»، ثم أخرج قطعة جلد فكتب فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1] فإذا قرات كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك من عملنا حتّى يقدم عليكم من يقبضه منك، والسلام»، ثم دفع الرقعة إلي.. فجئت بالرقعة إلى صاحبه فانصرف عنها معزولاً.

وبلغ من عدل الإمام عليه السلام أنّه كان يقاضي أعوانه وولاته من أجل رغيف يأكلونه في رشوة، أو من صدقة، ثمّ يهدّد ويتوعّد ويقول في رسائله التي كان يوزعها على الولاة:

«**أُقْسِمُ بِالله قَسَماً صَادِقاً لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ اَلْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أو كَبِيراً لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ اَلْوَفْرِ ثَقِيلَ اَلظَّهْرِ ضَئِيلَ الأمر**»[2]!

وخاطب والياً من ولاته بقوله: «**بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ اَلْأَرض فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ وَ أَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ**»[3]...

---

(١) الأعراف: ٨٥.

(٢) الإمام علي من المهد إلى اللحد: ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) نهج البلاغة: كتاب ٢٠.

وتلك وغيرها من صور ومشاهد العدل مما لا نظير له، كان فيها الإمام يقف مع الناس في ذلك ومع نفسه ذات الموقف الحازم والصارم في الحق، لا يساوم فيه ولا يماري، مواقف نادرة لرجل نادر في موقف الحق والعدل.

٣ ـ الجانب الاقتصادي:

وتضمن العهد العلوي المجالات الحيوية والأساسية من النشاط الاقتصادي وبضمنها موارد الدخل العام ووسائل تنميتها وتوجيهها للمنفعة العامة، واشتمل ذلك تحديد فئات العمل في النشاط الاقتصادي وترابطها في نظام المصلحة العامة إذ «لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض»[1].

وسنتناول في هذا الجانب مدخلي النشاط الاقتصادي على عهد الإمام علي عليه السلام فيما يتصل بموارد الدخل العام، وفئات النشاط الاقتصادي كما جاء ذكرها في العهد المذكور، ويتضمن ذلك الخراج والصدقات، وفعاليات النشاط الاقتصادي ممثلة بالزراعة، والتجارة والصناعة، وقطاع العمل العام.

أولاً: الموارد العامة:

أ. الخراج:

يعدّ الخراج المورد المالي الرئيس للدولة، وهو يختصّ بما يخرج من غلّة الأرض أو المال، ويبدو انّ الحياة الاقتصادية للشعب كانت تعتمد اعتماداً أساسياً

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

على الخراج «**لأنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْـخَرَاجِ وَأَهْلِهِ**»، وانّ نفقات الجيش كانت تعتمد بشكل أساس على هذا المورد: «**ثُمَّ لا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَـهُمْ مِنَ الْـخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ فِي جِهَادِ عَدُوِهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا أَصْلَحهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ**»[1].

وقد وجّه الإمام عليه السلام لاعتماد العامل الاعتباري في الخراج والذي كان يتجاوز في تقديره العامل المادي، وإن ما يصح عنده من «**وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأرض أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلاَبِ الْـخَرَاجِ، لأَنَّ ذلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بَالْعِمَارَةِ**»، وقد أردف عليه السلام في ذلك: «**ان مَنْ طَلَبَ الْـخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة، أَخْرَبَ الْبِلاَدَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً**».

وقد أوصى الإمام عليه السلام بعدم تحميل الناس أعباء الضريبة فيما لا يحتملون حين تتعرّض محاصيلهم أو أحوالهم للضرر معتداً بالعائد الاعتباري وما يكون من تعويض لذلك في اللاحق من تواصلهم مع الدولة.

«**فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أو عِلَّةً[2]، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْب أو بَالَّة[3]، أَوْ إِحَالَةَ أرض اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أو أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِما تَرْجُو أَنْ يصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْـمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلاَيَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ[4] لَـهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا**

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

(٢) المقصود أو ما نزلت من علة بالزرع والتمر.

(٣) الندى أو المطر.

(٤) الترفيه والاراحة.

عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمور مَا إذا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأرض مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا»(١).

وقد نوّه عليه السلام بما يكون مما صحّ فيه التعويل على الناس في العمران بما يحتملونه من طيبة أنفسهم في ذلك مما لم يدركه الحكام الجناة الظلمة بسوء ظنهم بشعوبهم مما لا تحمد عقباه ومما لا تنفعهم فيه العبر:

«وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأرض مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، إِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لأشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْـجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ»(٢).

وقد نوّه بن خلدون بما قد ذكر من أمر الجباية بقوله: «إنّ ما يدخلُ على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الأرباح ما يقبض آمالهم من السعي في ذلك جملةً، ويؤدي إلى فساد الجباية، فان معظم الجباية إنّما هي للفلاحين والتجار، لاسيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها، فإذا انقبض الفلاحون من الفلاحة وقعد التجار عن التجارةِ ذهبت الجباية جملة، أو دخلها النقص المتفاحش، وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية اقل من القليل، ثم انّه لو كان مفيد، فيذهب له بحظ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء أو بيع... ثم فيه التعوض لأهلِ عمرانِه، واختلال الدولة بفسادهم ونقصهم، فإنّ الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات، وكان فيها تلاف بأحوالهم، فافهم ذلك، واعلم انّ السلطان لا ينمي ماله ولا يدر موجوده إلاّ بالجباية وإدرارها إنّما يكون

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

(٢) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

بالعدل في أهل الأموال، والنظر إليهم بذلك، فبذلك تنبسط آمالهم، وتنشرح صدورهم للأخذ في تثمير الأموال وتنميتها، فتعظم منها جباية السلطان»[1].

وفي المقارنة بين علم المال الحديث ومنظور الإمام علي عليه السلام في تأكيده على إصلاح أمر الخراج أُشير إلى قاعدتين ذكرهما علماء علم أصول الأموال:

الأُولى: (اتخاذ التكاليف وسيلة لإصلاح الفاسد)، وانّ هذه القاعدة كانت مثار نزاع طويل بين علماء المالية أصحاب المذاهب الاجتماعية والسياسية حول قضية استعمال التكاليف في حل المشاكل الاجتماعية مثل توزيع الثروة وتعديل النسبة بين طبقات الشعب ونجدة الصناع بحماية مصنوعاتهم، وتثبيط العادات المضرة، وفيما قال فريق انّه لا يوافق الحكومة بأن تجعل الضرائب وسيلة لإصلاح البشر ولتقويم المعوج من أحوالهم الاجتماعية لأنها إن تعمدت ذلك تخرج عن مقصدها الأصلي في طرح الضرائب وجبايتها وهو تلافي المال اللازم لنفقاتها المبرمة، فإذا تخلى الشارع المالي عن هدفه الذي هو جمع المال وحول اهتمامه إلى الاصلاحات الاجتماعية والأخلاقية تنقلب التكاليف إلى عوامل اقتصادية ومدارس أخلاقية ويفقد الناظم الحسابي الدخل والخرج، ويقول الفريق الآخر انّ الدولة بما لها من حقّ السيطرة على معايش الأمّة وانتظام أحوالها الاجتماعية هي جديرة بان تنظر عاقبة عمل تاتيه وما ينجم عنه من الخير والشر في إصلاح البلاد أو فسادها، ولما كانت الضرائب أكبر عامل مؤثر في حالات الأُمّة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فلا يليق بالدولة أن تضيع الفرصة وتهمل الاستفادة من هذا العامل لتبلغ الخير الذي تتوخاه الضرائب وهو سلاح بيد الدولة تستطيع ان تقابل به الفساد وترفع شأن البلاد.

---

(١) المقدمة: ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

الثانية: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك لاستجلاب الخراج؛ لأنّ ذلك لا يدرك إلا بالعمارة) فإنّ هذه القاعدة عرفت عند علماء أُصول علم المال بقاعدة (ليس للخراج أن يعرقل الانتاج)، ومعناها أن تضع ضريبة تحول دون السعي والانتاج وتنقص ثمرات المساعي الشعبية بتخريب وإهمال الأراضي الزراعية، وقاعدة (الإنفاق العام منوط بالمصلحة العامة) فمعناها انّه لا يصح أن ينفق من أموال الدولة شيء في غير المصالح العامة ذات المنافع المشتركة، ويتفرّع عنه امتناع العطاء بدون عمل مقابل داخل في الخدمات العمومية أو الانفاق لمنفعة قوم دون آخرين[1]، وقد مرّ بنا قول ابن خلدون بصدد ذلك.

وللأهمية الاعتبارية للقاعدة المالية مارة الذكر فإنّ التقرير الدولي الصادر عن الأمم المتحدة عن «البرنامج الانمائي الخاص بحقوق الإنسان وتحسين البيئة والمعيشة والتعليم UNDP» قد استعار نصاً للإمام علي عليه السلام فيما يتعلّق بفرض الضرائب واستصلاح الأراضي، وضرورة التنمية، ومحاربة الفقر[2].

وقد أولى الإمام عليه السلام عناية خاصة بمتابعة الولاة فيما يختص بالخراج وما يتّصل بالشؤون المالية، وكانت تعليماته في ذلك واضحة ودقيقة ما تحفل به رسائله للولاة والجباة.

ب. الصدقات:

والصدقة كما ذكر: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة،

---

(١) الراعي والرعية: ٢٩٤ ـ ٢٩٧ نقلا عن الموجز في علم المالية، فارس الخوري: ١٧١.

(٢) الكراس عن ندوة عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر (رض): ١٣.

ولكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به والزكاة للواجب، وقد يسمّى الواجب صدقة إذا تحرّى صاحبها الصدق في فعله، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[1]، ويقال لما تجافى عنه الإنسان حقّه تصدق به نحو قوله تعالى ﴿وَالْـجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾[2]، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3]، فإنّه أجرى ما يسامح به المعسر مجرى الصدقة، وعلى هذا ما ورد عن النبي ﷺ: «ما تأكله العافية فهو صدقة»، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾[4]، فسمي إعفاءه صدقة، وقوله تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾[5]، فإنّهم أُمروا بأن يتصدق من يناجي الرسول لصدقة ما غير مقدرة، وقوله تعالى ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[6]، فمن الصدق أو من الصدقة)[7].

وإنّ في استحقاقات الصدقة كما ترد في النص القرآني: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْـمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْـمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ...﴾[8] ما يدلّ على سعتها وشمولها لفئات

(١) التوبة: ١٠٣.
(٢) المائدة: ٤٥.
(٣) البقرة: ٢٠٨.
(٤) النساء، ٩٢.
(٥) المجادلة: ١٢ ـ ١٣.
(٦) المنافقون: ١٠.
(٧) المفردات من غريب القرآن: ٢٨٢.
(٨) التوبة: ٦٠.

كثيرة من المجتمع، وقد حظيت وظيفتها باهتمام خاص وبالغ الأهمية من الإمام عليه السلام وقد عيّن لها أشخاصاً ذوي مؤهلات ومزايا خاصة ومعتبرة، وقد حفلت تعليماته ووصاياه للقائمين على أمر الصدقات بأدبيات التعامل في تحصيل عوائدها تعتبر الأوفى مما عرفته التعليمات المالية في الجباية وأكثرها صرامة وحرصا على صيانة الحقوق الشخصية والعوائد المالية وصرفها على موارد الاستحقاق، وقد وردت في وصيته عليه السلام إلى بعض عماله على الصدقة مجموعة من الاعتبارات المبدئية لمن يعهد إليهم بهذه المهمة:

١ ـ «**لاَ تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً غَيْرَ مُعْنِفٍ وَ لا مُجْحِفٍ وَ لا مُلْغِبٍ وَ لا مُتْعِبٍ**».

٢ ـ «**وَلا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ رَافِقاً بِمَالِ اَلْـمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إلى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ**».

٣ ـ «**وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ عَلاَنِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ**».

منوّهاً عليه السلام بأنّ من يتّصف من العاملين على الصدقات بما قد ذكر بأنه: «**قَدْ أَدّى الأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ**»(١).

وانّ الأساليب المعتمدة في استحصال الصدقات ـ وهي الضريبة الاعتبارية العامة ـ وعلى وفق ما ورد بتعليمات الإمام المبلغة إلى عمال الصدقات هي الأرقى في أساليبها ووسائلها، والتي تتعدّى مجال التعامل مع الإنسان إلى التعامل مع الحيوان أيضاً بالرفق، مما لم ليس له مثيل في النظم المعاصرة، وفيها ما يدخل من مجال الطب البيطري، وقد اشتملت تعليمات الإمام عليه السلام والمبلغة لولاته على الصدقات في ذلك على الآتي:

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٢٦.

١ ـ اتباع الأسلوب اللائق والمهذّب عند القدوم على الحي الذي يراد استحصال الصدقات فيه:

«فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى اَلْـحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ثُمَّ اِمْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَ اَلْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُخْدِجْ[١] بِالتَّحِيَّةِ لَـهُمْ ثُمَّ تَقُولَ عِبَادَ الله أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ الله وَ خَلِيفَتُهُ لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ الله فِي أَمْوَالِكُمْ فَهَلْ لَكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلى وَلِيِّهِ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ لاَ فَلاَ تُرَاجِعْهُ وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ[٢] فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أو تُوعِدَهُ أو تَعْسِفَهُ[٣] أَوْ تُرْهِقَهُ».

٢ ـ «خُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أو إِبِلٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فإذا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلاَ عَنِيفٍ بِهِ وَلاَ تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلاَ تُفْزِعَنَّهَا وَ لاَ تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا وَاِصْدَعِ اَلْـمَالَ صَدْعَيْنِ[٤]، ثُمَّ خَيِّرْهُ فإذا اِخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا اِخْتَارَهُ ثُمَّ اِصْدَعِ اَلْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ فإذا اِخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِـمَا اِخْتَارَهُ فَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ الله فِي مَالِهِ فَاقْبِضْ حَقَّ الله مِنْهُ فَإِنِ اِسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ[٥]، ثُمَّ اِخْلِطْهُمَا ثُمَّ اِصْنَعْ مِثْلَ اَلَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ الله فِي مَالِهِ».

٣ ـ «وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً[٦] وَ لاَ هَرِمَةً[٧]، وَ لاَ مَكْسُورَةً ...

---

(١) لا تبخل بالتحية.

(٢) أي قال: نعم.

(٣) تأخذه بشدة.

(٤) قسمين.

(٥) خيّره في الأشياء.

(٦) المسنة من الإبل.

(٧) الأسن من الإبل.

وَ لاَ مَهْلُوسَةً[1]، وَلاَ ذَاتَ عَوَار»[2].

٤ ـ «ثُمَّ اُحْدُرْ إِلَيْنَا مَا اِجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ الله فإذا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إليه أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَ بَيْنَ فَصِيلِهَا[3]، وَلا يَمْصُرَ لَبَنَهَا[4] فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا، وَ لاَ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً وَ لْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَ بَيْنَهَا وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اَللاَّغِبِ[5]، وَلْيَسْتَأْنِ[6] بِالنَّقِبِ[7]، وَاَلظَّالِعِ[8]، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ اَلْغُدُرِ[9]، وَلاَ يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ اَلْأَرض إلى جَوَادِّ اَلطَّرِيْقِ[10]، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي اَلسَّاعَاتِ وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ اَلنِّطَافِ[11] وَاَلْأَعْشَابِ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ الله بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ[12] غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلاَ مَجْهُودَاتٍ لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ الله وَ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ص فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ وَ أَقْرَبُ لِرُشْدِكَ»[13].

وفي كتاب آخر لأحد عمّاله بعثه على الصدقة وردت فيه التعليمات التالية:

---

(١) الضعيفة.

(٢) ذات عيب.

(٣) فصيل الناقة ولدها وهو رضيع.

(٤) يحلب لبنها.

(٥) المعيا، المتعب منها.

(٦) يرفق بها.

(٧) ما تخرق خفه منها.

(٨) الضعيف في مشيته.

(٩) جمع غدير، وهو ما غادره السيل من المياه.

(١٠) الطرق التي لا مرعى فيها.

(١١) المياه القليلة.

(١٢) سمينة.

(١٣) نهج البلاغة: الكتاب ٢٥.

«**أَلاَّ يَجْبَهَهُمْ**[1]، **وَلاَ يَعْضَهَهُمْ**[2]، **وَلاَ يَرْغَبَ عَنْهُمْ**[3] **تَفَضُّلاً بِالامَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الاخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالأعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْـحُقُوقِ**».

منوهاً عليه السلام، بأنّ لجباة الصدقة «نصيباً مفروضاً، وحقاً معلوماً وانّه عليه السلام سيوفيهم حقهم، بل وفوق حقوقهم في ذلك، مع تحذيرهم من القصور في أداء واجبهم والخيانة فيه بما سيكون لهم من سوء العاقبة في الآخرة:

«**وَإِلاَّ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْساً لِـمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ الْفُقَرَاءُ وَالْـمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْـمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُ وَابْنُ السَّبِيلِ**».

وما يكون لهم من ذلك في الدنيا والآخرة معاً:

«**وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهَ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا الْخِزْيَ وَهُوَ فِي الاْخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى**».

منوهاً عليه السلام بأنّه: «**أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأئِمَّةِ**»[4].

وفي كتاب آخر للإمام عليه السلام إلى عماله على الخراج أعاد التأكيد على التعامل المنصف، والصبر على حوائج الناس، مع جملة اعتبارات أُخرى تختص بمجال عملهم:

«**فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ، وَوُكَلاَءُ الأُمَّةِ، وَسُفَرَاءُ الأئِمَّةِ**».

---

(١) يواجههم بما يكرهون.

(٢) يحيرهم.

(٣) يتجافاهم.

(٤) نهج البلاغة (الكتاب/ ٢٦).

«وَلاَ تَحْسِمُوا[1] أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ، وَلاَتَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ، وَلاَ تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْـخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاء وَلاَ صَيْف، وَلاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا[2]، وَلاَ عَبداً، وَلا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِـمَكَانِ دِرْهَم، وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَد مِنَ النَّاسِ، مُصَلٍّ وَلا مُعَاهَد[3] إِلاَّ أَنْ تَجِدُوا فرَساً أو سِلاَحاً يُعْدى بِهِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلام».

«وَلاَ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً، وَلاَ الْـجُنْدَ حُسْنَ سِيرَة، وَلاَ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً، وَلاَ دِينَ الله قُوَّةً، وَأَبْلُوا فِي سَبيلِ الله مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا»[4].

وخلاصة الأمر فإنّ الإمام عليه السلام قد استقصى كلّ المقاصد التي تؤمن سلامة الجباية للمال العام وبالاساليب الخلقية الرفيعة، وتامين صرفها لمستحقيها بالعدل، وان يصرف ما يجتمع لدى الولاة من ذلك على مستحقيها وقد ورد في كتابه إلى قثم بن العباس عامله على مكة:

«وَانْظُرْ إِلى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ الله فَاصْرِفْهُ إِلى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْـمَجَاعَةِ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخُلاَّتِ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا»[5].

وفي مبادرة هي الفريدة من نوعها ما امر به الإمام عليه السلام عامله على مكة بان يستثني اهل مكة من غير ساكنيها وبضمنهم الحجاج من اجور السكن فيها

---

(١) لا تقطعوا.

(٢) تلزمهم لأعمالهم.

(٣) المصلي المسلم، والمعاهد غير المسلم.

(٤) نهج البلاغة (كتاب ٥١).

(٥) نهج البلاغة: كتاب ٦٧.

مسندا ذلك إلى نص القرآن الكريم:

«**وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلاَّ يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾**»[1]، فَالْعَاكِفُ: **الْـمُقِيمُ بِهِ، وَالْبَادِي: الَّذِي يَحُجُّ إليه مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ**»[2].

ولا تظن انّ وثيقة أو عهد من عهود حقوق الإنسان، والكائنات الطبيعية قد تضمن مثل تلك القيم الاعتبارية كمثل ما نصّت عليه تلك الوثائق الجليلة القدر والتي تعبر عن كونها وثائق للعهد الرسالي الإنساني في كل القيم السماوية والإنسانية مجتمعة.

ج. التجارة والصناعة:

نوه الإمام عليه السلام بطبقة التجار وذوي الصناعات إذ «**لاقَوامَ لِكُلِّ المرافق، فيما يَجْتمعونَ عَليهِ مِنْ مَرافِقهم، وَيقِيمونَ مِنْ أسواقِهِم، ويكفونهم مِنْ التَرفُق[3] بأيديهِم مِما لَمْ يَبلغُه رِفق غَيرهُم**».

وقد وجه عليه السلام في مجال البيع بان يكون: «**وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْل، وَأَسْعَار لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْـمُبْتَاعِ**».

وبالنسبة لسعر البيع فان من الواضح فقها ـ وكما أفاد السيد محمّد باقر الصدر: انّ البائع يباح له البيع باي سعر أحبّ ولا تمنع الشريعة منعاً عاماً عن بيع المالك للسلعة بسعر مجحف، فأمر الإمام بتحديد السعر، ومنع التجاوز من

---

(١) الحج: ٢٥.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٦٧.

(٣) التكسب.

البيع بثمن أكبر صادر منه بوصفه ولي الأمر، فهو استعمال لصلاحياته في ملء منطقة الفراغ وفقا لمقتضيات العدالة الاجتماعية التي يتبنّاها الإسلام[1].

وقد وجه الإمام عليه السلام بالتصرف الاقتصادي بالمال وحسب الضرورات وأن يؤمن من الاحتياطي منه لوقت الحاجة وجاء في ذلك قوله:

«فَدَعِ الإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْـمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ»[2].

وانّه عليه السلام قد وجه لمنع الاحتكار والذي أشار فيه إلى تحكم رأس مال المستغل وبغير إنصاف بالأسعار بما يضرّ بمصالح الناس، وقد شدّد على البيع منه، ووجه عامله مالك الأشتر بالمعاقبة عليه:

«وَاعْلَمْ ـ مَعَ ذلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً، وَشُحّاً قَبِيحاً، وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ، فَامْنَعْ مِنَ الاْحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ الله (صلى الله عليه وآله) مَنَعَ مِنْهُ.

وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً: بِمَوَازِينِ عَدْلٍ، وَأَسْعَارٍ لاَ تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْـمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ»[3].

ويشار إلى ان النظام الاقتصادي الحاضر يقرّر بذلك التدخّل لمنع الاحتكار كما أوصى به الإمام عليه السلام، وانّ أساليب هذا التدخّل قد تمثّلت في مظهرين، أولهما: وضع التشريع لتحديد نطاق المنافسة دفعاً للعواقب السيئة التي قد تترتّب على التمادي فيها، وثانيهما: إنشاء لجان تشبه المحاكم تتولّى الإشراف

---

(١) اقتصادنا: ٧٢٨.

(٢) نهج البلاغة: كتاب ٢١.

(٣) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

على الصناعة والتجارة وتشترك في إدارتها الدولة ممثلة للصالح العام، وتبعاً لذلك فإنّ أنصار مبدأ الحماية قاوموا أصحاب مبدأ حرية التجارة، ويكون الحكومة أدرى بتقدير الصالح العام من الأفراد، وانّ واجبها هو حماية الصالح العام لتكفّل به الصالح الخاص، وانّ الإمام علي عليه السلام كما يذكر قد أخذ بالمبدئين معاً، فهو قد أوصى بمبدأ حرية التجارة، وحماية جانب التجار وذوي الصناعات، وقد ألزم عامله الاشتر الضرب على أيدي الأفراد المستأثرين المحتكرين رحمة بالفقراء من عامة الأمّة، وهذا هو المذهب الاقتصادي الذي ارتكز عليه النظام الاقتصادي الحاضر(١).

ولتنزيه العمل التجاري من الربا فإنّ الإمام عليه السلام أفاد بأن يكون للتاجر ما يقتضي من المعرفة بالأحكام الشرعية (الفقه)؛ ليأمن ذلك وفي ذلك قوله:

«مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ اِرْتَطَمَ فِي اَلرِّبَا»(٢).

وجاء في الشرح: إنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ مسائل الربا مشتبهة بمسائل البيع، ولا يفرق بينهما إلّا الفقيه، حتى انّ العظماء من الفقهاء قد اشتبه عليهم الأمر فيها، فاختلفوا فيها أشدّ اختلاف، كبيع لحم البقر بالغنم متفاضلاً، هل يجوز أم لا؟، وكذلك لبن البقر بلبن الغنم، وجلود البقر بجلود الغنم، فقال أبو حنيفة: اللحوم والألبان والجلود أجناس مختلفة، فيجوز بيع بعضها ببعض متفاضلاً، نظراً إلى انّ أُصولها أجناس مختلفة، والشافعي لا يجيز ذلك ويقول: هو ربا، وكذلك القول في مدعي عجوة، ودرهم بمدّ عجوة، وكذلك بيع الرطب بالتمر متساوياً كيلاً، كل ذلك يقول الشافعي: انّه ربا، وأبو حنيفة يخرجه عن

---

(١) الراعي والرعية: ٣٣٥ ـ ٣٣٧.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٣٢.

كونه ربا، ومسائل هذا الباب كثيرة[1].

وقد مارس الإمام عليه السلام وظيفة الرقابة التجارية، فكان يسير في الأسواق وفي يده الدرة، ويقول للتجار: «**خُذوا الحقَّ وأعطوا الحق تسلموا**» وكان يمشي وحده في الأسواق، ويأمر الناس بتقوى الله، وحسن البيع، ويقول: «**أوفوا الكَيْلَ والميْزان وَلا تَنْفُخُوا اَللحمَ**» ويخرج عليه السلام إلى سوق الإبل يتوسّطه ويرفع صوته قائلاً: «**يا مَعشْر التجار إياكُمْ واليَمين الفاجِرة، فإنها تَنفق السِلعة وتَمحُق البَركة**»[2].

وفي اقتصاد العمل قدّم الإمام عليه السلام قائمةً بقواعد ذهبية لاستثمار العوائد العقلية والمالية، والوقت المتاح للإنسان مع ما يمكن من المكافئة الاعتبارية والمادية لتحقيق العوائد الأكبر من صوافي المدخلات.

«**رَأْيُكَ لا يَتَسِعُ لِكُلِّ شَيءٍ، فَفرِّغهُ للمُهِمْ مِنْ أُمورِكْ، وَمالك لا يُغْني النْاسَ كُلُهمْ فَخَصِّص بِه أَهلَ الـحَقِ، وَكرامَتكَ لا تُطيقُ بَذلـَها فِي الغايَة، فَتوَخى بِها أهلَ الفَضلِ وَليلكَ وَنَهارَكَ لا يَستوعِبانِ حَوائِجِكَ فأحسِن القِسمةَ بَينَ عَملِكَ ودعتك**»[3].

«**أطبَع الطينَ ما دامَ رَطِباً، وأغرِس العودَ ما دامَ لدناً**»[4].

«**إذا قَصُرتْ يَدُكَ عَن الْـمُكافئة، فَليُطِل لِسانَك بِالشُّكر**»[5].

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٩٩.

(٢) موسوعة سيرة أهل البيت عليهم السلام: ٨/ ٤٨.

(٣) نهج البلاغة: حكمة ٦٠١.

(٤) نهج البلاغة: حكمة ٦١٥.

(٥) نهج البلاغة: حكمة ٦٠٨.

وفي مجال الزراعة:

اتخذ الإمام عليه السلام إجراءاً هامّاً بشأن التوطين الزراعي، ونقل عن الطبري في ذلك: انّ عليّاً عليه السلام خرج في اليوم الثالث على الناس فقال: «**أيّها الناس اخرجوا عنكم الأعراب**»، وقال للأعراب: «**الحقوا بمياهكم**»[1].

وفي ذلك الإجراء التدبيري الهام ابتغى الإمام عليه السلام الفصل بين حياة المدينة وحياة البادية، وتمكين أهلها النازحين منها من أداء وظيفتهم في الزراعة والرعي والتي يقصرون في أدائها وهم في المدينة.

والواضح من مجمل طروحات الإمام علي عليه السلام وإجراءاته في المجال الاقتصادي منها بشكل خاص، انّه قد صحّح النظرة القاتمة عن التجارة والتي أشار إليها بعض دارسي الإدارة بكونها كانت تعدّ عند المفكرين والساسة من قبل وظيفة أو مهنة غير جديرة بالاحترام معوّلين بذلك على ما وصف به ارسطو عملية الشراء والبيع بأنّها «إدارة غير طبيعية»، وانّ الاقتصادي آدم سميث، والذي وصف بانّه مرجع الاقتصاديين قد وصف رجال الأعمال في كتابه «ثروة الأُمم» بأنّهم مجموعة من الخداعين، وانّ مصلحتهم لا تتفق مع مصلحة المجتمع، وانهم يرغبون عموماً في الخداع والغش واستغلال وظلم الجمهور، وانّ نابليون قد أشار إلى هذه السمة التي أُلصقت برجال الأعمال والتجارة في عهده، وانّ المتعلمين في القرن التاسع عشر كثيراً ما كانوا ينظرون إلى التجارة على انّها وظيفة غير منتخبة، وانّ رجال الأعمال والتجارة لم يحظوا باحترام المجتمع إلا في الخمسين سنة الأخيرة من القرن الماضي، وانّ اشتغال الاقتصاديين في أول الأمر ولمدة طويلة بالاقتصاد السياسي والنواحي غير

(١) الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام (المصطفى من سيرة المرتضى)، ص٦٥.

الإدارية كان من أسباب تأخّر ظهور نظرية (إدارة الأعمال)، وانّ الاقتصاديين في دراستهم وتحليلهم للمشروع التجاري وصياغتهم لنظرياتهم الفلسفية التي تتصل بالتجارة قد اتبعوا عموماً بطريق آدم سميث في أبحاثه المتركزة حول المقاييس الخاصة بزيادة الثروة في الدولة، كما ساروا على نمط (ريكاردو) الذي كانت أعماله ونظرياته ترتكز حول توزيع الثروة على عوامل الانتاج المختلفة وعلى الأرض والعمل ورأس المال، وكذلك تأثّروا بـ(مارشال) وغيره من الاقتصاديين في المنافسة والسوق غير الاحتكارية[1].

بينما نجد انّ الإمام علي عليه السلام قد عكس في تصوراته وتوجيهاته الدور الإنساني في التجارة والصناعة وعلى وفق السياق المبدئي لعقيدته السمحة والبناءة معا ليرسم الدور الإيجابي المعاكس لذلك التصور والدور السلبي للتجارة في القرون الوسطى وما بعدها إلى قيام الثورة العلمية الحديثة، ومن ينظر في إدلاءات وقرارات الإمام عليه السلام بهذا الشأن وما كان من إقرار الأُمم المتحدة وتقييمها لطروحاته الاقتصادية والإدارية (التدبيرية) كما سبقت الاشارة، يدرك كون الإمام علي عليه السلام قد اعتد بالجانب الايجابي للتجارة، بل للنشاط الاقتصادي عموماً، دون السلبي منها كمثل اعتداده بمكارم الأخلاق وقيم الفضيلة والتي من شأنها أن تكون الضمانة لكبح وملافاة الظواهر السلبية في كلّ وجوه التعامل.

***

(١) الأصول العلمية للإدارة والتنظيم: ٣٦.

المبحث الخامس

الإمام علي عليه السلام
وعلم النفس التدبيري

إنّ النشاط التدبيري في مواقع المسؤولية يرتب عليه أعباءً نفسية، وجهداً فكرياً مصاحباً للنشاط القيادي الريادي، وقد اهتمت الدراسات والبحوث الخاصة بعلم النفس السلوكي في العصر الحديث بملاحظة وتسجيل الحقائق المتصلة بالسلوك الوظيفي عامة والتدبيري منه خاصة، وقد نشأ من ذلك علم النفس الإداري (التدبيري) والذي يعد من الوسائل الحديثة لمعالجة وتقويم المشاكل النفسية لفئة المدراء (المدبرين) في مواقع المسؤولية، والذين تنتابهم أثناء العمل حالات وأعراض نفسية تختلف عما ينتاب الآخرين من ممتهني الأعمال الأُخرى، كون العمل التدبيري، وفي الدور القيادي منه خاصة يتطلب قدراً من الجهد العقلي والنفسي المميز لأداء التكاليف الخاصة بعناصر العملية التدبيرية (التخطيط، والتنظيم، والرقابة، والتنسيق، والتمويل)، وقد تمّ تجزئة علم النفس السلوكي إلى تخصّصات دقيقة كان من بينها علم النفس الإداري، وعلم الطب الإداري (التدبيري)، وتجدر الإشارة إلى انّ العرب قد عرفوا من قبل العلاقة ما بين المجالين النفسي والبدني، وهو ما تتوافق عليه الدلالة اللغوية عندهم لعبارة (الطب) والتي تفيد: علاج النفس والجسد معاً، وقد ورد في (لسان العرب) في ذلك قول ابن السكيت: «إن كنت طباً فطب نفسك»، أي ابتدإ أولاً بإصلاح نفسك، وإنّ كلمة الطب تستخدم للحذق والمهارة، فالطبيب: الرفيق، والحاذق

من الرجال، الماهر بعمله، وقد أنشد ثعلب في صفة غراسة نخل «جاءت على غرس طبيب ماهر»، وانّ كلّ حاذق بعمله طبيب عند العرب، ورجل طب: أي عالم، وانّ منزلة القاضي من النصف كمنزلة الطب في إصلاح البدن، وذكر انّه جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فرأى بين كتفيه خاتم النبوة فقال: «إن أذنت لي عاينتها فإني طبيب»، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «طبيبها الذي خلقها»[1].

وقد أدرك بعض العلماء العرب حقيقة التلازم بين الأعراض النفسية والبدنية، وذكر (البلخي) بشأن ذلك: انّ الأعراض النفسانية هي أكثر ملازمة للإنسان من الأعراض البدنية في أكثر أيام حياته بخلاف النفسية إذ لا يخلو من حالة غم أو غضب أو حزن، وانّ تدبير الأعراض النفسانية يختلف عن تدبير الأعراض الجسمانية، ولابدّ من إضافة تدبير الأنفس إلى مصالح الأبدان لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب النفس، وهو ما أقرّه العلم الحديث وعرف «بالطب النفسي الجسمي «Physcho somatic medicine» والذي ينظر إلى الشخص من زاويته الجسمية والنفسية في وقت واحد، ويدلّ ذلك على صحة ما أورده البلخي في ذلك وقد عّد من الرواد في تأسيس علم الصحة النفسية[2].

وقد كان للإمام علي عليه السلام إسهامه في المجال النظري والعملي في علم النفس السلوكي عامّة، والتدبيري منه خاصّة، وكانت له إشارات هامّة لأُسس وقواعد هذا العلم، ومن ذلك تعريفه للنفس العاقلة، وبيان انّ ردّة الفعل في هذا الجانب تأتي ضمن دائرة الإدراك والتفكير ومركزها القلب الذي يصفه الإمام عليه السلام: «بأنّ فيه موارد الحكمة وأضدادها من الأفعال الانفعالية».

---

(١) لسان العرب: ٩ / ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) مصالح الابدان والانفس: ٣٨.

وقد قدّم الإمام عليه السلام وصفاً بليغاً للقلب كونه مركز الأحاسيس والغرائز التي تتأثر بها انفعالات الإنسان وأنماط سلوكه تبعاً لذلك، والتي تشكّل لوحة السلوك العام في حياة الناس:

«لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَذَلِكَ الْقَلْبُ وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلَافِهَا فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَى نَسِيَ التَّحَفُّظَ وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ الأمر اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ[1]، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ الْغِنَى وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلَاءُ وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ الْبِطْنَةُ[2]، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ»[3].

وأفاد الإمام عليه السلام بحقائق هامة في مجال السلوك التدبيري تتوافق مع التقريرات الحديثة في علم النفس الإداري (التدبيري) اشتملت على الآتي:

١ ـ في العلاقة النفسية ما بين المسؤول وجمهور الناس: أشار عليه السلام بأنّه إذا ما اختلفت العلاقة الطبيعية ما بين الوالي والرعية، بأن لا يؤدي الوالي إلى رعيته حقّها فإنه ينتج عن ذلك اختلاف الكلمة ما ينتج عنه ظهور معالم الجور وفساد الأُمور، وإبطال احكام الشريعة المنظمة لحياة الناس: «فلا يعمل إلا بالأهواء، وتتعطل الاحكام»، وينتج عن ذلك شيوع الأمراض النفسية الناتجة عن مضاعفات ضعف سلطة الدولة، وعدم تمكنها من تأدية الحقوق لمواطنيها، مع

---

(١) الغفلة.

(٢) التخمة.

(٣) نهج البلاغة (حكمة:١٠٣).

الآثار السيئة المصاحبة لفقدان الاستقرار والأمن، وبالتالي كساد الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وهي الناتج لما أسماه الإمام عليه السلام بـ(علل النفوس) والتي يكون من علاماتها كما أفاد عليه السلام أن تختل موازين العلاقة بين الدولة ومواطنيها:

«وَإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا أو أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْـجَوْرِ وَكَثُرَ الْإِدْغَالُ[1] فِي الدِّينِ وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ فَعُمِلَ بِالْـهَوَى وَعُطِّلَتِ الْأَحْكَامُ».

ويكون من نتائج ذلك ان **«لَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الْأَبْرَارُ وَتَعِزُّ الْأَشْرَارُ وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ الله سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ»**.

والعلاج لمثل تلك العلل كما يقول الإمام عليه السلام بالتناصح، والتعاون بين الناس: **«فَعَلَيْكُمْ بِالتَنَاصُحِ فِي ذَلِكَ، وَحُسْنِ التَعَاونِ عَلَى إقَامَةِ الْـحَقِّ»**[2].

٢ ـ وبالنسبة لمستوى الإدراك العالي: أو ما يسمّيه الإمام عليه السلام بالنفس العاقلة، وردّة الفعل التي تأتي ضمن دائرة الإدراك والتفكير ومركزها القلب الذي يصفه الإمام عليه السلام بأنّ فيه موارد الحكمة وأضدادها من الأفعال الانفعالية، وتصوير الاستجابة في الجانب الإدراكي وفي ذلك جاء قوله عليه السلام :

«فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدَأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْدَهُ»[3].

---

(١) الفساد.

(٢) نهج البلاغة (خطبة / ٢١٦).

(٣) نهج البلاغة: ٢/ ٤٤.

والفعل وردّة الفعل يجب أن تكون على وفق ذلك بشكل متعقّل وضوابط أخلاقية وهذا يساعد في بناء الإنسان والشخصية وهي التي يعرفها العلم الحديث بأنها أفعال وردود أفعال الشخص تجاه المجتمع وهي تتكون من البيئة أو الوراثة أو كليهما، وبالنسبة لمحركات السلوك الإنساني يقول الإمام عليه السلام:

«إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوةً بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم».

وهذا يعني انّ الإنسان حين ركّب فيه الاستعداد لممارسة الخير والشرّ (العقل والشهوة) فقد ركّب فيه (إدراك) لكلٍّ من الخير والشر حتّى تصحّ ممارسة السلوك كونها خاضعة لعملية اختيار لا إجبار[1].

٣ ـ بالنسبة للملكات النفسية، وأدب السلوك القيادي: جاء الإمام عليه السلام على ذكر الأخصّ والأوفى في الاعتبار في ذلك كما في قوله:

ـ **«آلَةُ الرِّئَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ»**[2].

ـ **«الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْـهِمَّةِ»**[3].

«الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ»[4].

---

(١) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام: ص٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ١٦٦.

(٣) نهج البلاغة: حكمة٢٢.

(٤) نهج البلاغة: حكمة ٢٨٩.

وأشار عليه السلام إلى جملة خصائص نفسية ترتقي بمتولي المسؤولية مثل: «علو الهمة، والمروءة، والعفّة، والحزم في الرأي، والقدرة على كتم الأسرار» كما في قوله:

ـ «**قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، عِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ**»(١).

ـ «**الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ وَالْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ**».

وانّ الخواص المذكورة تجسّد القدرات النفسية الفائقة في القادة في مجال التعامل ومواجهة ضغوط العمل واعبائه بروح رياضية، وانّ الصورة المثالية التي يصبو إليها الأفراد الطموحين في مواقع المسؤولية هي أحد أبعاد الصحة النفسية حيث يعتمد نجاح الفرد فيها على تفاعل عاملي الذكاء وسمات الشخصية، وقد اُضيف إليها عامل آخر هو المعدل الانفعالي، بمعنى التواصل والدفء في التعامل مع الآخرين(٢).

٤ ـ وصف الإمام عليه السلام علم النفس بالمعرفة بالحالة السوية للإنسان المتميز، والتي يشير العلم الحديث انّ من خصائصها الإدراك الجيد للواقع، وردّة الفعل المتوازنة التي لا تعتمد الإساءة وتدرك ما يقوله الآخرون دون مبالغة، وهو ما قرره الإمام علي عليه السلام بقوله: «**لا ترى الجاهل إلّا مفرطاً أو مفرّطاً**»(٣)، كما أنّه أسّس لردّة فعل الإنسان (الاستجابة) كونها أساس الجانب الإدراكي والأخلاقي، وأنّها تملك قوى هي أساس للأمراض النفسية كالغضب،

---

(١) نهج البلاغة: حكمة .

(٢) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام : ص٢٠١.

(٣) نهج البلاغة: قصار الحكم٧٠.

والحرص، والحقد، والظلم، والخوف، ومن هذه الأفعال يحدث الخطأ مع الغير، وانّ الجانب الإدراكي للإنسان والمتمثّل بالنفس العاقلة يأتي من دائرة الإدراك والتفكير ومركزها القلب الذي يصفه الإمام عليه السلام بأنّ فيه مواد من الحكمة وأضدادها من الحالات الانفعالية، ويصوّر الاستجابة وفي الجانب الإدراكي بقوله:

«اِنَّ النَّاظِرَ بِالْقَلْبِ العَامِلَ بِالْبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدَأْ عَمَلِهِ أَنْ يَنْظُرَ عَمَلَهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ».

وأشار عليه السلام إلى أن الفعل ردّة الفعل يجب أن تكون بشكلٍ متعقّل وعلى وفق ضوابط أخلاقية بما يساعد في بناء الإنسان والشخصية، والتي يعرفها العلم الحديث بأنّها: أفعال وردود أفعال الشخص تجاه المجتمع والتي تتكون من البيئة أو الوراثة أو كليهما[1].

٥ ـ أفاد الإمام عليه السلام بما يلزم لتجاوز الحالة السلبية في السلوك الوظيفي والمتمثلة في التجاوز والتعدّي على حقوق الناس ممّا يتنافى مع أخلاقيات التعامل معهم وتأمين حقوقهم، مما يقتضي من أُولي الأمر أن يُلزموا أنفسهم بمبدأ الحق، مع النفس، ومع الناس كلّهم على قدر سواء، وقد نوّه الإمام عليه السلام في ذلك بما يكون لنفس الإنسان في موقفه من الحق، والذي وصفه الإمام عليه السلام بأنّه «ثقيل مرّ» مشدّداً على أن يقف المسؤول أمام عوائق الأثرة ونزعات التفرّد و(أنا) السلطة ليطمئن للناس حقوقهم، وفي وصيته عليه السلام لعامله مالك الأشتر شدّد على أن يلزم نفسه جانب الحق في تعامله مع القريب والبعيد، وأن يبعد نفسه عما تظن به الرعية حيفاً، وهذا درسٌ وعظةٌ بالغةٌ في علم النفس التدبيري، لابدّ أن

---

(١) اضطرابات الشخصية: ص٣.

نؤكّده، وأن تعتبر به جهات العمل في مجال التقويم للسلوك الوظيفي، وفيما تتعالى الصيحات في النظم الحديثة التي ورثت تبعات الفساد الإداري، وتتوالى الآراء والمقترحات بصدد ذلك لتجاوز علل التعدي على حقوق ومصالح الناس، ويكون للإمام علي عليه السلام من ذلك كلّه النداء الغني بأدب السلوك الوظيفي والذي وجه به من يعنيهم الأمر بأن يكون لهم الموقف الجريء والحازم والمخلص في ذلك، وكان من ذلك هذه السطور الحية من عهده التدبيري لمن يعنيه أمر الحقوق العامة:

«وَأَلْزِمِ الْـحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً، وَاقِعاً ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ خَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ».

«وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً، فَأَصْحِرْ[1] لَـهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ[2] عَنكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ فِيه حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْـحَقِّ».

«ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَاف [فِي مُعَامَلَة، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ لأحَد مِنْ حَاشِيتِكَ وَحَامَّتِكَ[3] قَطِيعةً، وَلاَ يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَة[4] تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي

---

(١) بين وأظهر لهم عذرك.

(٢) ابعد عنك.

(٣) الخاصة والقرابة.

(٤) امتلاك أو حيازة ضيقه.

شِرْب أو عَمَل مُشْتَرَك، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ[1] ذلِكَ لَـهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

٦ ـ عبّر الإمام عليه السلام عن جانبٍ هامٍّ من جوانب علم النفس السلوكي يتصل بطبيعة الغرائز الكامنة في النفس والتي تظهرها الأحوال المختلفة والمتجدّدة في السلوك وقدم في ذلك أمثلة وشواهد لمواصفات السلوك الإيجابي والسلبي للناس بما يكون من الصفات النفسية لكلّ من الأخيار والأشرار منهم ينمّ عن خبرة الإمام عليه السلام واطلاعه الواسع على الأحوال النفسية لكلّ صنف من أصناف الناس وبحسب طبيعة سلوكهم، وفي ذلك فإنّه عليه السلام حدّد صفات الأخيار (المتقين) إلى جانب صفات أربعة فئات من سيّئي السلوك، وجاء في وصفه للمتقين أنّهم:

«أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ وَمَلْبَسُهُمُ الِاقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَـهُمْ نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ.. لا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ.. وَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ وَحَزْماً فِي لِينٍ وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ وَعِلْماً فِي حِلْمٍ وَقَصْداً فِي غِنًى وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ وَتَجَمُّلًا فِي فَاقَةٍ وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ وَطَلَباً فِي حَلَالٍ وَنَشَاطاً فِي هُدًى وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ الْـخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، يَعْتَرِفُ بِالْـحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ»[2].

---

(١) منفعته.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣.

وصنّف عليه السلام ذوي الأعمال السيئة إلى أربعة اصناف:

ـ «مَنْ لَا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأرض إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ وَنَضِيضُ وَفْرِهِ»(١).

ـ «الْـمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ وَالْـمُعْلِنُ بِشَرِّهِ وَالْـمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ(٢)، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُه(٣)، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ»(٤).

ـ «مِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ(٥) شَخْصِهِ وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ وَاتَّخَذَ سِتْرَ الله ذَرِيعَةً إلى الْـمَعْصِيَةِ».

ـ «مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْـمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى»(٦).

ووصف عليه السلام المنافقين بأنّهم من: «يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَاد، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَاد».

---

(١) ضعف سلاحه وقلّة ماله.

(٢) أهلك دينة للمال.

(٣) خيلاً يقودها.

(٤) يعتليه.

(٥) خفض نفسه.

(٦) نهج البلاغة: خطبة٣٢.

ـ «**قُلوبُهُمْ دَوِيَّةٌ**[1]، **وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ**[2]، **يَمْشُونَ الْخُفَاءَ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ. وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ، يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ...**».

وصفتهم في الحكم انهم: «**قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيّ قَاتِلاً**»[3].

٧ ـ وفي وصف غير مسبوق للتفريق ما بين الحق والباطل قدم الإمام عليه السلام مثالاً عملياً لذلك بما يكون بين الحقّ والباطل من المسافة بين عضوي السمع والبصر (الأُذن والعين) للدلالة على الفارق الموضوعي ما بين الحقيقة المعاينة، والنقل المسموع على وجه الرواية غير المؤكّدة بالدليل المنظور، درساً عملياً في علم النفس والتربية، وحجّة معتمدة لإثبات الدليل في القضاء، وقد ورد في ذلك قوله:

«**أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ**».

فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثمّ قال: «**الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ!**»[4].

وفي وصفٍ دقيقٍ للفسّاق قوله عليه السلام فيهم أنّهم من: «**قَدْ تَسَمَّى عَالِماً وَ لَيْسَ بِهِ فَاقْتَبَسَ جَهَائِلَ مِنْ جُهَّالٍ وَأَضَالِيلَ مِنْ ضُلّالٍ وَنَصَبَ لِلنَّاسِ شَرْكاً مِنْ حَبَائِلِ غُرُورٍ وَ قَوْلِ زُورٍ قَدْ حَمَلَ الْكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ وَعَطَفَ الْحَقَّ عَلَى أَهْوَائِهِ يُؤَمِّنُ مِنَ**

---

(١) مريضة.

(٢) وجوههم نقية، ملتهبة بنارها.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٤.

(٤) نهج البلاغة (كلام/ ١٤١).

اَلْعَظَائِمِ وَ يُهَوِّنُ كَبِيرَ اَلْـجَرَائِمِ يَقُولُ أَقِفُ عِنْدَ اَلشُّبُهَاتِ وَ فِيهَا وَقَعَ وَ اعْتَزِلُ اَلْبِدَعَ وَ بَيْنَهَا اضْطَجَعَ فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ وَاَلْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ لاَ يَعْرِفُ بَابَ اَلْـهُدَى فَيَتَّبِعَهُ وَلاَ بَابَ اَلْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ وَ ذَلِكَ مَيِّتُ اَلْأَحْيَاءِ»(١).

٨ ـ أشار الإمام عليه السلام إلى وجه من وجوه الحذق التدبيري، والمتمثل بما يسمى بـ(الفراسة)، والتي تعني: تثبيت النظر، وادراك الباطن من نظر الظاهر(٢)، فيقال: (رجل فارس النظر)، وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن»(٣)، وقد اصبحت الفراسة حديثاً قسماً من أقسام الحكمة الفرعية الطبيعية "Physiognomy" والغرض منه الاستدلال من الخلق على الأخلاق(٤)، وقد اورد عليه السلام من مستدلات الفراسة ما يكون من لسان الإنسان وقسمات وجهه:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»(٥).

٩ ـ وترد في الدراسات الإدارية الحديثة انّ المدير الفعال يتطوّر من مجرّد كونه مديراً عادياً إلى مدير رائد، فقائد، ثم ليكون محلّلا نفسانياً، وهي المرحلة الأرقى من الدور التدبيري، وقد صحّ انّ الإمام عليه السلام كانت له القدرة الفائقة في التعرّف على دواخل الأشخاص عند النظر في وجوههم، والاستماع إلى كلماتهم، ومن ذلك انّه عليه السلام قال وقد مدحه قومٌ في وجهه فقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ وَاغْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ**»(٦).

---

(١) نهج البلاغة (خطبة ـ ٨٦).

(٢) المنجد، ص: ٥٧٤.

(٣) ترتيب مختار الصحاح، ص٦٠١.

(٤) الصحاح في اللغة والعلوم، ج٢، ص٢٣٢.

(٥) نهج البلاغة (حكم/ ٢٢).

(٦) نهج البلاغة: حكمة ٩٤.

وكانت للإمام عليه السلام فراسته ومعرفته بأُصول الناس بحسب قبائلهم ما يكون في الغالب من خواصهم، وفي مثل ذلك كان قوله عليه السلام حين سُئل عن قريش فقال:

ـ «نُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ».

ـ «وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْس فَأَبْعَدُهَا رَأياً ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا».

ـ «وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا ، وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْـمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ»[1]. وعن بني تميم انّهم :«لَمْ يَغِبْ لَـهُمْ نَجْمٌ إِلاَّ طَلَعَ لَـهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْم فِي جَاهِلِيَّة وَلا إِسْلام».

١٠ ـ وأشار الإمام عليه السلام إلى دالّة اعتبارية في السلوك الإنساني السوي تتمثّل في التوافق ما بين قلوب الناس أو نواياهم مع أعمالهم ما يصحّ فيه الصدق في العمل أو الضدّ من ذلك، وجاء في ذلك تفريقه عليه السلام بين ما يكون بين المؤمن المخلص في نواياه، والمنافق الذي يختلف لسانه عما في طويته، وفي ذلك وردّ قوله عليه السلام :

«وَإِنَّ لِسَانَ الْـمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ وَإِنَّ قَلْبَ الْـمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ لِأَنَّ الْـمُؤْمِنَ إذا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ وَإِنَّ الْـمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ وَمَاذَا عَلَيْهِ وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى الله تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْـمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِـهِمْ سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ فَلْيَفْعَلْ»[2].

---

(١) الوغم: الحرب والحقد.

(٢) نهج البلاغة: خطبة١٧٦.

وفي مبادرة عملية للإمام عليه السلام للكشف عن مثل تلك الحالة التي سبق ذكره لها، فإنّه عليه السلام ساق كلامه في جملة اعتراضية ردّ فيها على الأشعث بن قيس، وقد اعترضه وهو يخطب على منبر الكوفة فقال: يا أميرالمؤمنين، هذه عليك لا لك، فخفض عليه السلام إليه بصره ثم قال:

«وما يدريك ما عليّ مما ليّ؟ عليك لعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين، حائكٌ ابن حائك، منافقٌ ابن كافر! والله لقد أسرك الكفر مرّة والكفر أُخرى! فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك، وانّ امرؤاً دلّ على قومه السيف، وساق إليهم الحتف، لحريٌّ أن يمقته الأقرب، ولا يأمنه الأبعد»(١).

وقد ورد في الشرح ما ينبئُ بمعرفة الإمام عليه السلام التامّة بالأشعث ونفاقه، وقد كان من بين المرتدّين بعد موت النبي صلى الله عليه وآله، فإنّه لما ارتدّ بني وليعة وقاتلهم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، فقد تحصّن منهم الأشعث فحاصروه أياماً ثمّ نزل إليهم على أن يؤمنوه وعشرة من أقاربه حتى يأتي أبا بكر فيرى فيه رأيه، وقد حمل إليه أسيراً مغلولاً فعفي عنه وعمّن كان معه(٢).

١١ ـ نوّه الإمام عليه السلام بما يكون من الاختلاف في طبائع الناس بما يكون فيهم من الحق والباطل، والصدق والكذب، والحقيقة والوهم، وقد جاء قوله عليه السلام في ذلك حين سأله سائل عن أحاديث البدع:

«إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقّاً وَبَاطِلاً، وَصِدْقاً وَكَذِباً، وَنَاسِخاً وَمَنْسُوخاً، وَعَامّاً وَخَاصّاً، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً، وَحِفْظاً وَوَهْماً».

وقسّم الإمام الناس في طبائعهم إلى اصناف أربعة (المنافقون، والخاطئون،

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٧٦.

(٢) نهج البلاغة: هامش ص٤٩ ـ ٥٠.

وأهل الشبهة، والصادقون الحافظون)، وذكرت لكلّ فئة منهم صفاتهم ممن كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وآله ومن بعده ، وعلى نحو تستبين فيه الدلالة عليهم من واقع سلوكهم، وانّ فيها «وجوه ما عليه الناس في اختلافهم وعللهم في رواياتهم»[1] وقد صحت فراسته فيهم إلى ما كان ويكون من شأنهم:

ـ المنافقون: «**رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإيْمَانِ، مُتَصَنِّعٌ بِالإسلام، لاَيَتَأَثَّمُ وَلا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ، وَلكِنَّهُمْ قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) رآهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ، وَلَقِفَ عَنْهُ، فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْـمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ (صلى الله عليه وآله)، فَتَقَرَّبُوا إلى أَئِمَّةِ الضَّلاَلَةِ، وَالدُّعَاةِ إلى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ، فَوَلَّوهُمُ الأَعْمَالَ، وَجَعَلُوهُمْ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْـمُلُوكِ وَالدُّنْيَا..**».

ـ الخاطئون: «**وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَوَهِمَ فِيهِ وَلَمْ يَتَعَمَّدْ كَذِباً، فَهُوَ فِي يَدَيْهِ، يَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله)، فَلَوْ عَلِمَ الْـمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذلِكَ لَرَفَضَهُ!**».

ـ أهل الشبهة: «**وَرَجُلٌ ثَالِثٌ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ الله (صلى الله عليه وآله) شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ، ثُمَّ نَهَى عَنْهُ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ، أو سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنسُوخَ، وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ، وَلَوْ عَلِمَ الْـمُسْلِمُونَ إذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ**».

ـ الصادقون الحافظون: «**لَمْ يَكْذِبْ عَلَى الله، وَلا عَلَى رَسُولِهِ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ،**

---

(١) نهج البلاغة: كلام ٢١٠.

خَوْفاً لله، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ الله، وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ».

وأفاد عليه السلام بشأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله بشأن ما قد ذكر بأنه: «**وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهِمُ منهُ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيء الأَعْرَابِيُّ أو الطَّارِئُ، فَيَسَأَلَهُ صلى الله عليه وآله حَتَّى يَسْمَعُوا، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي مِنْ ذلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُه**».

وأورد الإمام عليه السلام تصنيفاً للناس بحسب مراتبهم العلمية:

«**الناس ثلاثة: عالمٌ رباني، ومتعلّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق**»[1].

١٢ ـ قدم الإمام عليه السلام معلومات هامّة في مجال التكوين الطبيعي والنفسي للإنسان بحسب طبيعة الأرض والبيئة التي ينشأ فيها، وذكر في ذلك ما يكون من اختلاف الناس في عناصر التركيب الجسدي فيهم من ذلك:

«**إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أرض وَعَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أرضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلاَفِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الْـمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، مَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْـجَلِيبَةِ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حدِيدُ الْـجَنَانِ.إِنَّمَا فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَبَادِئُ طِينِهِمْ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِلْقَةً مِنْ سَبَخِ أرض وَ عَذْبِهَا، وَحَزْنِ تُرْبَةٍ وَسَهْلِهَا، فَهُمْ عَلَى حَسَبِ قُرْبِ أرضِهِمْ يَتَقَارَبُونَ، وَعَلَى قَدْرِ اخْتِلاَفِهَا يَتَفَاوَتُونَ، فَتَامُّ الرُّوَاءِ نَاقِصُ الْعَقْلِ، وَمَادُّ الْقَامَةِ**

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ١٣٩.

قَصِيرُ الْهِمَّةِ، وَزَاكِي الْعَمَلِ قَبِيحُ الـمَنْظَرِ، وَقَرِيبُ الْقَعْرِ بَعِيدُ السَّبْرِ، مَعْرُوفُ الضَّرِيبَةِ مُنْكَرُ الْـجَلِيبَةِ ، وَتَائِهُ الْقَلْبِ مُتَفَرِّقُ اللُّبِّ، وَطَلِيقُ اللِّسَانِ حدِيدُ الْـجَنَانِ».

وقد أيّد ابن خلدون صحّة تقرير الإمام عليه السلام في ذلك بما ذكره عن تأثير المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم، فإنّ المغمور في المنكشف من الأرض إنّما هو وسطه لإفراط الحرفي الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادّين في الحر والبرد ويجب أن تندرج للبقية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً، فالأقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيداً عن الاعتدال.. ولهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتلوّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكّانها من البشر أعدل أجساما وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوات فإنّها توجد في الأكثر منها، فنجدهم في غاية من التوسّط في مساكنهم، وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم.. فإنّهم يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم عن الإنسانية بمقدار ذلك[1].

١٣ ـ وفي الجانب الأهم من المعرفة النفسية: ما يكون من وسائل العلاج للأمراض النفسية، وأهمّها في هذا العصر القلق والتوتر، دعا الإمام عليه السلام إلى إزالة الأسباب المؤدّية إلى ذلك كون الخوف هو حالة إرهاب للإنسان عالج من خلال الوقوع فيه:

«إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ»[2]. وأنّ ذلك يعدّ

(١) المقدمة: ص٩٠ ـ ٣١.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ١٦٥.

نمطاً من العلاج النفسي الذي تتجه إليه المدرسة السلوكية الحديثة ، ويستوي في ذلك أن تكون الحالة ذات طابع بيئي أو وراثي، كذلك فإنّ في اتقان العمل ما يكون سبباً في ملاقاة الهمّ، وفي ذلك كان قول الإمام عليه السلام : «**من قصّر بالعمل ابتلى بالهمّ**»، وأُشير إلى أنّ الإمام قد دعا للاهتمام بالطبيعة، وراحة النفس، (فالطيب عنده نشرة، والنظر إلى الخضرة نشرة)، والنشرة هو ما يوجب انبساط الاعصاب بعد أصابتها بعلة، كذلك كانت دعوته إلى السرور، وهو ما يبسط النفس ويثير النشاط وإلى عدم اشتغال القلب بالهمّ؛ لأنّ ذلك سيشغل الإنسان عما هو آت، وانّ البوح بالسرّ إلى شخصية عاقلة وحكيمة ومشاورتها هو نوع من الترويح النفسي والعقلي[1].

وقد جسّد الإمام عليه السلام المعرفة النفسية، في علاماتها وعناوينها الإيجابية في سلوكه السوي، منسجماً في ذلك مع مبادئه ومثله العليا، فعاش حياة الزهد وخزائن الدولة الكبيرة والعامرة بالمال بين يديه، ومارس دوره في العدالة بالكامل وحثّ ولاته وكرّر دعواته فيهم ليكونوا على النهج الذي التزم به خطاً ثابتاً مضي فيه إلى آخر الشوط من حياته، وقد عبّر عن ذلك المنحى في السلوك لولاته ليكونوا على ذات الصورة والحالة التي استوثق فيها يقيناً قائماً في ذاته، وقد عبّر لواليه على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري عن حاله في ذلك:

«**أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَاماً، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ، أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، وَعِفَّة وَسَدَاد فَوَالله مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً ، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً... وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلى مُصَفَّى**

(١) الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام : ص١٣٥ ـ ١٣٦.

هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أو بِالْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أو أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى... أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أو أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أو الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلاَفِهَا، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أو أُتْرَكَ سُدىً، أو أُهْمَلَ عَابِثاً، أو أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أو أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ...».

وفي ذات التقرير عن نفسه أفاد الإمام عليه السلام بما يكون من شأن النباتات في صلابتها أو رقّتها بقدر ما يلزم لها من مادة الحياة مؤكّداً في تمثله لذلك ترويضه لنفسه بما قد ألزمها به وفاقاً مع مبادئه وقيمه العليا في الحياة: «أَلا وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً، وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ أَقْوَى وَقُوداً، وَأَبْطَأُ خُمُوداً.. وَأَيْمُ الله ـ يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ الله عَزَّ وَجَلّ ـ لأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَها إِلى الْقُرْصِ إِذا قَدَرتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَلأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاء، نَضَبَ مَعِينُهَا...».

«إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا، فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ، قَدِ انْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِضِكِ...».

«اعْزُبِي عَنِّي! فَوَالله لاَ أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي، وَلاَ أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي».

وكانت للإمام بعدئذٍ طريقةٌ نفسيةٌ، وقاعدةٌ صحيةٌ صارمةٌ روّض لها نفسه: «وَأَيْمُ الله يَمِيناً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ الله لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلى الْقُرْصِ إِذا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً وَتَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا»[1].

(١) نهج البلاغة: كتاب ٤٥.

ولم يكتف الإمام عليه السلام بذلك التقرير الذي قدّمه عن نفسه، تقرير رجل المبادئ الوفي لقيمه ومثله العليا، بل انّه وافى من يعنيهم الأمر بلائحة الحقوق المستوجبة على المسؤول لمواطنيه، وليفيد بإبراء ذمّة من يعنيهم الأمر من أيّ بادرة من بوادر القصور تجاه مواطنيهم، وفي ذلك فقد وضع عليه السلام نفسه بموضع المسؤولية الكاملة والملتزمة غاية الالتزام في ذلك، وفي بادرة متقدّمة الدور في نظم الحكم يتشكّل فيها البعد الروحي والإنساني الأرقى لعقيدة الإمام عليه السلام والتزامه الخلقي تجاه شعبه، ولنقرأ من ذلك السفر الرسالي في المسؤولية العامّة نبذاً مما ورد في الوثيقة التي أملاها الإمام عليه السلام عن حق الراعي والرعية من قائد حريص على أن يعيش محنة شعبه وامتحانهم في حياتهم ومنها ما يفي لتدعيم العلائق النفسية، ما بين القائد وعامّة الناس، وما بين متولي الشؤون العامة وجمهور المتعاملين معهم، وفي علاقة حميمة تضع القائد والمسؤول في قلوب الناس، كمثل ما تضع الناس في قلب القائد وولاته، ما يكون فيه ذلك الدور الأرقى من عناوين الجذب والشدّ النفسي ما بين فرقاء المسؤولية العامّة وجمهورهم، يرسم الصورة الأجلى لمدعّمات السلوك الإيجابي، وقد كان من ذلك ما جاء في الخطاب المباشر للإمام القائد عليه السلام لشعبه:

«أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ: فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْما تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالوَفَاءُ بِالبَيْعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْـمَشْهَدِ وَالْـمَغِيبِ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ»[1].

وفي أقصى الحالة من التوازن النفسي والسلوكي المرتهن للمصلحة العامة

(١) نهج البلاغة: خطبة ٣٤.

يعبر الإمام عليه السلام، وفي موقف لم يسبقه أهل الحكم إليه، ما ألزم نفسه به من إقامة الحق، وبأنّ الحكم عنده لا يساوي شيئاً إن لم يؤدِّ فيه حقوق الناس ويدافع عنها، وقد ورد ذلك في قوله لعبدالله ابن عباس، وقد دخل عليه وهو يخصف نعله فقال له:

«**فَقَالَ لِي مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟ فَقُلْتُ: لَا قِيمَةَ لَهَا، فَقَالَ عليه السلام : وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقّاً أو أَدْفَعَ بَاطِلًا**». وأردف عليه السلام يقول: «**فَلأَنْقَبَنَّ الْبَاطِلَ حَتّى يَخْرُجُ الْـحَقُّ مِنْ جَنْبه**»(١).

وبعد ذلك فإنّ الإمام عليه السلام كان المثال والقدوة لشعبه في التوجه الديمقراطي والحث على منهجه وفي ذلك كان صوته المنادي لشعبه:

«**فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَال بِحَقّ، أو مَشُورَة بِعَدْل، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ، يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا**»(٢).

والقيمة الاعتبارية لمجمل تقريرات الإمام علي عليه السلام وتوجيهاته في الجانب السلوكي العام من عمل التدبير القيادي هي الفترة القصيرة لتوليه مسؤولية الدولة وما صاحبها من مواجهات مستمرة لأعدائها، والمرتدين عن منهجها، وقد مثل ذلك الحالة الأكثر تعقيداً، والأكثر وضوحاً في ذات الوقت لتقابل الاعتبارين الإيجابي والسلبي في سلوك الناس، وقد تجسّدت خلال ذلك مواقف الحزم والجرأة، وثبات الإرادة والموقف العقلاني للإمام عليه السلام، وهو ما يؤشّر حالة معتبرة من سكينة النفس واستقرارها على الحالة الإيجابية عند الإمام عليه السلام تمثّلت

---

(١) نهج البلاغة: خطبة٣٣.
(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢١٦.

في قراراته وتوجيهاته لأُولي الأمر خاصّة، ولشعبه وأُمّته عامّة، ولم يشهد عهد من العهود الإسلامية مثل ما قد صاغ الإمام علي عليه السلام وأنجر من ذلك وهو في الذروة من المسؤولية الكبيرة والمعقّدة، وقد مضى في مجالات التحديد للعلاقات المتكافئة والمتوازنة لمتولي الشؤون العامة، ولما ينبغي من إدراك الغاية في الوقوف على احتياجات الناس ورغباتهم والسعي لتحقيقها من منطلق المسؤولية العامة والتي كان يلحّ عليها إلحاحاً لم يسبق لقائد أن ألحّ عليها ومضى في متابعتها كمثل ما قد فعل، وقد كانت للإمام عليه السلام معاناته الخاصة في ذلك مع سائر الناس مع عظم مداراته وبالغ نصحه لهم، وقد حفلت نصوص نهج البلاغة بالوافر من ذلك:

«كَمْ أُدَارِيكُمْ كَمَا تُدَارَى الْبِكَارُ الْعَمِدَةُ[1] وَالثِّيَابُ الْمُتَدَاعِيَةُ! كُلَّمَا حِيصَتْ مِنْ جَانِبٍ تَهَتَّكَتْ مِنْ آخَرَ، كُلَّمَا أَطَلَّ عَلَيْكُمْ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَانْجَحَرَ انْجِحَارَ الضَّبَّةِ فِي جُحْرِهَا»[2].

«أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا وَأَعِظُكُمْ بِالْـمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَأَ تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْـحَنِيَّةِ عَجَزَ الْـمُقَوِّمُ وَأَعْضَلَ الْـمُقَوَّمُ أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُـهُمْ الْـمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ الْـمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ لَوَدِدْتُ وَاللهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ

---

(١) الفتية من الإبل.

(٢) نهج البلاغة: كلام ٦٨.

مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ صُمٌّ ذَوُو أَسْمَاعٍ وَبُكْمٌ ذَوُو كَلَامٍ وَعُمْيٌ ذَوُو أَبْصَارٍ لَا أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ الْبَلَاءِ».

وعند تلك الشكوى المرّة التي عبّر عنها الإمام القائد وفي أكثر من مناسبة وهو يتلقّى نسيجاً متصلاً من المكائد والدسائس مع ما يقابلها من تخاذل المتخاذلين وحبائل المتآمرين عليه يكون يقينه الثابت بصحّة نهجه والتزامه بما قد آمن به حقّاً وصدقاً.

«وَإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَمِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي وَإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ أَلْقُطُهُ لَقْطاً».

وفي مقابل ذلك كانت الوقفات الفذّة من خاصّة الصحابة معه إيثاراً وتضحيةً ما سنوافي في اللاحق نبذاً منها.

***

المبحث السادس

القيادة الخلافة

تفاني القائد وتفاني الولاة

لم يعرف تاريخ الدول والشعوب ـ إلا نادراً ـ قائداً لدولة تفانى في خدمة مواطنيه والتزم بصدق بمقتضيات ذلك الدور، ومن أوفى له صحابته بخالص الجهد والامتثال وقد مضوا في سبيل ذلك جهاداً وتضحيةً كمثل ما هو الحال بالنسبة للإمام القائد علي بن أبي طالب عليه السلام وقد مضى القلائل من بقية الصحابة معه على الخط الرسالي الأصيل وبما يلزم من المعاناة والتضحية إخلاصاً ووفاءً لمبادئهم وقد عهد إليهم الإمام عليه السلام بأدوار من المسؤولية لم يتخلّوا عنها حتى الشهادة، وهذا ما سنوافي تفاصيله في اللاحق من هذا المبحث.

لقد استهلّ الإمام علي عليه السلام وظيفة الخلافة بمشوار مقابل ومكمّل للغاية الاعتبارية من وظيفة الخلافة في خدمة الناس جميعاً؛ ليكون على القرب من معاناتهم، فلم يفرّط بأدنى قدر مما في خزانة الدولة ليمنحه بكلّ السخاء للناس على قدر احتياجاتهم، وقد ألزم نفسه وأجهدها على هذا السبيل وكان يقول في ذلك:

«وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً[1]، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ

(١) الشوك الذي ترعاه الإبل.

الْـحُطَامِ وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلى الْبِلَى قُفُولُـهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُـهَا»[1].

وقد قدّم عليه السلام سائر الناس من أهل الحاجة على خاصّة أهله، فكان في ذلك مثلاً لا يضاهى في العدل والإنصاف ما كان له مع أخيه عقيل، وقد افتقر غاية الافتقار، وقصده، فلم يقدّم حاجته على حاجة الناس؛ لأنّ الناس عنده على السواء، وقد نوّه عليه السلام بموقفه هذا:

«وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً فَأَصْغَيْتُ إليه سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا فَقُلْتُ لَهُ ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ وَتَجُرُّنِي إِلى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى»[2].

ولم يقبل الإمام قط أن يتقدّم إليه أحد بعطاء أو هدية يحسب أنّ فيها ما يتقرّب إليه فيها مما يظنّ انّه يحرفه عن مهمّة العدل، وقد ذكر من ذلك انّ الأشعث بن قيس قد طرق بابه يوماً وقدّم له ملفوفة من الحلوى، فقال له عليه السلام:

«أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْـهَبُولُ[3]**، أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ**

---

(١) نهج البلاغة: كلام ٢٢٣.

(٢) نهج البلاغة: كلام ٢٢٣.

(٣) ثكلتك أمك.

ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ[1]، **وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى»**[2].

وكان عليه السلام عليّ غاية من الشدّة في صرف المال والتصرّف فيه على غير الاستحقاق، وقد قدّم عليه في خلافته عبدالله بن زمعة يطلب مالاً، فقال له: **«إِنَّ هذَا الْـمَالَ لَيْسَ لِي وَلاَ لَكَ، وَإِنَّمَا هُوَ فَيْءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَجَلْبُ أَسْيَافِهِمْ، فَإِنْ شَرِكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ، كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ، وَإِلاَّ فَجَنَاةُ أَيْدِيهِمْ لاَ تَكُونُ لِغَيْرِ أَفْوَاهِهِمْ»**[3].

وكان عليه السلام على الغاية من محاسبة ولاته على ما يرى فيه التجاوز على المال العام، وقد ذكر في ذلك ما كان له مع شريح القاضي وقد بلغه أنّه اشترى داراً من غير ماله، وموقفه الشديد مع بعض عمّاله الذين خالفوا أوامره عليه السلام، وما كان يشتدّ به مع خاصّة الناس مما كان يرى انّه يضرّ بالمصلحة العامّة، وقد كتب لزياد بن أبيه ما قد كتبه مقسماً أنّه سيشدّ عليه إن بلغه عنه الخيانة في فيء المسلمين، وفي كلّ ذلك الذي قد جرى من الأحداث والمواقف والتي كلّفت الإمام عليه السلام قدراً باهظاً من العناء والعداء، فإنّه عليه السلام لم يكن لينثني عن ذلك النهج الصارم في العدل، وقد اصطفّ الإمام في ذلك مع العامّة من شعبه، وكانت بلاغاته لولاته تؤكّد حقيقة كونه القائد المعبّر بصدق عن إرادة المحرومين من شعبه، وانّ جملة ما أبلغ به ولاة الأمر كان ينصبّ على مصلحة الناس حتّى انّه لم تكد هناك رسالة أو تبليغ منه لهم تخلو من دعوة أو إشارة أو تنبيه للاهتمام بمصالح الناس

---

(١) هل اختلّ نظام إدراكك، أم أصابك جنون.

(٢) نهج البلاغة: كلام ٢٢٣.

(٣) نهج البلاغة: كلام ٢٣١.

وشؤونهم واعتبارها من أولويات مهامهم، ففي كتابه للأشعث بن قيس عامله على أذربيجان ابلغه:

«وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ وَأَنْتَ مُسْتَرْعىً لِـمَنْ فَوْقَكَ لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ»(١).

وفي عهده لمحمد بن أبي بكر حين قلّده مصر أوصاه بالناس:

«فَاخْفِضْ لَـهُمْ جَنَاحَكَ وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَابْسُطْ لَـهُمْ وَجْهَكَ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ حَتَّى لا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَـهُمْ وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ».

وكتب لأُمرائه على الجيوش:

«فَإِنَّ حَقّاً عَلَى اَلْوَالِي أَلاَّ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ وَلاَ طَوْلٌ خُصَّ بِهِ وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَادِهِ وَعَطْفاً عَلَى إِخْوَانِهِ»(٢).

وفي كتابه للأسود بن قطبة:

«فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْـحَقِّ سَوَاءً، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْـجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ».

«وَمِنَ الْـحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ، وَالاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ»(٣).

ويبلغ الإمام عليه السلام الغاية في التواصل مع الناس والاهتمام بشؤونهم ما

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٢٧.

(٢) نهج البلاغة: كتاب ٥٠.

(٣) نهج البلاغة: كتاب ٥٩.

ورد في عهده لواليه الكفوء مالك الأشتر، والذي يعدّ ميثاق العهد الصادق للناس لأحبّ الذخائر عند الإمام عليه السلام، ما كانت فيه كلماته الخالدة، نبع المحبة والإخلاص، والالتصاق الشديد بالناس، أنّهم على الحالة الواحدة من كينونتهم الإنسانية، يجمعهم رباط الوطن، وفوقها الرباط الإنساني الذي يجمع الناس على الجادة الواحدة:

«وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمة بِالرَّعيَّةِ والْـمَحَبَّةَ لَـهُمْ واللطُّفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عليهم سبْعاً ضَارِياً، يَغْتَنِمُ أكْلَهم، فَإِنَّهُم صِنْفان:إمَّا أخٌ لكَ فِي الدِّين، وإمَّا نظيرٌ لكَ فِي الـخَلْق، يَفْرُطُ مِنْهُم الزَّلَلْ، وَتَعْرِض لَـهُم العِلَلْ، وَيُؤْتَى على أَيْدِيْهِم فِي العَمْد وَالْـخَطأ، فَأَعْطِهِم مِنْ عَفْوِك وَصَفْحِك مِثْل الَّذِي تُحِبُّ أنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ فإِنَّكَ فَوْقَهُم وَوَالِي الأمر عَلَيْك فَوْقَك، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ، وَقَدْ اسْتَكْفَاكَ أمْرَهُم وابْتَلَاكَ بِهِم».

«وليكنْ أحبَّ الأُمور إلَيْك أوسَطُها في الحقّ، وأعمُّها في العَدْل، وأجمعُها لِرِضا الرَعيَّة، فإِنَّ سُخْط العامَّة يُجْحف بِرِضَا الخاصَّة، وإنّ سُخْط الخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا العَامَّة».

«وَلَيْسَ أحدٌ مِنْ الرَّعِيَّةِ أثْقَل عَلَى الوَالِي مؤونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقلَّ معونةٍ لهُ في البلاء، وأكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْـحَاف، وأقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإعْطَاءِ وأبْطَأ عُذْرًا عِنْد الْـمَنْع، وَأَضْعَف صَبْراً عِنْد مُلِمَّاتِ الدَّهْر مِنْ أهْلِ الْـخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّيْن وَجِمَاع الْـمُسْلِمِين وَالْعُدَّة لِلْأعْدَاءِ العَامَّةُ مِن الْأُمَّةِ، فَلْيَكُن صَغْوُكَ لَـهُم وَمَيْلُك مَعَهُم».

«واعْلَم أنَّهُ لَيْس شَيْءٌ أدْعَى إلى حُسْن ظنِّ والٍ بِرَعِيَّتِه مِنْ إحسانه إليهم وتَخْفِيفِه الْـمَؤُوْنَات عَنْهم، وَتَرْك اسْتِكْرَاهِهِ إيَّاهُم عَلَى مَا لَيْس لَهُ قِبَلَهُم، فَلْيَكُن مِنْك

فِي ذَلِك أمْرٌ يَجْتَمِع لَكَ بِهِ حُسْن الظَّنِّ بِرَعِيَّتِك».

«وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقّة في السن ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، والحقّ كلّه ثقيل، وقد يخفظه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم».

«فَلا تَطُولَنَّ احْتِجَابَكَ عَلَى رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاةِ عَلَى الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمور».

«وَإِيَّاكَ وَالْـمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ أو التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أو أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ فَإِنَّ الْـمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ».

«وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ»[1].

ومع كل ما قدّمه القائد الزاهد، المتواضع علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه وفي خاتمه المطاف من حياته لم يكن ليستطيب الثناء عليه معتقداً انّه لم يكن بوسعه أن يقدّم لمواطنيه ما كان يطمح ان يقدمه لهم، داعياً إياهم إلى ممارسة حقّهم في النقد الإيجابي له:

«فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إلى الله سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ التَّقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا وَفَرَائِضَ لا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْـمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أو الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ».

---

(١) نهج البلاغة: كتاب٥٣.

«فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أو مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ الله مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى»[1].

وكان الإمام يباشر مهام الصلح بين قومه ومما ذكر في ذلك : أنّه عليه السلام كان يطعم الطعام في الرحبة فاقتتلت كندة فيما بينها فبلغه ذلك، فخرج يمشي ومعه الدرّة فرأى حماراً عليه أكاف فركبه فأتاهم فتوسّطهم ثم جعل يضرب الأشعث وعمه عفيفاً ويقول :«أصلحا أمر قومكما».

ودخل رجل المسجد ـ والإمام يخطب ـ فقال :يا أميرالمؤمنين قد قتلت همدان تميم بالكناسة، فمضى في خطبته، ودخل رجل آخر فقال :يا أميرالمؤمنين قد قتلت تميم همدان فأدركها فقال عليه السلام :الآن، وانحدر مسرعاً من المنبر فأتاهم فحجز بينهم[2].

وكانت بيعة الناس للإمام عليه السلام قد تمت بمشهدٍ عامٍّ وكان زاهداً غاية الزهد في تولي المسؤولية، وذكر ابن الأثير في ذلك: أنّه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار ..فأتوا علياً فقالوا له: «انّه لابدّ للناس من إمام» قال: «لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به، فقالوا ما نختار غيرك وتردّدوا إليه مراراً وقالوا له في آخر ذلك: إنّا لا نعلم أحداً أحقّ به منك لا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك

(١) نهج البلاغة: خطبة٢١٦.

(٢) أنساب الأشراف القسم الثاني ص ١٥٧.

قال: ففي المسجد، فإنّ بيعتي لا تكون خفيّة ولا تكون إلا في المسجد» وكان في بيته، وقيل في حائط لبني عمرو بن مبذول فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده، متوكأ على قوس فبايعه الناس.. فصعد المنبر وقال: **«أَيُّهَا النَّاسُ عَنْ مَلَإٍ وَإِذْنٍ إِنَّ هَذَا أَمْرُكُمْ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إِلَّا مَنْ أَمَّرْتُمْ وَقَدِ افْتَرَقْنَا بِالْأَمْسِ عَلَى أَمْرٍ وَكُنْتُ كَارِهاً لِأَمْرِكُمْ فَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ أَكُونَ عَلَيْكُمْ أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي دُونَكُمْ إِلَّا مَفَاتِيحُ مَا لَكُمْ مَعِي وَلَيْسَ لِي أَنْ آخُذَ دِرْهَماً دُونَكُمْ فَإِنْ شِئْتُمْ قَعَدْتُ لَكُمْ وَإِلَّا فَلَا آخُذُ عَلَى أَحَدٍ فَقَالُوا نَحْنُ عَلَى مَا فَارَقْنَاكَ عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اشْهَد»**[1].

وقد مضى الإمام عليه السلام إلى الغاية الأسمى من الوظيفة الرسالية التي أدّاها بالتمام وداور فيها بين السماحة والشدّة وقد قال في ذلك: **«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْـمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا الأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأوصِيَاءُ إِلى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا. لله أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟!»**[2].

وكانت محنة القائد في شعبه أنّه قد ورث التبعة لفتنة استقرّت في أطراف من الدولة غذتها وأمدّتها المطامع وأشعلتها فتن الأهواء والمطامع، فتهاوى فيها من تهاوى سعياً وراء أغراض الدنيا، وحيث لم يجد الطامحون من أرباب الدنيا ضالّتهم عند الإمام التقي الزاهد فإنّهم انحازوا إلى من يرتجون بغيتهم فيه، ووجد الإمام عليه السلام نفسه مع الامتحان الكبير لمبادئه وقد ظل مستمسكاً بها لا يحول عنها ولا يزول، وقد صحّت نبوءته فيما سيكون من أمر قومه من ذلك، كمثل ما قد صحّ من نبوءته عمّا سيكون حال قومه معه، وحالهم من بعده،

---

(١) الكامل في التاريخ ج١ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

شهادة صادقة قدّمها الإمام عليه السلام للتاريخ، وقد كان الضحية لمواقف امتثل فيها غاية الامتثال لمبادئه، ولم يكن ثمّة من صحّ له أن يتنبه لما حذر منه الإمام إلّا بعد زمان من ذلك، وقد جرت الأحداث على النحو الذي خطط له أهل المطامع، وظلّ صوت الإمام عليه السلام بعدئذٍ صدى لحقيقة أدركها جيل من الناس من بعده، وسجّلها التاريخ من حقائق السياسة التي تجري بمقتضاها الأحداث على حالة من الدهاء والمكر تتعالى على المبادئ والمثل العليا في حينها:

«أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلكِنْ لإِسْرَاعِهِمْ إِلى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي»[1].

وقد صحّ ما توقّعه الإمام عليه السلام من ذلك فقد مُورست شتّى الأساليب لزعزعة الوضع في دولة الخلافة وكان من نتائجها افتعال الحروب والأزمات ومقتل الصفوة من خيار الصحابة والقادة المدبّرين وبعدئذٍ تدبير المكيدة لمقتل الإمام عليه السلام.

وفي خضم الأحداث المتلاحقة وظّف الإمام علي عليه السلام القدرات والطاقات للنخبة من صحابته الذين عُرفوا بسوابقهم في العهد الإسلامي الأول، وقد انتدبوا لمهماتهم في تدبير الأقاليم، وواجهوا خلال ذلك أشكالاً شتّى من الإغراء والعنت والتصدي لمهامّهم في الأقاليم المضطربة وكانوا في الصفّ المتقدّم من سوح المواجهة وكان من بين الصفوة من هؤلاء:

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري:

وكان صاحب راية الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ذوي الرأي والبأس

---

(١) نهج البلاغة: كلام ٩٦.

ورواية الحديث، روى عنه عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعروة بن الزبير، والشعبي، وميمون.. وجماعة وكان سيّداً مطاعاً كثير المال جواداً كريماً، وذكر أنّه وقفت عليه عجوز فقالت: أشكو إليك قلّة الجرذان، فقال: ما أحسن هذه الكناية! املأوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً، وروي عنه أنّه قال: «لولا أنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المكر والخديعة في النار لكنت من أمكر هذه الأمّة»(١).

وقد بعث الإمام علي عليه السلام بقيس أميراً على مصر فقال له: «سر إلى مصر فقد وليتكها، واخرج إلى رحلك واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتّى تأتيها ومعك جند، فإنّ ذلك أرعب لعدوّك وأعزّ لوليّك وأحسن إلى المحسن وأشدّ مع المريب، وأرفق بالعامة والخاصة فإنّ الرفق يمن، فقال له قيس: أمّا قولك: أخرج إليهم بجند فوالله لن أدخلها إلّا بجند آتيها من المدينة لا أدخلها أبداً، فأنا أدع ذلك الجند لك فإن كنت احتجت إليهم كانوا منك قريباً، وإن أردت أن تبعثهم إلى وجه من وجوهك كانوا عدّة» فخرج قيس حتّى دخل مصر في سبعة من أصحابه فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب أميرالمؤمنين فقرئ على أهل مصر بإمارته وبمبايعته وإعانته على الحقّ ثمّ قام خطيباً وقال:

«الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيّها الناس إنّا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وآله فقوموا أيّها الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله، فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا علكيم» فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر وبعث عليها عماله إلا قرية منها يقال لها خربتا، فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان، عليهم رجل من بني كنانة وبني مدلج اسمه يزيد بن الحرث، فبعث إلى قيس يدعو إلى الطلب بدم عثمان كذلك كان مسلم بن مخلد

(١) تاريخ الامم والملوك: ٢ : ٥٣٢.

قد أظهر الطلب بمثل ذلك فأرسل إليه قيس: «ويحك أعليّ تثب! فو الله ما أحبّ أن لي في ملك الشام إلى مصر واني قتلتك» فبعث إليه مسلمة: إني كافٍ عنك ما دمت أنت والي مصر، وتعامل قيس بمنتهى الحكمة مع الموقف فبعث إلى أهل خربتا: إنّي لا أُكرهكم على البيعة وإنّي كافٍ عنكم، فهادنهم وجنى الخراج ليس أحد ينازعه، وخرج أميرالمؤمنين عليه السلام إلى الجمل ورجع وهو بمكانه فكان كما ذكر: أثقل خلق الله على معاوية لقربه من الشام ومخافة أن يقبل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية، فكتب معاوية إلى قيس يتهدّده ويمنّيه:

«فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا، ولك سلطان العراقين إذا أظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان، وسلني ما شئت فإني أُعطيك واكتب إليّ برأيك»، فلما جاءه الكتاب أحبّ أن يدافعه ولايبدي له أمره ولا يتعجّل إلى حربه فكتب إليه:

«أمّا بعد فقد فهمت ما ذكرت من قتلة عثمان فذلك شيء لم أُقاربه، وذكرت أنّ صاحبي هو الذي أغرى به حتّى قتلوه، وهذا مما لم أطّلع عليهـ..وأمّا ما عرضته من متابعتك، فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كافٍ عنك وليس يأتيك من قبلي شيء تكرهه حتّى ترى ونرى إن شاء الله..» وقد فطن معاوية لما قد رآه في كتاب قيس أنّه قد رآه مقارباً مباعداً فكتب إليه:

«أمّا بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدّك سلماً، ولا متباعداً فأعدّك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وبيده أعنّة الخيل والسلام» فلمّا قرأ قيس كتاب معاوية ورأى أنّه لا يفيد معه المدافعة

والمماطلة أظهر له ما في نفسه فكتب إليه ـ ما فيه عنوان الصدق والأنفة ـ:

«أمّا بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيّ واستسقاطك إيّاي أتسومني عن طاعة أولى الناس بالإمارة وأقولهم بالحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك كطاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلّهم سبيلاً.. وأمّا قولك إنّي مالئ عليك مصر خيلاً ورجالاً فوالله إن لم أشغلك بنفسك حتّى تكون أهمّ إليك إنّك لذو جدّ والسلام»(١).

ونال معاوية من قيس بمكيدة فقال لأهل الشام: «لا تسبّوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنّه لنا شيعة قد تأتينا كتبه ونصيحته سراً» وافتعل كتاباً من قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على أهل الشام، فبلغ ذلك الإمام علي عليه السلام فأعظمه وأكبره وقد أعلمته عيونه بالشام، فبعث محمد بن أبي بكر إلى مصر، فقدم على قيس فقال له قيس :«ما بال أميرالمؤمنين ؟ ما غيّره؟ أدخل أحدٌ بيني وبينه؟ قال: لا، وهذا السلطان سلطانك قال: لا والله لا أُقيم، وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان لعزله، ولكن ذلك كلّه لم يحرّك فيه عوامل الارتداد عن مبادئه وولائه الثابت للإمام علي عليه السلام، وقد جاءه حسان بن ثابت يشمت به فقال له قيس: يا أعمى القلب والبصر؟ والله لولا أن أُلقي بين رهطي ورهطك حرباً لضربت عنقك، أُخرج عني. ثم أخاف مروان بن الحكم قيساً بالمدينة فخرج منها وسهل بن حنيف إلى علي عليه السلام فشهدا معه صفين ـ وقد جعله على رجالة البصرة فيها ـ فكتب معاوية إلى مروان يتغيظ عليه ويقول له : لو امددت علياً بمائة ألف مقاتل لكان أيسر عندي من قيس بن سعد في رأيه

(١) الكامل في التاريخ: ٣ : ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

ومكانته»[1].

وقد ظلّ قيس بن عبادة وفياً لقائده الإمام علي عليه السلام حتّى بعد شهادته وقال عروة في ذلك: كان قيس بن سعد مع عليٍّ في مقدّمته ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعد موت علي عليه السلام، فلمّا دخل الجيش في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل وقال لأصحابه: «ما شئتم ان شئتم جالدت بكم أبداً حتّى يموت الأعجل وإن شئت أخذت لكم أماناً قالوا: خذ لنا، ففعل فلما ارتحل نحو المدينة جعل ينحر كلّ يومٍ جزوراً»[2].

مالك بن الأشتر النخعي:

قال عنه الذهبي: إنّه ملك العرب أحد الأشراف والأبطال.. مطاعاً خطيباً فارساً قال عبدالله بن سلمة المرادي: نظر عمر بن الخطاب إلى الأشتر وأنا عنده فصعّد فيه عمر النظر ثم صوّبه ثم قال: «إنّ للمسلمين من هذا يوماً عصيباً» وقد شهد اليرموك وفقئت عينه يومئذ ويعد من أبرز القادة الشجعان المدبّرين للجهد المقاوم للارتداد على النهج المبدئي للإسلام فقد رحلوا من المدينة إلى الكوفة مع جمع من أعيانها منهم ثابت بن قيس وكميل بن زياد وصعصعة بن صوحان وجندب بن زهير وغيرهم يسألون الخليفة عثمان عزل سعيد بن العاص عنهم، وكان وجوه الناس وأهل المدينة يسهرون عنده، وكانوا يفيضون في أيّام الوقائع وأنساب الناس وأخبارهم وربّما ينتهون إلى الملاحاة ويخرجون منها إلى المشاتمة والمقاتلة، وقيل: إنّ سعيداً قال يوماً: إنّما هذه السواة

(١) الكامل في التاريخ: ٣ : ٣٥٦.

(٢) تاريخ الامم والملوك: ٢ : ٥٣٢.

بستان قريش فقال له الأشتر: السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا تزعم أنّه بستان لك ولقومك[1].

وقد سرى عشراً إلى الكوفة واستولى عليها وصعد المنبر فقال :هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم ان السواد بستان لأغيلمة من قريش والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم فمن كان يرى الله عليه حقا فلينهض إلى الجرعة[2] فخرج الناس فعسكروا بالجرعة فأقبل سعيد حتى نزل العذيب فجهز الأشتر ألف فارس مع يزيد بن قيس وعبدالله بن كنانة العبدي فقال: سيروا وأزعجاه وألحقاه بصاحبه، فإن أبى فأضربا عنقه، فأتياه فلمّا رأى منهما الجد رجعا وصعد الأشتر منبر الكوفة وقال: «يا أهل الكوفة ما غضبت إلا لله ولكم وقد وليت أبا موسى الأشعري صلاتكم وحذيفة بن اليمان فيئكم»[3].

وقد أبلى الأشتر في حروب الإمام علي عليه السلام مع أعدائه وبرزت براعته في الحزم وحسن التدبير، كما كان شأنه في حرب صفين، وخلاصتها على ما أورد ابن الأثير: أنّه لما وجه الإمام علي عليه السلام من المدائن معقل بن قيس في ثلاثة آلاف وأمره أن يأخذ على الموصل حتى يوافيه على الرقة فإنّه لما وصل إلى الرقة قال لأهلها ليعملوا له جسراً يعبر عليه إلى الشام فأبوا وكانوا قد ضمّوا سفنهم إليهم فنهض من عندهم ليعبر على جسر منبج وخلّف عليهم الأشتر فناداهم الاشتر وقال: أُقسم بالله لئن لم تعملوا جسراً يعبر عليه أميرالمؤمنين لأجرّدن فيكم السيف، ولأقتلن الرجال، ولآخذ من الأموال، فلقي بعضهم بعضاً وقالوا: انّه الأشتر إنّه قمن أن يفي لكم بما حلف عليه أو يأتي بأكثر منه، فنصبوا له جسراً

(١) تاريخ ابن خلدون: ٢ / ٥٨٩.
(٢) موضع قرب الكوفة.
(٣) تاريخ الإسلام: ٣ / ٤٣٢.

وعبر عليه علي عليه السلام وأصحابه، ولما انتهى جند الشام إلى سور الروم حمل عليهم الأشتر. وكان الإمام يخرج مرّة الأشتر ومرة حجر بن عدي الكندي، ومرة شبث بن ربعي، ومرة خالد بن معمر وزياد بن النفر، وكان الأشتر أكثرهم خروجاً، وقد جعله الإمام عليه السلام على خيل الكوفة.

وفي حمأة القتال كان زحف الأشتر نحو الميمنة وقد ثاب إليه الناس وتراجعوا من أهل البصرة، فلم يقصد كتيبة إلا كشفها ولا جمعاً إلا جازه وردّه، ولازال هو ومن رجع إليه يقاتلون حتّى كشف أهل الشام وألحقهم بمعاوية والصف الذي معه حتّى انتهى إلى الصف الذي حول معاوية. وفي ليلة قاسية سميت بـ(ليلة الهرير) اقتتلوا فيها حتّى الصباح، وقد كان الإمام علي عليه السلام يسير فيها بين الميمنة والميسرة ويأمر كلّ كتيبة أن تقدم على التي تليها حتّى أصبح والمعركة خلف ظهره والأشتر في الميمنة وابن عباس على الميسرة والإمام في القلب، وقد أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل فيها، وكان قد تولّاها عشية الخميس وليلة الجمعة إلى ارتفاع الضحى، وهو يقول لأصحابه: ازحفوا قيد هذا الرمح ويزحف بهم نحو أهل الشام، فإذا فعل بهم ذلك قال: ازحفوا قيد هذا القوس، ثمّ انّه دعا بفرسه فركبه وترك رايته مع حيان بن هوذة النخعي وخرج يسير في الكتائب ويقول: من يشتري نفسه ويقاتل مع الأشتر مظهراً ويلحق بالله؟ فاجتمع إليه ناس كثير، فرجع إلى المكان الذي كان فيه وقال لهم: «شدّوا شدّة فدى لكم خالي وعمّي ترضون بها الربّ وتعزُّون بها الدّين» ثم نزل وضرب وجه دابته وقال لصاحب رايته: أقدم بها وحمل على القوم وحملوا معه فضرب أهل الشام حتى انتهى إلى عسكرهم وقاتلهم عنده قتالاً شديداً، وقتل صاحب رايته. وقد أمدّه الإمام عليه السلام بالرجال، فلما رأى عمرو بن العاص ما قد حصل وخاف الهلاك قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا

اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال نعم، قال: نرفع المصاحف ثمّ نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل. وقد فطن الإمام عليه السلام لتلك الخدعة فقال للناس: «عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فإنّ معاوية وعمرواً وابن أبي معيط والضحاك ليسوا أصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، ويحكم ما رفعوها إلّا خدعة ووهنًا ومكيدةً فقالوا: لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله» فقال لهم عليه السلام: «**فإنّي إنّما أُقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه**» فقال له جماعة من القرّاء ـ الذين صاروا بعدئذٍ خوارج ـ : «يا علي أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دُعيت إليه وإلّا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عثمان» قال عليه السلام: «**فاحفظوا عنّي نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم**»، قالوا: ابعث إلى الأشتر فليأتك، فبعث إليه يزيد ابن هاني ـ وكان الأشتر قد ذاق مرارة الحرب وانتشى بالنصر فيها ـ فقال كلمته الجريئة والحاسمة: «ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني (فيها) عن موقفي إنّني قد رجوت أن يفتح الله لي» وارتفعت الأصوات وارتفع الهرج من ناحية الأشتر فقال ـ هؤلاء المستسلمون ـ: «والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل! فقال علي عليه السلام: هل رأيتموني ساررته؟ أليس كلّمته على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلّا والله اعتزلناك! فقال عليه السلام ليزيد بن هاني: قل له: أقبل إلي فإنّ الفتنة قد وقعت، فأبلغه ذلك فقال الأشتر: ألرفع المصاحف؟ قال: نعم، قال: والله لقد ظننت أنّها ستوقع اختلافاً وفرقةً إنها مشورة ابن العاهر! ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى ما يلقون؟ ألا ترى ما

فتح الله لنا؟ لن ينبغي أن أدع هؤلاء، وانصرف عنهم»[1].

ووقف القائد الأشتر عند المحنة الكبرى مذهولاً أن يدع المؤامرة تمرّ فلا يتفاداها، أو يترك قائده رهينة الفتنة الكبرى، وقد قال له يزيد بن هاني حين هم بالانصراف: «أتحبّ أن تظفر وأميرالمؤمنين يسلّم إلى عدوّه أو يقتل»؟ قال :«لا والله، سبحان الله» فأقبل وهو يقول للقوم: يا أهل الذلّ والوهن والله قد تركوا ما أمر الله به فيها وسنّة من أنزلت عليه؟ فأمهلوني فواقاً فإنّي قد أحسست بالفتح فقالوا: لا، قال: أمهلوني عدو الفرس فإنّي قد طمعت بالنصر قالوا: إذن ندخل معك في خطيئتك، قال: فخيروني عنكم متى كنتم محقّين؟ أحين تقاتلون وخياركم يقتلون؟ أفأنتم الآن إذا أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن محقون؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار؟!! قالوا: دعنا منك يا أشتر قاتلناهم لله وندع قتالهم لله، قال: خدعتم فانخدعتم ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود، كنّا نظنّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أرى مرادكم إلا الدنيا، ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة! ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً، فأبعدوا كما بعد القوم الظالمون، فسبّوه وسبّهم وضربوا وجه دابته بسياطهم وضرب وجوه دوابهم بسوطه فصاح به وبهم الإمام علي عليه السلام، فكفّوا. وقد رفض الأشتر بعدئذٍ أن يكتب في صحيفة العهد قائلاً: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي إن خطّ لي في هذه الصحيفة (اسم ولا موادعة) أوَلست على بيّنة من ربي من ضلال عدوي أولستم قد رأيتم الظفر؟! وحين قيل للإمام علي عليه السلام: إنّ الاشتر لا يقرّ بما في الصحيفة ولا يرى إلّا قتال القوم قال عليه السلام:

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣ : ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

«وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا، وأمّا الذي ذكرتم من تركه أمري وما أنا عليه فليس من أولئك فلست أخاف على ذلك يا ليت فيكم مثله اثنين! يا ليت فيكم مثله واحد يرى في عدوي ما أرى إذن لخفّت عليّ مؤونتكم ورجوت أن يستقيم لي بعض أودكم وقد نهيتكم فعصيتموني»[1].

وقد قدّر الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر صدق مواقفه واختبر فيه نظره في التدبير ولم يكد يرجع من صفين حتّى انتدبه لمهمة الولاية لمصر، وزودّه بتلك الوثيقة القيمة القدر من وثائق العهد التدبيري، والتي جئنا على ذكر أخصّ الموارد فيها، وقد تابعه الأعداء عند مسيره إلى مصر ليدبّروا المكيدة لقتله، وذكر في ذلك: انّه قد أتت معاوية عيونه بولايته لمصر فبعث إلى الجايستار ـ هو رجل من أهل الخراج ـ فقال له: إنّ الأشتر قد ولي مصر، فإن أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت فاحتل له بما قدرت عليه، فخرج الجايستار حتى اتى القلزم وأقام به، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم وأقام به، استقبله الجايستار فقال له: هذا منزل وهذا طعام وعلف، وأنا رجل من أهل الخراج، فنزل به الأشتر، فأتاه الدهقان[2] بعلف وطعام، حتّى إذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه إيّاها فلما شربها مات، وأقبل معاوية يقول لأهل الشام: «إنّ علياً وجّه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه»، فكانوا كلّ يوم يدعون الله على الأشتر، وقد أقبل الذي سقاه إلى معاوية فأخبره بمهلك الأشتر، فقام معاوية في الناس خطيباً فقال ـ متشفّياً بمقتله ـ: «فانه كانت لعلي بن أبي طالب يمينان قُطعت إحداهما يوم صفّين ـ يعني عمار بن ياسر ـ وقُطعت الأُخرى ـ يعني الأشتر ـ وقد سرّ عدوه عمرو بن العاص ذلك فقال

(١) الكامل في التاريخ: ٣ / ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٢) زعيم الفلاحين في فارس والانبار من بلاد العراق.

شامتاً: إن لله جنوداً من عسل»[1].

ونقل عن أبي مخنف أنّه لما قتل الأشتر وجد في ثقله رسالة من الإمام علي عليه السلام إلى أهل مصر وفيها وصف للأشتر أنّه: «عبداً من عباد الله لا تنام أيّام الخوف ولا ينكل عن العادي حذار الدوائر شديد على الكفار من حريق النار.. فاسمعوا له وأطيعوا، فإنّه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة، ولا قليل الحدّ، فإن أمركم أن تقدموا فاقدموا، وأن أمركم أن تنفروا فانفروا، فإنّه لا يقدم ولا يحجم إلّا بأمره، وقد آثرتكم به على نفسي لنصحه لكم وشدّة شكيمته على عدوّكم، عصمكم الله الهوى، وثبتكم على اليقين»[2].

وقد خلف الأشتر في دوره القيادي ابنه ابراهيم، وقد ذكره الذهبي في سير الأعلام: «بطلا من الأبطال وهو الذي قتل عبيدالله بن زياد بن أبيه يوم واقعة الخازر، وكان من أُمراء مصعب بن الزبير، وقد قتل مع مصعب في سنة اثنتين وسبعين»[3].

محمد بن أبي بكر:

صحابي جليل القدر ولد عام حجة الوداع وروي عن أبيه أبي بكر وعن أمّه أسماء بنت عميس وروى عنه النسائي وابن ماجة حديثاً[4] وثمّة ما يشير إلى اختيار أهل مصر لمحمد بن أبي بكر عاملاً عليهم على عهد الخليفة عثمان مكان ابن أبي سرح، وقد شكاه أهل مصر عند قدومهم إلى المدينة، وقد دخل عليه

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ٥ / ٦٥.

(٢) تاريخ الامم والملوك: ٥ / ٦٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٤ / ٣١٦.

(٤) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ٨ / ٥٨٩.

الإمام علي عليه السلام وكان متكلّم القوم فقال: «إنّما يسألونك رجلاً مكان رجل وقد ادّعوا قبله دماً فاعزله واقض بينهم» فقال: «اختاروا رجلاً أوله فأشاروا عليه بمحمد بن أبي بكر، فكتب عهده وخرج معهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح، فلما كان محمّد على مسيرة ثلاث من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعيرٍ مسرعاً فسألوه فقال: وجّهني أميرالمؤمنين إلى عامل مصر فقالوا له: هذا عامل أهل مصر وجاؤوا به إلى محمّد وفتّشوه فوجدوا أدواته تتقلقل فشقّوها فإذا فيها كتاب إلى أبي سرح فجمع محمّد من عنده من الصحابة ثمّ فكّ الكتاب فإذا فيه :«إذا اتاك محمّد وفلان وفلان فاستحلّ قتلهم وأبطل كتابه واثبت على عملك»، فلما قرأوا الكتاب رجعوا إلى المدينة وجمعوا طلحة وعلياً والزبير وسعيداً، وفضّوا الكتاب فلم يبق أحد إلا حنق. وحاصروا أولئك عثمان فلما رأى ذلك الإمام علي عليه السلام بعث إلى طلحة والزبير وعمار ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير فقال: هذا الغلام والبعير لك؟ قال: نعم، قال: فهذا كتابك فحلف أنّه ما كتبه وما أمر به، ثم قال: والخاتم خاتمك ولا تعلم به، وعرفوا أنّه خطّ مروان»[1].

وقد عهد الإمام علي عليه السلام لمحمد بن أبي بكر بولاية مصر في أخطر مرحلة وكتب إليه بعهد أمره فيه بتقوى الله والطاعة في السرّ والعلن وباللين على المسلمين وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبإنصاف المظلوم، وبالشدّة على الظالم، وبالإحسان ما استطاع، ثمّ انّ محمداً قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وجاء في خطبته: فإن لم يكن ما ترون به إمارتي وأعمالي طاعة لله وتقوى فاحمدوا الله عز وجل على ما كان من ذلك، فإنّه هو الهادي وإن رأيتم لي عمل غير الحق زائغاً فارفعوه إلي وعاتبوني فيه، فإنّي بذلك أسعد وأنتم بذلك

(١) تاريخ الإسلام: ٢ / ٢٥٢.

جديرون وأنّه كتب إلى معاوية لما ولي ولم يلبث شهراً حتى بعث إلى القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم فقال: يا هؤلاء إمّا أن تدخلوا في طاعتنا وإمّا ان تخرجوا من بلادنا، فبعثوا إليه: إنّا لا نفعل، دعنا ننظر إلى ما تصير إليه أُمورنا، وهم لمحمد هائبون فلما أتاهم ما كان من أمر معاوية وأهل الشام مع الإمام علي، وأن عليّاً وأهل العراق قد رجعوا عن معاوية خرجوا على محمد بن أبي بكر، فلما رأى محمّد ذلك بعث إليهم الحارث بن جمهان الجعفي فقتلوه، ثم بعث رجل من كلب فقتلوه، فبعث محمد من أهل مصر إلى خربتا فاقتتلوا فهزم جمع محمد، وقد بلغ ذلك معاوية وعمرو بن العاص[1].

ولما قصد عمرو بن العاص مصر قام محمّد بن أبي بكر في الناس خطيباً وانتدب معه نحواً من ألف رجل وخرج بهم واستقبل عمرو بن العاص بكنانة بن بشر وهو على مقدّمة محمّد، فأقبل نحوها فجعل لا تأتيه كتيبة إلّا شدّ عليها بمن معه، فيضربها حتّى يقربها بعمرو بن العاص، فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية فأتاه بالمدد وأحاط بكنانة وأصحابه، واجتمع أهل الشام عليهم من كلّ جانب وقد نزل كنانة عن فرسه ونزل أصحابه وكنانة يقول ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾[2] فضاربهم بسيفه حتّى استشهد، وأقبل عمرو بن العاص نحو مصر وقد تفرق عن محمّد بن أبي بكر أصحابه لما بلغهم قتل كنانة، فلما رأى ذلك خرج يمشي في الطريق حتّى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فآوى إليها، وجاء عمرو بن العاص حتّى دخل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج في طلب محمّد، حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق فدلّوه عليه

---

(١) تاريخ الامم والملوك: ٤ / ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) آل عمران: ١٤٥.

فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به نحو فسطاط مصر وقد مثّلوا به بأن أُدخل في جوف حمار ثم أُحرق عليه بالنار[1].

وقال الإمام علي عليه السلام لمّا بلغه مقتل محمد بن أبي بكر : «**إنه ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ، وَلَداً نَاصِحاً، وَعَامِلاً كَادِحاً، وَسَيْفاً قَاطِعاً، وَرُكْناً دَافِعاً**»[2].

عمار بن ياسر:

من أجلّاء الصحابة الذين وقفوا إلى جنب الإمام علي عليه السلام وباشروا الجهاد تحت لوائه وقد ذكر من مأثراته في صدر الإسلام انّه :جهد في بناء مسجد النبي صلى الله عليه وآله وكان المسلمون ينقلون لبنة لبنة، وعمار لبنتين فغشي عليه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول: «ويحك يا ابن سمية الناس ينقلون لبنة لبنة، وأنت تنقل لبنتين رغباً في الأجر وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية»[3]، وقد صدق وعد النبي صلى الله عليه وآله لعمار فقد كتبت له الشهادة في صفين وكان قد خرج في اليوم الثالث منها وخرج إليه عمرو بن العاص فاقتتلوا أشدّ قتال، وقال عمار: «يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى مَن عادى الله ورسوله وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلما أرى الله يعزّ دينه ويظهر رسوله أتى النبي صلى الله عليه وآله وهو فيما نرى راهب غير راغب ثم قبض النبي صلى الله عليه وآله فوالله ان يعده معروفاً بعداوة المسلم واتباع المحرم فأثبتوا إليه وقاتلوه» وقال لزياد بن النفر وهو على الخيل: احمل على أهل الشام فحمل وقاتله الناس

(١) تاريخ الامم والملوك: ٥ / ٦٩.
(٢) نهج البلاغة: كتاب ٣٥.
(٣) الكامل في التاريخ: ٣ / ٣٢٨.

وصبروا له وحمل عمار فأزال عمرو بن العاص عن موضعه. وفي ليلة الهرير جعل الإمام علي عليه السلام القراء مع عمار بن ياسر وقيس بن سعد وعبدالله بن بديل والناس على راياتهم ومراكزهم وزحف إلى أهل الشام، وخرج عبدالله بن أبي الحصين الازدي في القرّاء الذين مع عمار بن ياسر وقد خرج على الناس فقال: «اللهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته اللهم إنّك تعلم أني لو أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتّى تخرج من ظهري لفعلته، وإنّي لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين. وأيم الله لو ضربونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمت أنّا على الحق وأنّهم على الباطل» ثم قال: «من يبتغي رضوان الله ربه ولا يرجع إلى مال ولا ولد؟ فأتاه (جماعة) فمضى ومعه تلك الجماعة، فكان لا يمرّ بوادٍ من أودية صفين إلا تبعه من كان هناك من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ثمّ جاء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو المرقال، وكان صاحب راية علي عليه السلام ومضى معه، وعمار يقول: «تقدّم يا هاشم الجنة تحت ظلال السيوف والموت تحت أطراف الأسل، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه» وتقدّم حتى دنا من عمرو بن العاص فقال له: «يا عمرو بعت دينك بمصر تباً لك!» فقال له: لا، ولكن أطلب بدم عثمان، قال عمار: أنا أشهد على علمي فيك أنّك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله وأنّك إن لم تقتل اليوم تمت غداً، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم ما نيّتك، لقد قاتل صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله، وهذه الرابعة ما هي بأمرّ وأتقى، ثمّ قاتل عمار فلم يرجع حتى قتل[1].

(١) الكامل في التاريخ: ٣ / ٢٧٩ ـ ٣٨١.

ونقل عن حذيفة بن اليمان قول رسول الله ﷺ في عمار :«تقتله الفئة الباغية الناكبة عن الطريق وإنّ آخر رزقه ضياح من لبن».

وقال حبة بن جوين العرني: فشهدته يوم قتل وهو يقول: «ائتوني بآخر رزق لي في الدنيا» فأُتي بضياح من لبن في قدح أروح له حاقة حمراء فقال: «اليوم ألقى الأحبّة محمداً وحزبه، والله لو ضربونا حتّى يبلغ بنا سعفات هجر لعلمت أنّنا على الحق وأنّهم على الباطل»[1].

عبد الله بن عباس:

وكان يسمّى البحر لسعة علمه ويسمى (حبر الأمّة) وقد قال عنه عبدالله بن عتبة: «ما رأيت أحداً أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ ولا أفقه في رأي منهولاً أعلم بشعرٍ ولا عربية ولا بتفسير قرآن ولا بحساب ولا فيضة منه ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، وقد روى عن النبي ﷺ وعن عمر وعلي ومعاذ بن جبل وأبي ذر» وقد قاتل ابن عباس قتالاً شديداً بصفين وقد خرج في اليوم الخامس وخرج إليه الوليد بن عقبة فاقتتلوا قتالاً شديداً فسبّ الوليد بني عبدالمطلب فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى، وكان في يوم الأربعاء ان اقتتلوا قتالاً شديداً نهارهم كلّه ثمّ انصرفوا عند المساء فلما كان يوم الخميس صلّى الإمام علي عليه السلام بغلس وخرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم وكان على ميمنته عبدالله ابن بديل الخزاعي وعلى ميسرته عبد بن عباس وقد أبلى في ليلة الهرير.

وقد سبق الذكر لما كان من ابن عباس فيما ولاّه الإمام عليه السلام جانباً من مكاتباته معه وإنّ كلّ الذي قد جرى من مشاهد المواجهة بين الإمام علي عليه السلام

---

(١) الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٨٠ـ ٣٨١.

ومعه جمهور الصحابة والتابعين وبين أعداء الخلافة الشرعية وما نجم عنها من بروز النزعات المغالية في التخطئة والتكفير كان فيها الدلالة لما نوه به (جورج جرداق) انه: «صلابة العقيدة لا تحرجها الزلازل ولا يشوبها من البراكين وهن! وأيّ زلزال أشدّ على العقيدة من ائتمار أقله إجماع الخصوم وهم كثر أقوياء على التخطئة والتكفير وما إليهما من ذنوب! وأيّ بركان أحرق للعقيدة من التهديد بالموت المحتوم ثم من الموت نفسه، ثم كيف يكون الصراع من أجل العقيدة لا يوارب ولا يساوم ولا ينطوي على نفع ولا يدور في نطاق من الأثرة والاستعلاء اللهم إلا إذا كان نجاح العقيدة هو النفع والاستعلاء والاثرة»[1].

وقد صدق حدس الإمام علي عليه السلام فيما قد كان وما هو كائن اليوم من ضربين من الولاء والعداء له مما قد انبأ به والرسول محمد صلى الله عليه وآله :

«لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْـمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ولَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْـمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي وذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ (صلى الله عليه وآله) أَنَّهُ قَالَ: يَا عَلِيُّ لا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ولا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ»[2].

وعلى ذلك السبيل الذي مضى عليه الولاة والصحابة المتفانون اختتم الإمام علي عليه السلام عهده بالشهادة بضربة غادرة من أحد الثلاثة من الخوارج الذين تعهّدوا بقتل الثلاثة من أولياء الأُمور ممن ظنّوا أنّ قتلهم سيخلص الأمّة من محنتها في النزاع، وقد نجى الآخرون ممن تتوسّطهم الحراسات وتقوم فوق رؤوسهم، ليتلقّاها الإمام القائد علي بن أبي طالب وهو يؤدّي صلاة الفجر،

---

(١) تصنيف نهج البلاغة: حكمة ٤٥.

(٢) الإمام علي صوت العدالة الانسانية: ص ١٧.

بلا حراسة ولا رقيب من رقباء الدنيا، مطمئناً من نفسه، غير خائف أو محترس من أحد، انّه قد وفى غايته من العدل والإنصاف لمواطنيه، ولم تلجؤه الضربة الغادرة مع كلّ ما فيها من الألم المرّ إلى الغيظ، أو تخرجه عن حلمه، وقد أودع وصيّته لولديّه الحسن والحسين عليهما السلام مشتملة على الغاية من الحلم والسماحة ممتثلاً للقضية التي نذر نفسه لها:

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأنْ لاَ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِالْـحَقِّ، وَاعْمَلاَ لِلأجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً».

«أُوصِيكُمَا، وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي، بِتَقْوَى اللهِ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ».

«اللهَ اللهَ فِي الأَيْتَامِ، فَلاَ تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ.

وَ اللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.. وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلاَةِ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ. وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ، لاَ تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا.

وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ الله. وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لاَ تَتْرُكُوا الأمر بِالْـمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْـمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

وهكذا كان النداء الروحي والانساني للإمام يعلو على فجيعته وهو يواجه قدره المحبّب في الشهادة انّه على الموقف الحق، وقد أوصى أهله وعشيرته أن لا يلجأوا إلى الانتقام من قاتله، مبتعدين عن نخوة من مضى من أهل الجاهلية:

«يَا بَنِي عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْـمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ:

قُتِلَ أَمِيرُالْـمُؤْمِنِينَ. أَلاَ لا تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي. انْظُرُوا إذا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْـمُثْلَةَ وَلَوْ بَالْكَلْبِ الْعَقُورِ»(١).

وتوجّه الإمام القائد للناس بعدئذٍ بوصيته الحكمية القيّمة القدر:

«أيّها الناس كل امرئ لاق بما يفرّ منه في فراره والأجل مساق النفس والهرب منه موافاته كم اطردت الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلّا إخفاءه هيهات! علم مخزون!».

«أَمَّا وَصِيَّتِي فَالله لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ أَقِيمُوا هَذَيْنِ اَلْعَمُودَيْنِ وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ اَلْـمِصْبَاحَيْنِ وَ خَلاَكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا حُمِّلَ كُلُّ اِمْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ وَ خُفِّفَ عَنِ اَلْجُهَلَةِ رَبٌّ رَحِيمٌ وَ دِينٌ قَوِيمٌ وَ إِمَامٌ عَلِيمٌ أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ وَ أَنَا اَلْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ وَ غَداً مُفَارِقُكُمْ غَفَرَ الله لِي وَ لَكُمْ إِنْ ثَبَتَتِ اَلْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ اَلْـمَزَلَّةِ فَذَاكَ وَ إِنْ تَدْحَضِ اَلْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ وَمَهَبِّ مَهَابِّ رِيَاحٍ وَ تَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ اِضْمَحَلَّ فِي اَلْـجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا وَ عَفَا فِي اَلْأَرض مَخَطُّهَا وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً وَ سَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظَكُمْ هُدُوئِي [لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي] وَ خُفُوتُ إِطْرَاقِي وَسُكُونُ أَطْرَافِي فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ اَلْـمَنْطِقِ اَلْبَلِيغِ وَ اَلْقَوْلِ اَلْـمَسْمُوعِ».

«وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ اِمْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاَقِي غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي وَيَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي»(٢).

وبذلك رسم الإمام علي عليه السلام بتلك السيرة المبدئية الفاضلة في السلوك،

---

(١) نهج البلاغة: وصيته٤٧.

(٢) نهج البلاغة: كلام ١٤٩.

وفي تلك المواقف الحكيمة في التدبير القيادي الصورة النموذجية والحية لقائد توّخى بالصدق خدمة شعبه، وأعطى للإنسانية كلّها درساً في صدق المبادئ والمواقف الموافقة لها لمن يتوخّى من الحكام صادقاً أن يخدم شعبه ووطنه وعالمه الإنساني، وكان في مجمل سيرته مع الله تعالى ومع الناس قد جسّد وبالتمام كلّ سمات وخصائص السيرة الرسالية لمن وصفهم الله سبحانه بـ(عباد الرحمن) :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأرض هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْـجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إذا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَـهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْـحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِـحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِـحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلى الله مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * وَالَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (١).

***

(١) الفرقان ٦٣ ـ ٧٤.

المبحث السابع

مطالعة في الفكر التدبيري للإمام علي عليه السلام

اشتملت مقرّرات وبلاغات الإمام عليه السلام الواردة ضمن رسائله وخطبه ووصاياه على أبعاد حيوية من الفكر التدبيري، وفي مجالات من النشاط العام والخاص، تضمنت ما يختصّ بتدبير الدولة وسلطات الحكم، وتدبير شؤون الأفراد، وفيها جوانب من علم النفس السلوكي عامّة، والتدبيري منه خاصّة، نورد الأخص منها في الآتي مع ما يقتضي من الشرح والإيضاح.

■ وصف الإمام عليه السلام الكيان المنتظم للدولة بالنهر العظيم، يكون من طبيعة معطياته ما يكون من طبيعة الماء الجاري فيه، وبمثل ذلك ما يكون للدولة من ثمار عملها ما يكون من خصائص الأفراد في موقع المسؤولية فيها:

«**المِلكُ كالنَّهرِ العظيم تَستمدُّ منهِ الجداولُ فإنْ كانَ عذَباً عذبتْ وإن كانَ مِلحاً ملحتْ**» (حكمة: ٢٦).

■ وضع الإمام عليه السلام قواعد معتبرة للسلوك التدبيري تضمن الاعتدال في مسيرة العمل، خاصة بالنسبة للدور القيادي من العمل:

ـ «**حصّن علّمك من العجب، ووقارك من الكبر، وعطاءك من السرف، وحزامتك من العجلة، وعقوبتك من الإفراط، واستماعك من سوء الفهم، وعفوك من تعطيل الحدود، وصمتك من العيّ، واستئناسك من النداء، وخلواتك من الإضاعة،**

وغراماتك من اللجاجة، وروغاتك من الاستسلام، وحذراتك من الجبن» (حكمة: ٦٥١).

ـ «انظُرْ ما عندَك فلا تَضَعْهُ إلاّ في حقّه، وما عند غيرِك فلا تأخُذْهُ إلاّ بحقّه» (حكمة: ٦٧١).

ـ «إنْفَرِدْ بِسِرِّكَ وَلاَ تُودِعْهُ حَازِماً فَيَزِلَّ، وَلاَ جَاهِلا فَيَخُونَ».

ـ «لا تتبع الذنب العقوبة واجعل بينهما وقتاً للاعتذار».

ـ «لا تطمعْ في كُلِّ ما تسمع».

ـ «إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطأطئ لها فإنّها تتخطاك».

ـ «الحازم يجمع وجوه الرأي في الأمر المُشكلِ، ثم يضرب بعضه ببعضٍ حتى يخلص إليه الصواب» (حكمة ٨٤٢).

ـ «إذا أحْسَسْتَ مِن رأيِك بإكْداد، ومِن تَصوُّرِك بفساد، فاتَّهِمْ نفسَك بمجالستك لعامّيّ الطبع أو لِسَيِّءِ الفِكْر، وتَدارَكْ إصلاحَ مَزاجِ تَخيّلك بمكاثرة أهل الحكمة، ومجالسةِ ذوي السَّداد؛ فإنّ مُفاوضتَهم تُريحُ الرأيَ المكدود، وتَرُدُّ ضالةَ الصواب المفقود» (حكمة ٨٧٩).

ـ «إذا احتَجْتَ إلى المَشْورةِ في أمرٍ قد طَرأَ عليك، فاسْتَبْدِهِ ببداية الشُّبّان؛ فإنّهم أحَدُّ أذهاناً، وأسرَعُ حَدَساً، ثمّ رُدَّه بعد ذلك إلى رأي الكُهول والشيوخ ليَستَعقِبوه ويُحْسِنوا الاختيارَ له؛ فإنّ تجربتَهم أكثر» (حكمة ٨٦٦).

ـ «مَن فَسَدت بِطانَتُه كان كمن غَصَّ بالماء؛ فإنّه لو غَصّ بغيره لأساغَ الماءُ غصَّتَه» (حكمة ٥٢٦).

ـ «**إذا شِئْتَ أنْ تُطَاع فَسَلْ مَا يُسْتَطَاع**» (حكمة ٥٦٣).

• أفاد الإمام عليه السلام بمجال المعرفة لرجال التدبير من خلال ما يكون في مبتدأ الشوط من سلوكهم الوظيفي وفي ذلك كان قوله عليه السلام:

«**الْوِلاَيَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ**» (حكمة ٣٠٥).

وورد في الشرح ان الرجال يعرفون كما تعرف الخيل بالمضمار ـ وهو الموضع أو المدة التي تضمر فيها الخيل ـ فمن الولاة من يظهر فيه أخلاق حميدة، ومنهم من يظهر منه أخلاق ذميمة وذكر فيه قول الشاعر:

سكرات خمس إذا منـي المر ء فيها صار عرضة للزمان
سكرة المال والحداثة والعشـ ق للشراب والسلطان

ومثله قوله عليه السلام: «**فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ**» (حكمة ٢٠٧).

وذكر في معناه: انك لا تعلم أخلاق الناس الا في التجربة، واختلاف الاحوال عليه، وقديماً قيل: «ترى الفتيان كالنحل، وما يدريك ما الدّخل»، وقال الشاعر:

لا تمدحن إمرءاً حتى تجربه ولا تذمنه الا بتجريب[1]

وفي أدبيات السلوك التدبيري ذكر عليه السلام جملة مبادئ حيوية، من بينها:

ـ « **ينبغي لِمَن وَلِيَ أمرَ قومٍ أن يبدأ بتقويمِ نفسِه قبلَ أن يَشْرَعَ في تقويمِ رعيّتِهِ، وإلاّ كان بمنزلةِ مَن رام آستقامةَ ظِلِّ العُود قبل أن يستقيمَ ذلك العُود**» (حكمة: ١١٥).

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٢١١.

ـ «مَنْ ساسَ نفسَهُ بالصبْرِ على جهْلِ الناسِ صَلُحَ انْ يكونَ سائِسَاً».

ـ «إذا قوّي أمر الوالي في عملهِ حرّكته ولاّته حسب ما هو مركوزٌ في طبعهِ من الخيرِ أو الشرِ» (حكمة: ١١٦).

ـ «عَجَباً للسلطان، كيف يُحسِن وهو إذا أساء وَجَد مَن يُزكّيه ويمدحُه؟!» (حكمة ٧٩١).

ـ «لا تخدمن رئيساً كنت تعرفه بالخمول، وسمت به الحال وتعرف منك انك تعرف قديمه، فإنه وإن سرّ بمكانك في خدمته، إلا انّه يعلم العين التي تراه بها، فينقبض عنك بحسب ذلك» (حكمة ٨٥٦).

ـ «لا تعاونوا الدول المفتلة، وتشربوا قلوبكم بعضها، فتدبروا بإقبالها» (حكمة: ٨٧٣).

ـ «اصبرْ على سلطانك في حاجاتك، فلست أكبر شغله، ولا بكَ قِوامُ أمره» (حكمة: ٨٧٧).

ـ «يَنْبَغِي للْملك أَن يعْمل بخصال ثَلَاث: تَأْخِير الْعقُوبَة فِي سُلْطَان الْغَضَب، وتعجيل الْمُكَافَأَة للمحسن، وَالْعَمَل بالأناة فِيمَا يحدث فَإِن لَهُ فِي تَأْخِير الْعقُوبَة إِمْكَان الْعَفو، وَفِي تَعْجِيل الْمُكَافَأَة بِالْإِحْسَانِ المسارعة فِي الطَّاعَة من الرّعية، وَفِي الأناة انفساح الرَّأْي، واتضاح الصَّوَاب» (حكمة: ١١٧).

ـ «أفضلُ الولادة مَن بقي بالعدلِ ذِكره، واستمدَّه مَن يأتي بعده» (حكمة: ٢٠٦).

ـ «لا تقبل الرئاسة على اهل مدينتك، فانهم لا يستقيمون لك الا بما تخرج من شرط الرئيس الفاضل» (حكمة: ٢٣٢).

ـ «**اذا كان الراعي ذئبا، فالشاة من يحفظها؟**» (حكمة: ٤١٨).

ـ «**من ملك استاثر**».

عنوان واضح من عناوين السياسة كانت له ولا تزال آثاره ومشاهده في التاريخ السياسي للعالم، كانت فيه مقالة الإمام عليه السلام:

«**تَذِلُّ الأُمور لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْـحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ**».

ويذكر بن ابي الحديد في شرحه لذلك: انه إذا تأمّلت أحوال العالم وجدت صدق هذه الكلمة ظاهراً فلو شئنا أن نذكر الكثير من ذلك لاحتاج في تقييده إلى مثل كتابنا، فإنّه قد دبرت قريش في حجابة العير بأن تضرب على الصعب والذلول لترفع عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن اللطيمة (قافلة تحمل العطور) فكان هلاكها في تدبيرها، وكسرت الأنصار يوم أُحد بأن أخرجت النبي صلى الله عليه وآله عن المدينة ظناً منها انّ الظفر والنصرة كان بذلك، فكان سبب عطبها وظفر قريش بها، ولو أقامت بين جدران المدينة لم تظفر قريش بها.

ودبّر أبو مسلم الدولة وقام بها حتى كان حتفه في تدبيره، وكذلك جرى لأبي عبدالله المحتسب بن مسلمة رئيس الرؤساء في إخراج البساسيري عن العراق حتّى كان هلاكه على يده، وكذلك أيضاً انعكس عليه تدبيره في إزالة الدولة البويهية من الدولة السلجوقية ظناً منه أنّه يدفع الشرّ بما هو أشرّ منه، وأمثال هذه ونظائرها أكثر من أن تحصر[1].

ـ «**لا عقل كالتدبير**».

لم ترد كلمة تصف التدبير بكونه عملية عقلية كمثل هذه العبارة في إيجازها

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩ / ١٩٧ ـ ١٩٨.

وعمق دلالتها.

ـ«**آلَةُ الرِّئاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ**».

وذكر بشأنها قول معاوية لخير بن أوس الطائي: «من سيدكم اليوم؟ قال: من أعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا، واغتفر زلتنا»، وجاء من جملة ما سأل به الإمام علي عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام: «فما الحلم؟، قال كظم الغيظ، وملك النفس»، وعن المجد قال: «أن تعطي في الغرمِ وتعفو عن الجرم»، وعن السؤدد، قال: «إتيان الجميل وترك القبيح»[1].

ـ «**مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ اَلسَّاخِطُ عَلَيْهِ**» (حكمة: ٢٥).

الواضح من التاريخ السياسي انّ أغلب الثورات ضدّ نظم الحكم كانت تقف وراءها هذه الحالة من اقتناع متولي الأُمور من المستبدين الطغاة بأنفسهم من دون الاكتراث بسخط الناس عليهم.

ـ «**السلطانُ الفاضلُ هو الذي يحرسُ الفضائل، ويجودُ بها لَمن دونَه، ويرعاها مِن خاصَّته وعامَّتِه، حتى تكثُر في أيامه، ويتحسَّن بها مَن لم تكن فيه**» (حكمة: ٢٣٦).

ـ «**الظَّفَرُ بِالْحَزْمِ وَ اَلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ اَلرَّأْيِ وَ اَلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ اَلْأَسْرَارِ**».

ـ «**قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ، عِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ...**».

ـ والواضح تماما أنّ الهمة، والصدق، والمروءة، والشجاعة، والأنفة، والعفة، والغيرة، والحزم، وأمانة الرأي... ـ هي إعتبارات هامة لمزايا الدور الريادي في القيادة.

---

(١) نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة: ١٤ / ص٤٥٦ ـ ٤٥٧.

■ «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ».

ـ اعتبار قيمي في مشهد العمل التدبيري يوازن بين المدعمين الايجابي والسلبي في العمل، ومثله كان التوجيه بالصفح فيما ينبغي ذلك سبباً في كسب ولاء العاملين، وكمثل ما هو تدّبر الأُمور بمقتضى العدل والحكمة.

ـ «فعليكم بالجد والاجتهاد، والتأهّب والاستعداد».

ـ «إصفح عن الدولة تكن لك العامة».

فإن عجز الشخص وهو في موضع المسؤولية عن تدبير شؤونه بالعدل هو العنوان لعجزه عن مهمة التدبير مطلقاً وفي ذلك كان قول الامام عليه السلام:

«من عجز عن تدبير أمره فهو عن التدبير أشد عجزاً».

وفي مجالات علم النفس التدبيري وردت للإمام عليه السلام حكمه البليغة:

ـ «سَعِ اَلنَّاسَ بِوَجْهِكَ وَ مَجْلِسِكَ وَ حُكْمِكَ وَ إِيَّاكَ وَ اَلْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ»(١).

ـ «كُنْ فِي اَلْفِتْنَةِ كَابْنِ اَللَّبُونِ لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَ لاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَب».

ـ «صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ يُقْبِلُ بِإِقْبَالِـهَا وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا».

والمقصود بالدّول: هو الآراء المتداولة على مقتضى الحكمة، وأشير في مثال حيوي لها لقول الصولي: اجتمع بنو برمك عند يحيى بن خالد في آخر دولتهم وهم يومئذ عشرة فأداروا بينهم الرأي في أمر فلم يصلح لهم، فقال يحيى: إنّا لله ذهبت والله دولتنا، كنا في إقبالنا يبرم الواحد منا عشرة آراء مشكلّة في وقت واحد، واليوم نحن عشرة في أمر غير مشكل، ولا يصحّ لنا فيه رأي، والله نسأل

(١) خفة وطيش.

حسن الخاتمة[1].

ـ «ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ وَ ثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ».

ذكر في ان الحزم ملكة توجبها كثرة التجارب، وأصله قوة العقل، فإنّ العاقل خائف أبداً، والأحمق لا يخاف، وإن خاف كان قليل الخوف، ومن خاف أمراً توقّاه، فهذا هو الحزم، وكان أبو الأسود الدؤلي من عقلاء الرجال، وقد أسن، ـ وحكى المبرد انّ زياداً قال له: «لولا ضعفك لأستعملناك على بعض أعمالنا»، فقال: أللصراع يريدني الأمير؟، قال زياد: انّ للعمل مؤونة، ولا أراك إلا تضعف عنه، فقال أبو الأسود:

زعم الامير أبو المغيرة انني ... شيخ كبير قد دنوت من البلى

صدق الأمير لقد كبرت وانما ... نال المكارم من يدب على العصا

يا أبا المغيرة رب أمرٍ مبهمٍ ... فرجته بالحزم مني والدها[2]

ـ «وَمَنِ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا».

ذكر بشأنها انّ عبدالله بن طاهر كان يذهب إلى هذا المذهب ويقول: «لئن اخطئ مع الاستبداد ألف خطأ، أحبّ إليّ من أن أستشير فأرى بعيداً لنقص الحاجة»، وقال بشار:

اذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن ... بعزم نصيح أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي عدة للقوادم[3]

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨ / ٤١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨ / ٣٩٧.

ـ «**مَنِ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الآراء عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَأ**».

أشير إلى انّ المقصود فيه النهي عن تضييع الفرصة في الرأي، ثمّ محاولة الاستدراك بعد فوات وجه الرأي، فذاك هو الرأي الدبري، وفيه قول الشاعر:

وخير الرأي ما استقبلت فيه ... وليس بأن تتبعه اتباعا

ـ «**اللجاجة تسل الرأي**».

وذكر أنّه مشتق من قوله عليه السلام: «**لا رأي لمن لا يطاع**»، لأنّ عدم الطاعة هو اللجاجة، وهو خلق يتركّب من خلقتين، أحدهما الكبر، والأُخرى الجهل بعواقب الأُمور، وأكثر ما يعتري الولاة لما يأخذهم من العزة الأثم[1].

ـ «**قِيمَةُ كُلِّ اِمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ**».

وفي العبارة مجال التقييم لجهد الإنسان فيما يتقنه من اوجه النشاط، وذكر الشريف الرضي انّ هذه الكلمة: لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة[2].

ـ «**مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ابْتُلِيَ بِالْـهَمِّ وَلَا حَاجَةَ للهِ فِيمَنْ لَيْسَ للهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ**».

وهي دعوة للهمة والإخلاص في العمل، وفيها لله نصيب من صدق النوايا، وزكاة للمال المستحصل من الجدّ المخلص للنفوس الخيرة يعود عليها وعلى الناس بالنفع العام.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨ / ٤٠٨، ٤١٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٤٦٧.

ـ «النَاسُ ثَلاثَةٌ : عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ غَاوٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إلى رُكْنٍ وَثِيقٍ».

أفاد عليه السلام بتقرير عن التفوق لأهل العلم على أهل المال في خصائص اعتبارية للإنسان:

ـ «اَلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْـمَالِ اَلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ اَلْـمَالَ وَاَلْـمَالُ تَنْقُصُهُ اَلنَّفَقَةُ وَاَلْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى اَلْإِنْفَاقِ وَ صَنِيعُ اَلْـمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ».

ـ «مَعْرِفَةُ اَلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ بِهِ يَكْسِبُ اَلْإِنْسَانُ اَلطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ اَلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَاَلْعِلْمُ حَاكِمٌ وَ اَلْـمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ».

ـ «هَلَكَ خُزَّانُ اَلْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَاَلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ اَلدَّهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُـهُمْ فِي اَلْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ».

ـ «هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ».

ومثله قوله عليه السلام «لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»، فإنّ عقل المرء وفضله يظهر بما يصدر عن لسانه، فكأنّه قد خبّئ تحت لسانه فإذا تحرك اللسان انكشف[1]، ويعبر ذلك عن جانب من علم النفس بكون طبيعة السلوك السوي مرتبط بالجانب العقلي الذي تنسحب بمقتضاه العواطف لجهة القلب، بينما ينسحب السلوك غير العقلاني لجهة اللسان فيكون الفارق ما بين منطق العقلاء وغير العقلاء.

ـ «اعْتَصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَادِهَا».

وفيه حق الالتزام بالعهود وعقدها بالرجال اهل النجدة الذين يوفون بها.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨١.

ـ «**عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لاَ تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ**».

اشير إلى ان معناه: ان عليكم بطاعة عاقل لا تكون له جهالة تعتذرون بها عند البراءة من عيب السقوط في مخاطر اعماله، فيقل عذركم في اتباعه[1].

ـ «**مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التُّهَمَةِ فَلاَ يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**».

ـ «**الْفَقْرُ الْـمَوْتُ الْأَكْبَرُ**».

.. بل ان الفقر عند الإمام عليه السلام هو العنوان والقضية الأكبر، وهو يصفه بالرجل الباغي الذي يودّ لو يظفر به ليقتله ويخلص الناس من شروره، وهو هكذا الاصل في دعوات الاصلاح والعدالة الإنسانية ما تقوم عليه مناهج الإصلاح لـحسن سياسة الناس، أن يكون بعض الناس يسوس، وبعضهم يساس، وكان من يساس لا يسقيم أن يساس من غير أن يكون فقيراً محتاجاً لتبلغ به السياسة الرشيدة غايتها، وبذلك فقد تبيّن على وفق ما يقرّر الإمام عليه السلام : «انّ الفقر هو السبب الذي به يقوم حسن السياسة» وفي ذلك كانت دعوة الإمام علي عليه السلام للعدالة الاجتماعية هي الأرقى والأكثر تقدّماً في بعدها الإنساني والتاريخي من كلّ ما الدعوات التي تسمّت بعدئذ بالدعوات الاشتراكية.

ـ «**مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ**».

وفيه معنى ان يسدي المرء حق من يستحق ذلك، وأن لا يكون ذلك بمثابة التملّق والخضوع له.

ـ «من بين الثلاثة التي يضر الناس أنفسهم فيها «**التفريط في العمل اتكالاً على القدر**» (حكمة: ٧).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٨٢.

ومن القيم الاعتبارية في النشاط العملي قوله عليه السلام :

ـ «**إيّاكم والكسل، فإنّه مَن كَسِلَ لم يُؤدِّ لله حقّاً**» (حكمة: ٨).

ـ «**إِحْسبُوا كَلاَمَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَأَقِلُّوهُ إلاَّ فِي الْـخَيْرِ**» (حكمة: ٨١).

ـ «**يا حمّلة العلم، أتجهلونه، فإنما العلم لمن عَلِمَ ثم عَمِلَ، ووافقَ عملهُ عِلمهُ، وسيكون أقوامُ يحملون العلم، لا يجاوز تراقيهم تخالف سريرتهم، ويخالفُ عملَهم عِلمهُم، يقعدون خلقاً، فيباهي بعضهم بعضاً حتى أنَ الرجلَ ليغضبُ على جليسهِ أن يجلس إلى غيرهِ، أولئك لا تصعدُ أعمالهم في مجالسِهم تلك إلى الله سبحانه**» (حكمة: ٩٧).

ودعوة إلى أن يعطي العلم حقّه من العمل، والعمل حقّه من العلم، فتكون زينة العقل بالعلم، والعلم بالحلم والصدق، ويكون بين ذلك مزايا فضيلة الخلق الرفيع ما كان فيه قوله عليه السلام :

«**ليس شيء أحسن من عقل زانه علم، ومن علم زانه حلم، ومن حلم زانه صدق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق زانه تقوى، انّ ملاك العقل، ومكارم الأخلاق صون العرض، والجزاء بالغرض، والأخذ بالفضل، والوفاء بالعهد، والإنجاز للوعد...**» (حكمة: ٩٩).

ومعيار اقتصادي من معايير العمل يقف عنده الإمام عليه السلام بدعوته إلى التأني بالعمل لغرض الإجادة فيه :

«**لا تَطلُب سُرعَةَ العَمل وَاطلُبْ تَجويدَهُ؛ فَإنَّ النّاسَ لا يَسألونَ في (كَمْ فَرَغَ مِنَ العَمَلِ؟) إنَّما يَسألونَ عَن جَودَةِ صَنعَتِه**» (حكمة ١٠٣).

ـ وتكون توليفة الأخلاق في عشرة خصال يقتضيها الدور القيادي من

المسؤولية تصحّ أن تكون المبادئ المثلى لشروط الاهلية للمسؤولية جاء على ذكرها الإمام عليه السلام وهي تشتمل على: «**السخاء، والحياء، والصدق، وأداء الأمانة، والتواضع، والغيرة، والحلم، والصبر، والشكر**»[1].

«**العَدلُ صورةٌ واحدة، والـجَورُ صُوَرٌ كثيرة**».

مبدأ له في السياسة والقضاء اعتباره، وقد علّل الإمام عليه السلام ما يكون من أمر الجور والعدل في واقع السلوك: «**ولهذا سَهُل ارتكابُ الـجَور وصَعُب تَحَرّي العدل، وهما يُشبهانِ الإصابةَ في الرمايةِ والخطأَ فيها، وإنَّ الإصابة تحتاج إلى ارتياض وتَعَهُّد، والخطأُ لا يحتاج إلى شيءٍ من ذلك**» (حكمة: ١٨٦).

«**غَضَبُ الْـجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضَبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ**» (حكمة: ٢٥٥).

إن العاقل يحتسب لفعله ويقدّر نتائجه، والجاهل يُعتدّ بقوله فيكون فيه ما يغضبه بغير ما تحكم في غضبه.

«**الكلمةُ إذا خرجَتْ من القلب وقَعَتْ في القلب وإذا خَرَجَتْ مِنَ اللّسان لم تُجَاوَز الآذَانِ**» (حكمة ٢٧٩).

وهي معيار الصدق في الكلمة التي تجد مكانها في النفوس، على خلاف الكلمات التي لا تعبّر عن حالة الصدق، فيكون مدارها اللسان لا القلب.

«**ذو الهِمّة إنْ حُطّ فَنفسُهُ تأبى إلاّ عُلوّاً كالشعلةِ في النارِ يُصوّبها صاحبها وتأبَى إلاّ ارتفاعاً**» (حكمة: ٣٠٤).

ـ «**الحركة لقاح الجد العظيم**» (حكمة: ٣٠٧).

وصف بالغ الدقّة للحركة الفاعلة، المنتجة انّها عنوان الجدّ والمثابرة.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ١٧٧.

«**إذا أيسرتَ فكلُّ الرجالِ رجالـُك وإذا اعسرتَ أنكرَكَ اهلـُك**» (حكمة: ٣٠٩).

معرفة كاملة للإمام عليه السلام للناس وللحياة ما يكون من تولية التافهين من الناس لأُمور الناس والذي يكون فيه البلاء منهم وفيهم وفي ذلك أيضاً كان قوله البليغ:

«**السِّفْلة إذا تَعلَّمُوا تكبّروا، وإذا تَمَوّلُوا استطالوا**».

وبعكس ذلك ما يكون من تولية الصلحاء من الناس، أنهم:

«**والعِلْية إذا تَعلّموا تَواضعوا، وإذا افتَقَروا صالُوا**» (حكمة: ٣٢١).

ـ «**العقلُ يَظهَر بالمعاملة، وشِيَمُ الرجال تُعرَف بالوِلاية**» (حكمة ٤٠١).

وحكم في حياة الناس مع ولاة الأُمور يصوغها الإمام عليه السلام في سؤال :

ـ «**إذا كان الراعي ذئباً ، فالشاة من يحفظها**» (حكمة: ٤١٨).

ويقف بنا الإمام عليه السلام على أُطروحة من نتاج ما يكون من نظر الناس بما يكون من شأن من سلف حكمهم هي من تداعيات المواقف المعلنة أو المكبوتة من حياة الناس مع أولياء الأُمور:

«**إذا انقضى مُلكُ قومٍ خُيـِّبُوا في آرائِهم**» (حكمة: ٤٦٥).

«**من أيقظ فتنة فهو آكلها**» (حكمة: ٥٢٨).

ـ ومن قيّم السلوك العام للناس يصوغ لنا الإمام عليه السلام حكماً بليغةً:

«**إصحبِ الناسَ بأيِّ خُلُقٍ شِئْتَ، يَصحبوكَ بِمثْلِه**» (حكمة: ٥٣٩).

«**انّ الإنسان مطبوع على كرم ولؤم، فإن قوي الحياء عنده قوي الكرم، وإن**

ضعف الحياء قوي اللؤم» (حكمة: ٥٥٤).

ويميز الإمام عليه السلام بين الأساليب التي يقتضي التعامل فيها مع الناس بحسب اوضاعهم ومراكزهم:

«عاملوا الاحرار بالكرامة المحضة، والاوساط بالرغبة، والرهبة، والسفلة بالهوان» (حكمة: ٥٧٤).

وتكون للإمام عليه السلام في المشورة اطروحة معتبرة من علم النفس السلوكي تعتد بالجانب العملي والموضوعي في مدار النشاط، يورد فيها مبادئ حيوية منظمة لهذا الجانب الحيوي من نشاط الدولة:

«إنصح لكلّ مستشير، ولا تستشر إلا الناصح اللبيب».

«اجْعَلْ سِرَّكَ إلى واحدٍ، ومشورتَكَ إلى ألفٍ».

«لَا تدخل فِي مشورتك بَخِيلًا فيقصر بفعلك، وَلَا جَبَانًا فيخوفك مَا لَا تخَاف، وَلَا حَرِيصاً فيعدك مَا لَا يُرْجَى، فَإن الْبُخْل والجبن والحرص طبيعة وَاحِدَة، يجمعها سوء الظن بالله» (حكمة: ٥٧٩).

وفي موازنة بين المكافاة المادية والمعنوية بقدر ما يتاح من ذلك كان قول الإمام عليه السلام:

«إذا قَصُرَتْ يَدُكَ عَنِ الْـمُكَافَأَةِ، فَلْيَطُلْ لِسَانُكَ بِالشُّكْرِ».

ويكون البذل من ذلك ما يليق بكل فئة، وما يتسع لها من معالم التقدير المادي والمعنوي، وجها من وجوه علم النفس التدبيري:

«ابذل لصديقك مالك، ولمعرفتك رفدك ومخضرك، وللعامة بشرك، وتحننك،

ولعدوك عدلك وانصافك، واحنن بدينك وعرضك عن كلّ واحد» (حكمة:٥٨٦).

وان يستخدم العقل وسيلة للقيا الناس من يكون لهم من ذلك ما يعتدون به على القرب أو البعد من مجال التواصل:

«جالس العُقلاء أعْداءَ كانوا أم أصدقاء، فالعقل يقعُ على العقل».

■ ويضع الإمام عليه السلام للتكريم اعتباراته المبدئية التي تتجاور اعتبارات السلطة والمال، وانّ على المسؤول أن يضع هذه الحقيقة أمام باصرته:

«إذَا أَكْرَمَكَ النَّاسُ لِـمَالٍ أو سُلْطَانٍ ، فَلا يُعْجِبَنَّكَ ذَلِكَ ، فَإنَّ زَوَالَ الْكَرَامَةِ بِزَوَالِـهَا ، وَلَكِنْ لِيُعْجِبْكَ إنْ أَكْرَمُوكَ لِعِلْمٍ أو لأَدَبٍ أو لِدِينٍ» (حكمة: ٥٨٢).

■ ويصف الإمام عليه السلام الأحمق من الناس بأنّه من يعرف حقائق الأُمور ويتجاهلها:

«وإن أُمرؤا عرف حقيقةَ الأمر وزهد فيهِ لأحمق، وإن أُمرؤاً جهل حقيقة الأمر مع وضوحهِ لجاهل» (حكمة: ٥٩٩).

■ وضع الإمام عليه السلام قاعدة للاستشارة الناصحة، ولغير الناصحة منها:

«إنصح لكلّ مستشيرٍ، ولا تستشر إلا الناصح اللبيب» (حكمة ٦١٨).

«إستشر عدوك تجربة لتعلم مقدار عداوته» (حكمة ٦٣٤).

«الِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْـهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ» (حكمة:٢٠١).

وللحلم قاعدته المعتبرة ما وجه بها الإمام عليه السلام :

«ليس الحِلمُ ما كان حالَ الرضى، بل الحِلمُ ما كان حالَ الغضب» (حكمة ٦٢٩).

ومما يضيع للإنسان مع سوء التدبير ما يكون له من ضياع المال والرفق، ما نوه له عليه السلام:

«لا مال لمن لا تدبير له، ولا عيش لمن لا رفق له» (حكمة ٦٣٨).

ويكون لإنشغال البعض بتدبيج الألفاظ والسعي وراء السمعة ما يفوت عليهم ما يحتجون به لحياتهم، وقد أشار الإمام عليه السلام لهذه الظاهرة من السلوك:

«مَنِ اشتغَلَ بِتَفقُّد اللفظة، وطَلَب السَّجْعة، نَسِيَ الـحُجّة».

وفي مجال الاختبار السلوكي من خلال التجربة ورد قوله عليه السلام:

«أخبر تَقله».

وورد في الشرح ان معناه: اختبر الناس وجربهم، فإنّ التجربة تكشف لك مساوئهم، وسوء أخلاقهم، فضرب مثلاً لمن يظن به الخير وليس هناك، وقد قال المأمون في ذلك: «لولا أنّ علياً قاله لقلت: أقله تخبر»، وفي ذلك من كلام عتبة بن أبي سفيان: «خيّروا الدم في وجوه الشباب، فإن حلموا وأحسنوا الجواب فهم هم، وإلا فلا تطمعوا فيهم»، ويقول: «أغضبوهم لأنّ الغضبان محمر وجهه، فإن ثبتوا لذلك الغلام المغضب وحلموا وأجابوا جواب الحليم العاقل فهم فيمن يعقد عليه الخنصر، ويرجى فلاحه، وإن سفهوا ولم يثبتوا لذلك فلا رجاء لعلاجهم»، ومن المعنى الأول قول أبي العلاء:

جرّبـت دهـري وأهليـه فمـا تـركت ... لي التجـارب في ود إمـرئ غرضـا[1]

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ».

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٩١.

ويتضمّن قيمة اعتبارية لإجهاد النفس على عمل الخير، وفيه معنى: «ان الثواب على قدر المشقة»، لأنّ العوض الحقيقي عوض عن الألم، ولهذا قال صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة أضمرها» أي: أشقها [1].

«الخلاف يهدم الرأي»:

وهذا مثل قوله عليه السلام: «**لا رأي لمن لا يطاع**»، فكان يقال: «اهدى رأي الرجل ما نفذ حكمه، فإذا خولف فسد»، وقال دريد بن الصمة:

أمـــرّتهم أمـــري بمنعـــرج اللـــوى فلم يستجيبوا النصح إلا ضـحى الغـد

فلـما عـصوني كنـت فـيهم وقـد أرى غـــوايتهم وأننـــي غـــير مهتـــدي [2]

«مِنَ الْـخُرْقِ الْـمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ، وَالأَناةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ».

ورد فيه قول المعتز «اهمال الفرصة حتى تفوت عجز، والعجلة قبل التمكن خرق»، وقد جعل امير المؤمنين عليه السلام كلتا الحالتين خرق، وهو صحيح لأن الخرق هو الحمق، وقلة العقل، وكلتا الحالتين دليل على الحمق والنقص [3].

أشار الإمام عليه السلام إلى اقتران العلم بالعمل كخاصية اعتبارية له:

«الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بالْعَمَل فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بالْعَمَل فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلّا ارْتَحَلَ».

وجاء في الشرح انّ كلام أميرالمؤمنين عليه السلام يشعر بأنّه لا عالم إلا وهو عامل، ومراده العلم ها هنا العرفان، ولا ريب انّ العارف لا بد أن يكون

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩ / ٤٦.
(٢) شرح النهج: ٢٠ / ٢٠.
(٣) شرح النهج: ٢٠ / ١٥٢.

عاملاً[1].

ورد بشان العوامل الاعتبارية في الجزاء قوله عليه السلام:

«**ازْجُرِ الْـمُسِيءَ بِثوَابِ الْـمُحسِنِ**».

وفيه التوجيه باعتماد الحوافز الايجابية ليكون في ذلك الدافع لتجاوز المقصر لتقصيره، وقد افصح ابو العتاهية عن ذلك بقوله:

إذا جـــاوزت بالإحـــسان قـــدراً زجـــرت المـــؤمنين عـــن الـــذنوب

فمالـــك والتنـــاول مـــن بعيـــد ويمكنـــك التنـــاول مـــن قريـــب

أشار الإمام عليه السلام إلى جانب من جوانب الصحة النفسية ما يكون من الترويح عن النفس بالطرائف:

«**إِنَّ هذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ**».

وفيه معنى الانفعال من كرب الجدّ بصرف الإنسان وقته عن الأنظار العقلية والانتقال به إلى ما يكون له مما يروح به النفس، ويشار إلى انّ كثيراً من الحكماء والعلماء كانوا ذوي دعابة مقتصدة، وقد ورد في الحديث: «روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإنّ القلوب إذا كلّت عميت»، وقد أُثر عن الإمام علي عليه السلام ما وصف به ذاته بذلك، وقد قال الشاعر:

أفـد طبعـك المكـدور بالجـد راحـةً تجـمُ وعلّلـــه بـشيءٍ مـــن المـــرح

ولكـــن إذا أغـــضبته ذاك فلـــيكن بمقـدارِ مـا يعطـي الطعـام مـن الملـح

قال عليه السلام في صفة الغوغاء:

---

(١) شرح النهج ٢٠ / ١٥٣.

«**هُمُ الَّذِينَ إذا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا، وَإذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا**»، بل قال: «**هُمُ الَّذِينَ إذا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وَإذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا**»، فقيل: قد علمنا مضرّة اجتماعهم، فما منفعة افتراقهم؟، فقال عليه السلام: «**يرجع أصحاب المهن إلى مهنهم، فينتفع الناس منهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز إلى مخبزه**».

ـ أشار عليه السلام لما يكون للإنسان من مرونة التعامل ممثلاً لذلك بما يكون من كثافة أغصان الشجرة حين يلين عودها:

«**مَنْ لانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ**».

ـ نوّه الإمام عليه السلام ببعض النتائج المتصلة بمطامع الحكم كما في قوله:

«**أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْـمَطَامِعِ**».

«**الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلِّ**».

أوصى الإمام عليه السلام كثيراً بالحلم، والذي هو دعامة الحكم الرشيد، وعنوان ثباته، موضحاً أنّه نتاج عقلي، ومن روائع قوله في ذلك:

« **الْـحِلْمُ عَشِيرَةٌ**».

«**الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ**».

ـ ووضع الإمام عليه السلام العدل في الصدارة من مزايا يستقيم بها أمر الإنسان على الجادة الصحيحة:

«**اَلْعَدْلُ يَضَعُ الأُمور مَوَاضِعَهَا وَ اَلْـجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا وَاَلْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ وَ اَلْـجُودُ عَارِض خَاصٌّ فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا**»:

ـ يشير الإمام عليه السلام إلى خصلة من خصال السلوك القيادي من شأنها أن تؤمن للأشخاص في موقع المسؤولية ما يخشونه من المواقف المعادية لهم، وتتمثّل في مقارنتهم لأخلاق الناس:

«مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ».

وجاء في الشرح: انّ المنافرة في الأخلاق والمباعدة فيها مجلبة للعداوات، ومن عاداه الناس وقع في غوائلهم، فالمقاربة لهم في أخلاقهم حافظة لمودّتهم، لكن لا تجوز الموافقة في غير حق.

وفي المقابل ذلك كان قوله عليه السلام: «**من أؤمأ إلى متفاوتٍ خذلته الحيّل**» إشارة إلى أن طلب تحصيل المتباعدات بضمّ بعضها إلى بعض، يكون من شأنه أن تخذله الحيل فيما يزيد فلم ينجح فيه[1].

ـ ونبّه عليه السلام لظاهرة الاستجداء وعدّها خمولاً للهمّة في طلب الرزق:

«إظهار الفاقة من خمول الهمة» (حكمة ٦٤٥).

ـ وأشار الإمام عليه السلام إلى جانبٍ هامٍّ من تقسيم عمل الإنسان على مدار يومه، وفيه انتظام ونظام الحياة في مجراها الطبيعي ما تتوازن فيه الأنشطة الحيوية للإنسان، الروحية منها والمادية على التوافق والتكامل:

«لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ مَرَمَّةٍ لِـمَعَاشٍ أو خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أو لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»[2].

---

(١) نهج البلاغة: هامش ص٤٩٨.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ٢٥٥.

ـ وفي جانب اعتباري وموضوعي من حياة الناس ما لا يصح فيه اجتماع الناس على حالة من الرضا، ما يقتضي ممن يعنيه الأمر التحري عن وجه الصواب بجهده، يقف بنا الإمام عليه السلام عند هذه الحقيقة الإنسانية ناصحا من يعنيه الأمر ان يقف على الصواب بجهده.

«**رضا الناس غاية لا تدرك، فتحّر الخير بجهدك، ولا تبالي بسخط من يرضيه الباطل**» (حكمة ٥٠١).

ـ ومن فرائد الحكم وقلائد الحكمة التي انتظمت الخبرة والتجربة في الحياة العملية مقرونة بمواقف وأعباء المسؤولية القيادية، ومن موقع المواجهة المريرة للإمام عليه السلام مع أعداء الدولة، ومن قلب الأحداث في معركة صفين كانت رسالة القائد المدبّر الإمام علي عليه السلام إلى ابنه الإمام الحسن عليه السلام ضمّنها تجاربه وحكمته الماضية، البصيرة بالأُمور، وقد استهلّها بوصايا معتبرة اشتملت على مضامين التدبير المسترشد بسنّة الصلاح ومفتاحها التقوى.

«**أحيّي قلبك بالموعظة، وأمتهُ بالزهادة، وبصرهُ بفجائع الدنيا، ونوّرهُ بالحكمة، وحذّرهُ صولة الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه تجارب الماضين، وذكّرهُ بما أصاب قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر ما فعلوا عما انتقلوا وأين حلّوا ونزلوا.. فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لا تكلف، وامسك عن طريق إذا ما خفت ضلالته.. ولا تأخذك في الله لومة لائم وخض الغمرات إلى الحق حيث كان، وعوّد نفسك الصبر على المكروه، ونعم الخلق التصبر.. وأخلص المسألة لربك**».

واشتملت الرسالة على مجموعة معتبرة من الحكم التدبيرية وفي مجالات الحياة تتلخص بالآتي:

«تَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ».

«الحِرفة مع العفَّة خير مِن الغِنَى مع الفُجُور».

«المرء أحفظ لسرِّه».

«من أكثر أهجر[1]، ومن تفكّر أبصر».

«قارِنْ أهلَ الخير تكنْ مِنهم، وباينْ أهلَ الشَّرّ تَبنْ عنهم».

«ظُلمُ الضَّعيفِ أفحَشُ الظُّلم».

«إذا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً[2] كَانَ الْـخُرْقُ رِفْقاً».

«ربّما كان الدواء داءً، والداء دواءً».

«ربَّما نَصَحَ غيرُ الناصح، وغَشَّ الـمُسْتَنْصَح».

«الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِب، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ».

«بادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

«لَيْسَ كُلُّ طَالِب يُصِيبُ، وَلاَ كُلُّ غَائِب يَؤُوبُ».

«التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِير أَنْمَى مِنْ كَثِير!».

«لا خَيرَ فِي مُعينِ مَهينِ، ولا فِي صَديق ظَنينِ».

«سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ».

«امْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً».

---

(١) أهذى في كلامه.

(٢) العنف.

«لا تَرغَبنَّ فيمَن زَهِد فيك».

«اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمور أَشْبَاهٌ».

«اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْـهُمُوم بعَزَائِم الصَّبْرِ وَحُسْن الْيَقِينِ».

«مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ».

«مَنْ تَعَدَّى الحَقَّ ضاقَ مَذهَبُهُ، ومن اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَه».

«من لم يبالِ[1] بك فهو عدوُّك».

«قَطِيعَةُ الْـجَاهِل تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِل».

«ليس كلّ مَن رمى أصاب».

«سَلْ عَن الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيق، وعَن الْـجَارِ قَبْلَ الدَّار».

«الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَاب، وَآفَةُ الأَلْبَاب».

«أَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ وَأَصْلُكَ الَّذِي إليه تَصِيرُ وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ».

ـ «إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان».

حكمة بليغة لها أُصول جارية في التاريخ الإنساني، وهي توافق مضمون الحديث: «كيف ما تكونوا يوّل عليكم».

ـ «واجعل لكل إنسان من خدمك عملاً تأخذهُ به، فإنّه أجرى أن لا يتواكلوا في خدمتك».

---

(١) من لم يهتم بك.

ولهذا القول الحكيم دلالته المعتبرة في ملافاة ما يدعى بـ (البطالة المقنعة) والناتج من سوء التوزيع وعدم الاستثمار الأمثل لطاقات العمل في عوائد انتاجية.

وغير ذلك الكثير من موارد الحكمة للإمام عليه السلام ما يحتاج إيراده والوقوف عنده بالتأمّل والشرح بحث خاص.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلّى الله على رسوله الأكرم وآله الغر الميامين..

***

المصادر

* **القرآن الكريم.**

* **الكتاب المقدس ـ العهد القديم.**

١. الأبطال، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، دار الهلال، القاهرة.

٢. الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدين الصدرين، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧.

٣. الاحكام السلطانية والولايات الدينية، ابي الحسن الماوردي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٦٠.

٤. الأداء المتميز ـ التوافق بين القلب والعقل ـ جون كاترنباغ، تعريب محمد حسن شمور، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢.

٥. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الاثير الجزري، تحقيق: علي محمد معوض، عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣.

٦. الاصول العلمية للادارة والتنظيم، د. علي عبد المجيد عابدين، دار الاتحاد العربي، الطبعة السابعة، ١٩٧٢.

٧. اعلام الهداية (٢) أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب باقر شريف القرشي المجمع العلمي لأهل البيت الطبعة السادسة ٢٠٠٩.

٨. الإمام علي – صوت العدالة الانسانية ـ جورج جرداق، تحقيق: حسن حميد السنيد، المجمع العالمي لاهل البيت عليهم السلام، الطبعة الاولى، ٢٠٠٤.

٩. الامام علي من المهد إلى اللحد، محمد كاظم القزويني، دار الكتاب العربي، بغداد، الطبعة الاولى، ٢٠٠٤.

١٠. الامام علي والعلم الحديث، حسن عبد الفريجي، الطبعة الاولى، بغداد، ٢٠٠٤.

١١. الامامة والقيادة د. أحمد عزالدين، مركز المصطفى للدراسات الإسلامية، قم، الطبعة الاولى ١٤١٧هـ.

١٢. الامثل في كتاب الله المنزل ناصر مكارم الشيرازي مدرسة الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام ١٤١٧هـ.

١٣. الأمراض النفسية الجسمية – انفعالاتها، علاجها، ـ د. علي كمال، دار واسط، الطبعة الثانية، ١٩٨٨

١٤. أسس الادارة والقيادة، كارول اوكونر، ترجمة :مركز التعريب والترجمة الدار العربية للعلوم، الطبعة الاولى ١٩٧٧.

١٥. أغرب الموارد في فصيح اللغة والشوارد، سعيد الخوري الشرتوني، دار الاسوة، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ

١٦. افكار عظيمة في الادارة، جان دنكان، ترجمة: محمد الحديدي، الدار الدولية للنشر والتوزيع.

١٧. اقتصادنا، محمد باقر الصدر، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ.

١٨. انساب الاشراف، البلاذري، تحقيق: سهيل بكار، د. رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٦.

١٩. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، الذهبي، تحقيق :د.بشار عواد معروف

دار الغرب الإسلاميتونس الطبعة الثانية ٢٠١١.
٢٠.تاريخ الخلفاء، السيوطي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الاولى، ١٩٥٣.
٢١.تاريخ الرسل والملوك، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩.
٢٢.تاريخ الفكر الاداري، جورج كلودس، مكتبة الوعي، القاهرة.
٢٣.تاريخ اليعقوبي، المكتبة الحيدرية، قم، الطبعة الاولى، ١٤٢٥هـ.
٢٤.تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون، مكتبة الاعلام الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
٢٥.التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.
٢٦.التفكير الابداعي لدى المديرين وعلاقته بالمشكلات الادارية، لطف محمد علي، دار اليازوري، عمان، الطبعة الاولى، ٢٠١١.
٢٧.التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، دار الهلال.
٢٨.تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف المزدي، تحقيق :عمر سعيد شوكت دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الاولى ٢٠٠٤.
٢٩.جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية.
٣٠.جمهورية افلاطون، ترجمة :حنا خباز دار العلم بيروت الطبعة الاولى ١٩٦٩.
٣١.حياة محمد، محمد حسين هيكل، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشرة، ١٩٦٨.

٣٢.خصائص الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام، عبدالرحمن النسائي الشافعي، تحقيق :محمد باقر المحمودي الطبعة الاولى ١٩٨٣.

٣٣.خليفة الله، د. حسين نور الدين، دار المحجة البيضاء، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠١٠.

٣٤.الراعي والرعية، توفيق الفكيكي، دار الغدير، الطبعة الاولى، ١٤٢٩هـ.

٣٥.روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود شكري الآلوسي، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩١.

٣٦.سنن الإمام علي عليه السلام، مجموعة مؤلفين، موسوعة سنن المعصومين عليهم السلام، نور السجاد، الطبعة الاولى.

٣٧.سيرة الائمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، دار التعارف، بيروت، الطبعة الثالثة.

٣٨.السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، مكتبة الإيمان، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٩٥.

٣٩.شرح الأخبار في معرفة فضائل الائمة الأطهار، النعمان بن محمد التميمي، تحقيق: محمد الحسيني الجلالي، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الاولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠.شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٥..

٤١.الصحاح في اللغة والعلوم، اعداد: نعيم مرعشلي، اسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، الطبعة والاولى، ١٩٧٤.

٤٢.الطبقات الكبرى، ابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧.

٤٣.عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد، دار التربية، بغداد، ٢٠٠١.
٤٤.العرب والتربية والحضارة، دار السلاسل، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.
٤٥.الفرق بين الادارة والتدبير، د. مهدي حسين التميمي، بيت الافكار الدولية، عمان، ٢٠٠٥.
٤٦.الفرق بين القائد والمدير، فريق بيت الافكار الدولية، بيت الافكار الدولية، عمان، الطبعة الاولى، ٢٠٠٥.
٤٧.فكر الغزالي التربوي، عبد الرحمن صالح عبد الله، دار المناهج، عمان، الطبعة اولى، ٢٠٠٦.
٤٨.في ظلال القرآن، سيد قطب، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠١.
٤٩.القاموس المحيط، الفيروزابادي، المطبعة الحسينية المصرية.
٥٠.قراءة في العادات السبع – دليل القيادة الشخصية في القرن الحادي والعشرين ـ استيفن آر. كوفي، ترجمة: محمد عبد العليم، مركز الخبرات المهنية للادارة (بمبك)، مركز الخبراء للتدريب والتعليم المتقدم، مكتبة رجال الاعمال (٢).
٥١ ـ قصة الحضارة ، ول . دوارنت ، ترجمة : محمد بدران ، دار الجيل ، بيروت ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس .
٥٢.القطرة من بحار مناقب النبي والعترة، احمد المستنبط، الطبعة الاولى، ١٤٢١هـ.
٥٣.القيادة الادارية بيتر.ج.نورث، ترجمة: د.صلاح بن معاذ المعيوف، معهد الادارة العامة الرياض ١٤٢٧هـ.
٥٤.الكامل في التاريخ، ابن الاثير، دار ومكتبة الايمان، بيروت، ٢٠٠٣.
٥٥.كتاب العين للخليلي الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. ابراهيم

السامرائي، دار اسوة، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
٥٦.كتاب المهرجان لابن سينا لجنة الاثار الوطنية ١٣٧٤هـ.
٥٧. نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة، عبد الرسول زين الدين، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، دار المعرفة، النجف الاشرف، الطبعة الاولى، ٢٠٠٨.
٥٧.كشف الغمة في معرفة الائمة، الاربلي، دار الشريف الرضي، الطبعة الاولى، ١٤٢١هـ.
٥٨.لُباب الالباب، اسامة بن منقذ، دار احياء الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٩٧٤.
٥٩.لسان العرب، ابن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩١م.
٦٠. لسان العرب المحيط (المصطلحات العلمية والفنية) اعداد: يوسف خياط، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠.
٦١.مآثر الانافة في معالم الخلافة، القلقشندي، تحقيق: عبد الستار فراج، مطبعة الحكومة، الكويت، ١٩٦٤.
٦٢. مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، دار الكتب الجامعية، مكتبة الرواق، ١٣٨٦هـ.
٦٣.محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.
٦٤.مصالح الابدان والانفس، احمد بن سهيل البلخي، منظمة الصحة العالمية، المكتب الاقليمي للشرق الاوسط، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، ٢٠٠٥.
٦٥.معارج نهج البلاغة، علي البيهقي الانصاري، تحقيق: اسعد الطيب، مركز الابحاث والدراسات الإسلامية، الطبعة الاولى، ١٤٢٢هـ.
٦٦.معجم جورج ب. بادجر An English – Arabic Lexicon

٦٧.معجم الذخيرة العلمية، جورج برسي، بارجر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٠.
٦٨.المعجم المفهرست لالفاظ نهج البلاغة، دار التعارف، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٠.
٦٩.معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٤.علم النفس التطوري، دافيد أياس، ترجمة د. مصطفى حجازي، دار كلمة، ابو ظبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٩.
٧٠.المفردات في غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
٧١.مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤.
٧٢.المناقب الخوازمي، الخوارزمي، مؤسسة البلاغ بيروت.
٧٣.المنجد ـ في اللغة والاعلام ـ دار المشرق بيروت الطبعة الاربعون.
٧٤.موسوعة التاريخ العربي، عبد المنعم الهاشمي، دار ومكتبة الهلال، البحار، بيروت
٧٥.موسوعة سيرة اهل البيت، باقر شريف القرشي، دار المعروف، الطبعة الاولى، ٢٠٠٩.
٧٦.موسوعة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد مؤسسة التاريخ العربي دار احياء التراث العربي، بيروت الطبعة الاولى ٢٠٠٨.
٧٧.نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الاولى، ٢٠٠٦.
٧٨.نهج البلاغة المختار من كلام أمير المؤمنين لجامعه الشريف الرضي تحقيق: هاشم الميلاني، العتبة العلوية المقدسة٢٠١٢.
٧٩.نهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري، دار امير كبير، طهران،

الطبعة الاولى، ١٩٩٧.

٨٠.الهادي إلى لغة العرب، حسن سعيد الكرمي، دار لبنان، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩١م.

٨١.يتيمة الدهر، الثعالبي، المطبعة الحنفية، ١٣٠٣هـ.

٨٢.The New Encyclopedia Britannica Encyclopedia Britannica Inc. Chicago ١٩٩٢.

٨٣ - Oxford Word Power Oxford University Third Imp. ٢٠٠٠..

٨٤.كراس خاص بندوة عهد الإمام علي عليه السلام إلى مالك الاشتر (رض)، رئاسة ديوان الوقف الشيعي، جامعة بغداد.

٨٥.اضطرابات الشخصية، ارشيف ساندوز الثقافي.

***

الفهرس

المقدمة ٩

مفهوم التدبير ٢١

الذكاء العظيم والعلم الجم ٦٣

الذاكرة المعرفية الواعية ٧٣

الحلم والسماحة ٨٨

البــرّ ٩٣

الحزم والشجاعة ٩٦

الزهد والامتثال لله ١٠٥

وظيفة الدولة ومهام التدبير العام ١١٠

١ ـ الجانب السياسي والتنظيمي ١١١

٢ ـ القضاء ١٢٢

٣ ـ الجانب الاقتصادي ١٢٧

قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ١٨١

مالك بن الأشتر النخعي ١٨٥

محمد بن أبي بكر ١٩١

عمار بن ياسر ١٩٤

عبد الله بن عباس ١٩٦

المصادر ٢٢٩